(سلسلة تقريب التراث الإسلامي إلى القارئ الحديث ٤)

العواصم من القواصم

(في تنزيه الصحابة عما افتراه الخصوم)

للقاضي أبي بكر بن العربي

(٤٦٨ – ٥٤٣ هـ)

ضبط ألفاظه وشرحها

محمد علي أبو زهرة

{تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ ۖ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ ۖ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ}

(خيرُ الناسِ قَرْني ثمَّ الذين يَلُونَهم ثمَّ الذين يَلُونَهم)

صدق رسول الله ﷺ

(المسلمون يُمسِكون عما شَجَرَ بين الصحابة، ويقولون إن هذه الآثارَ المرويةَ في مَساوئهم منها ما هو كَذِب، ومنها ما قد زيد فيه ونُقِص، وغُيِّرَ عن وجْهه، والصحيحُ منه هم فيه مَعْذورون؛ إمّا مجتهدون مُصيبون وإمّا مُجتهدون مُخطئون. ولهم من السَّوابقِ والفضائلِ ما يوجِبُ مَغْفرةَ ما يَصْدُرُ عنهم إنْ صَدَر، حتى إنهم يُغْفَر لهم مِنَ السيئاتِ ما لا يُغْفَر لِمَن بَعْدَهم؛ لأنَّ لهم مِنَ الحَسَنات التي تَمْحو السيئاتِ مما ليس لمن بَعْدَهم).

ابن تيمية

(كان عبدُ الله بنُ سَبَأ يهودياً فأسْلَمَ، وتوجَّه إلى مصرَ حينما علم أنَّ مُخالفي عثمانَ بنِ عفانَ كثيرون هناك، فتظاهر بالعلم والتقوى، حتى افتُتِنَ الناسُ بهِ، وبعد رُسوخه فيهم بدأ يروِّج مذهبَه ومسلَكه، ومنه: أن لكلِّ نبيٍّ وَصِيّاً وخليفةً، فوَصِيُّ رسولِ اللهِ وخليفتُه ليس إلا عَليّاً الْمُتَحَلّيَ بالعلمِ والفتوى، والْمُتزيِّنَ بالكرمِ والشجاعة، والْمُتَّصِفَ بالأمانةِ والتقى، وقال: إنَّ الأمةَ ظَلَمَتْ عَليّاً، وغَصَبَتْ حقَّه، حقَّ الخِلافة والوِلاية، ويَلْزَمُ الآنَ على الجميعِ مناصرتُه ومعاضدتُه، وخلعُ طاعةِ عثمانَ وبيعتِه، فتأثر كثيرٌ من المِصْريين بأقوالِهِ وآرائه، وخَرَجوا على الخليفةِ عثمانَ).

المؤرخ مير خواند

في كتابه "روضة الصفا"

هذا الكتاب

الإسلامُ صَرْحٌ عظيمٌ رَفَعَ اللهُ سُبْحانَه بُنْيانَه، وجَدَّدَ رسولُ اللهِ ﷺ أَعلامَه، ولم ينتقلْ ﷺ إلى الرفيقِ الأعلى إلا وقدْ جَاء نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجاً، حتى بَلَغَ ما بَلَغَ اللَّيلُ والنَّهارُ، ولم يبقَ بيتُ مَدَرٍ ولا وَبَرٍ إلَّا أدخلَه اللهُ هذا الدِّين، بِعِزِّ عَزِيزٍ أو بِذُلِّ ذَليلٍ، عِزًّا أعزَّ الله به الإسلامَ، وذُلًّا أذلَّ به الكفرَ كما أخبرَ رسولُ الإسلام.

ولا عَجَبَ أنْ يَكثُرَ خصومُه ممنْ تأثرتْ مصالحُهم وذَهَبَتْ رِيحُهم وزالتْ دُوَلُهم وبطلَتْ عقائدُهم؛ فتربَّصوا به وكادُوا له وانْتَهزوا كلَّ فرصةٍ وركِبوا كلَّ فتنةٍ للإضْرارِ به والقضاءِ عليه، ولكنْ أخزاهمُ اللهُ في كلِّ مرَّة {كُلَّمَا أَوْقَدُواْ نَاراً لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللّهُ}. وعندما طال انتظارُهم وفَشَلَ كيدُهم أوحتْ إليهم شياطينُهم بأنْ يَلِجوا في حَربِهم الإسلام من بابِ الصحابةِ الكرام، الذين اختارهمُ اللهُ لنبيِّه وربّاهم على عينِه، فشككوا في عدالتِهم، وصوَّروهم أهلَ دُنيا يتقاتلونَ مِنْ أجلِها ويَغْتصبونَ حُقوقَ إخوانِهم ويظلمونهم. وهدفُهم مِنْ ذلكَ التشكيكُ في جهادِ النبيِّ ﷺ والجيلِ الذي ربّاه، وتقويضُ البناءِ المحْكَمِ الذي بَناه، فزيَّفوا الأخبار، وأَكْثَروا الروايات، وحَشَوا بها كتبَ التاريخِ والأدب، لعلَّها تَجِدُ مَنْ يُصَدِّقُها وتَرُوجُ عندَه. ولكنْ كان أئمةُ الدِّين ووَرَثَةُ رسولِ ربِّ العالمين، منْ علماءَ عاملين، وفقهاءَ مُسْتَبصرين، كانوا لهم بالمرْصاد، فكشفوا زَيْفَهم، وحَقَّقوا مواقفَ أصحابِ نبيِّهم، وأبانوا عدْلَهم وفضلَهم، ونَشَرُوا الرواياتِ الصحيحة، والكتبَ والمقالاتِ الفصيحة.

واشْتُهِرَ مِنْ هذه الكتبِ كتابُ (العواصِمُ مِنَ القواصِمِ في تحقيقِ مواقفِ الصحابةِ بعدَ وفاةِ النَّبي) وهو مِنْ تأليفِ الحافظِ القاضِي أبي بكرِ بنِ العربي. يَرُدُّ فيه على مَنْ يَطْعَنُ بأصحابِ النبيّ ﷺ، فالطعنُ بأصحابِ النبيّ ﷺ في رأيِ ابنِ العربي وأهلِ السُّنةِ جميعِهم هو طعنٌ بالنبيّ ﷺ ذاتِه؛ لأنهم على يديه تَرَبَّوا أكملَ تربيةٍ وأحسنِها، والتشكيكُ فيهم تشكيكٌ فيمن ربَّاهم وعلَّمهم؛ لذا تصدّى المؤلفُ للدفاعِ عنهم وذِكْرِ مناقِبِهم وفَضائلهم وكَراماتِهم. كما يعدُّ كتابُ العواصم من القواصم من أبرز الكتابات التاريخية التي تسعى لإنصاف الأُمويين، وتنقيةِ تاريخهم مما عَلَقَ به من شبهاتِ المؤرخينَ والأدباءِ.

وقدْ جَرَتْ عادةُ ابنِ العربي في هذا الكتابِ أنْ يذكرَ الأخبارَ المنسوبةَ إلى الصحابةِ تحتَ عنوانِ (قاصِمَة) ثمَّ يَرُدُّ عليها خَبراً خَبراً ويبينُ وجْهَ الحقِّ فيه تحتَ عنوانِ (عاصِمَة). وكان ذلك منهجَه في تحقيقِ مواقفِ الصحابةِ فيما شَجَرَ بينَهم بعدَ وفاةِ نبيِّهم، فيذكرُ الموقفَ الذي يَرويه الخُصوم ثم يردُّ عليه ويبيِّنُ وجْهَ الحقِّ فيه.

وقدْ بدأ المؤلفُ مِنْ وفاةِ النبيِّ ﷺ وسمّاها قاصِمَةَ الظَّهْر. وانتقلَ منها إلى خِلافَةِ أبي بكرٍ وعمرَ وما كان فيها مِنَ البَرَكَةِ والاجْتماع والائتلاف. ثمَّ خِلافةِ عثمانَ وعليٍّ وما كان فيها مِنْ فتنٍ وتنازعٍ واخْتلاف. وتناولَ خلافةَ مُعاوِيةَ وابنِه يزيدَ والدولةَ الأمويةَ حتى وَصَلَ إلى الدولةَ العبّاسية.

وقدْ لَفَتَ نَظري توسُّعُ القاضي أبي بكرِ بنِ العربي في الحديثِ عنْ زيادِ بنِ أبيه – في آخرِ هذا الكتاب – وتساءلتُ بيني وبين نفسي عنْ سرِّ ذلك، فلمّا وصلتُ إلى هذا

الموضعِ مِنَ الكتابَ علمتُ أنه إنما صَنَعَ ذلك لأنَّ زياداً صحابيٌّ جليلٌ حَمَلُوا عليه وعلى أخيه معاويةَ الأباطيلَ فدافَعَ عنه كما دافَعَ عنْ مُعاوِيةَ والأمويين.

وقدْ أَوْجَزَ القاضِي أبو بكرٍ هَدَفَه مِنْ هذا الكتابِ في (العاصِمَةِ) الأخيرةِ التي بيَّنَ فيها أنَّه إنَّما فَعَلَ ذلك مِنْ أجلِ التحذيرِ مِنْ حكاياتِ المؤرّخينَ وأهلِ الآدابِ الذين حَشَوا كتبَهم بأخبارٍ زائفةٍ عَنِ الصحابةِ الأَبْرار، كما بيَّنَ أنَّ هؤلاءِ المؤرخينَ والأدباءَ أهلُ جَهالَةٍ بِحُرماتِ الدِّين وكانوا على بِدْعةٍ مُصِرّين، (فلا تُبالُوا بما رَوَوا، ولا تَقْبَلُوا روايةً إلا عنْ أئمةِ الحديثِ، ولا تَسْمَعوا لمؤرخٍ كلاماً إلا للطَّبَري[1]، وغيرُ ذلكَ هو الموتُ الأحمرُ والداءُ الأكبرُ). وحذَّرَ مِنَ المسْعودي والجاحِظ وأمثالِهم؛ فإنهم (يُنشئون أحاديثَ فيها استحقارُ الصحابةِ والسَّلَفِ والاستخفافُ بهم، واختراعُ الاسترسالِ في الأقوالِ والأفعالِ عنهم، وخروجُ مقاصدِهم عنِ الدِّين إلى الدُّنيا وعنِ الحقِّ إلى الهوى). وفي المقابلِ يُثني على مالكٍ وأحمدَ والبخاريِّ وأئمةِ الحديث، إلى آخرِ هذا الذي تطالعونَه في الكتاب. رَحِمَ اللهُ القاضِي أبا بكرٍ، وجَزاه عنْ أصحابِ محمدٍ خيرَ الجَزاءِ؛ فقد كان صاحب عقل وفقه سبق بهما أهل زمانه رضي اللهُ عنه، ورَضِيَ اللهُ عن أصحاب محمدٍ وعنّا معهم، وآخرُ دعوانا أنِ الحمدُ للهِ ربِّ العالمين.

---

١ – أبو جعفر محمد بن جرير الطبري (٢٢٤ – ٣١٠ هـ) المفسّر والمؤرّخ والفقيه. كان على جانبٍ كبير من الورع والزهد والحذر من الحرام، والبُعد عن مواطن الشُّبَه، واجتناب محارم الله تعالى، والخوف منه، والاقتصار في المعيشة على ما يَرِدُهُ من ريع أرضه وبستانه الذي خلَّفه له والده. قال ابن كثير: "وكان من العبادة والزهادة والورع والقيام في الحق لا تأخذه في ذلك لومة لائم، وكان من كبار الصالحين".

طبعات الكتاب

كانتْ أولُّ طبعةٍ لهذا الكتابِ هي التي نَشَرَها الشيخُ عبدُ الحميدِ بنُ باديس رحمه الله[١]، في قسنطينة، الجزائر، الجزء الأول سنة ١٩٢٧، الجزء الثاني سنة ١٩٨٢. وكان قدْ اعتمد على مخطوطةٍ واحدةٍ كانت بجامِع الزيتونة، بتونس، فيها بياضٌ وخُرومٌ في بعضِ الْمَواطِنِ، وقدِ اجتهدَ في قراءةِ النصِّ وحاوَلَ أنْ يُحافِظَ عليه كما هو.

ثم قام العلاّمةُ الشيخُ محبُّ الدين الخطيب[٢] بنشر هذا الكتاب[٣] اعتمادًا على طبعة الشيخ ابن باديس سالفةِ الذِّكر، دونَ غيرها كما نص على ذلك في مقدمة كتابه، ولم يعتمد على أية مخطوطة أخرى؛ وهذا ما جعله يتصرف في بعض النصوص، فيقدم ويؤخر على حسب ما أداه إليه اجتهادُه، وتصرَّف في بعض التراكيب والكلمات. وكانت له تعليقاتٌ مفيدةٌ على كثير من مواطن الكتاب، أفاد منها كل من جاء من بعده[٤]. ثم توالت بعد ذلك الطبعات، وكان معتَمدها في ذلك طبعة الخطيب رحمه الله، ومنها طبعة الأوقاف بالمملكة العربية السعودية، وطبعة المكتب السلفي لتحقيق التراث.

---

١ – الإمام عبد الحميد بن باديس (١٨٨٩ – ١٩٤٠م) من رجال الإصلاح في الوطن العربي ورائد النهضة الإسلامية في الجزائر، ومؤسس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين.

٢ – محب الدين الخطيب (١٨٨٦ – ١٩٦٩م)، أديب وكاتب وصحفي ومحقق وناشر وداعية اسلامي سوري، من مؤسسي جمعية الشبان المسلمين بالقاهرة، صاحب المكتبة السلفية ومطبعتها بمصر، كان مدافعاً عن قضايا العروبة والإسلام، وساهم من خلال المكتبة السلفية ومطبعتها بإصدار الكتب وتحقيق كتب التراث الإسلامي.

٣ – اكتفى الأستاذ الخطيب بنشر الجزء الخاص بالصحابة من هذا الكتاب، واقتفى أثره من جاؤوا بعده مكتفين بنشر هذا الجزء قبل أن يطبع الكتابُ بعد ذلك كاملاً في جزئيه اللذين وضعهما ابن العربي.

٤ – وقد نقلتها بنصها في هذا الإخراج الجديد.

لماذا إعادتي لإخراج الكتاب؟

بعدَ مرورِ قَرابةِ قَرْنٍ على تحقيقِ المرحومِ الأستاذِ محبّ الدّين الخطيب لهذا الكتاب، تغيَّرتْ إلى حدٍّ ما طبيعةُ اللغةِ التي استخدَمها في تحقيقِه، وصار كثيرٌ منها اليومَ يَجِدُ القارئُ الحديثُ صعوبةً في فهمِه، كما أنها خاليةٌ مِنَ الضَّبطِ والتَّشكيلِ، وبيانِ معاني كثيرٍ مِنَ الألفاظ التي استعملها المحققُ الأستاذُ الخطيب والمؤلفُ القاضي ابن العربي. والمفردةُ إذا لم تكن مستعملةً بين أهل بيئةٍ معينةٍ كان مِنَ اللازمِ توضيحُ معناها لهم، وهو ما لا غِنى للقارئ المعاصِرِ عنه؛ بعدما تغيَّر المستوى اللغوي لديه عمّا كان عليه في زمنِ المحققِ والمؤلفِ؛ لذا فقد آليتُ على نفسي النهوضَ بهذا العبءِ، مِنْ ضَبطٍ تامٍّ للكتابِ، وشرحِ ألفاظِه، والتعليقِ على أحداثِه، وشرحِ بعض الأحاديثِ النبويةِ الواردةِ فيه، والترجمةِ للشخصياتِ والأعلام المبثوثة فيه، وتحقيقِ بعضِ العباراتِ الْمُلْتَبِسَةِ في الأصلِ، وذلك في إطارِ (مشروع تقريب كتب التراث إلى القارئ الحديث) الذي بدأتُ تنفيذَه والمضيَّ فيه. وهذا هو الكتابُ الرابعُ في هذا المشروعِ بعدَ ثلاثةٍ مِنَ الكتبِ السابقة: (قصةُ الإيمان – مختصر زاد المعاد – حقوقُ آل البيت في مفهوم ابن تيمية). ولما رأيت ابنَ العربي يكثر الرجوع إلى تاريخ خليفة بن خياط (ت ٢٤٠) رجعت إليه وصححتُ نص ابن العربي عليه، وأضفتُ في الهوامش نصوصاً من ابن خياط. هذا وإني أدعو كل مسلم أن يقرأ كتاب العواصم من العواصم؛ إذ لا غنى عنه في معرفة حقوق الصحابة وتنزيههم عما افتراه عليه خصومهم من أكاذيب. واللهَ أسألُ أنْ يتقبلَ هذا الجهدَ ويكتبَ له القبولَ بين عبادِه، والحمدُ للهِ ربِّ العالمين.

أبو زهرة : الكويت – ديسمبر ٢٠٢٠

المؤلف

هو محمدُ بنُ عبدِ اللهِ بنِ محمدٍ الْمَعافِري، المشهورُ بالقاضي أبي بكرِ بنِ العربي الإشبيلي المالكي الحافظُ عالمُ أهلِ الأندلسِ ومُسْنِدُهم[١].

وُلِدَ في إشبيلية سنةَ ٤٦٨ هـ، وتأدّبَ ببلدِه وقرأَ القراءاتِ وسَمِعَ منْ علماءِ بلدِه، ثم رَحَلِ مع أبيه سنة ٤٨٥ هـ إلى الشامِ وبغدادَ ومصرَ فسَمِعَ مِنَ فقهائها. وتفقَّه على حُجَّةِ الإسلامِ أبي حامدٍ الغَزالي. وله شهرةٌ في علمِه فقدْ أَخَذَ جملةً مِنَ الفنونِ حتى أتقنَ الفقهَ والأصولَ وقيَّدَ الحديثَ، واتَّسَعَ في الروايةَ، وأَتْقَنَ مسائلَ الخلافَ والكلامِ وتَبَحَّرَ في التفسيرِ وبَرَعَ في الأدبَ والشِّعرِ.

صَنَّفَ كتباً في الحديثِ والفقهِ والأصولِ والتفسيرِ والأدبِ والتاريخِ. ووَلِيَ قضاءَ إشبيلية، ومات في فاس في ربيع الآخر سنة ٥٤٣ هـ، ودُفِنَ بها. قال عنه ابنُ بشكوال: هو الإمامُ الحافظُ، ختامُ علماءِ الأندلسِ. وله مِنَ المؤلفاتِ كثيرٌ مِنْ أشهرِها: قانون التأويل – أَحْكام القرآن – أنوار الفجر – الناسخ والمنسوخ – القبس في شرح موطأ مالك بن أنس – العواصم من القواصم.

---

١ – وهو غير محيي الدين بن عربي الصوفي الفيلسوف الذي رماه خصومه بالكفر.

بداية الكتاب

بِسْمِ اللهِ الرَّحمنِ الرَّحيمِ وصَلَّى اللهُ وسَلَّمَ على مُحمدٍ وآلِه. قال صالحُ بنُ عبدِالْمَلِكِ بنِ سعيدٍ[١]: قرأتُ على الإمامِ محمدٍ أبي بَكْرِ بنِ العَربيّ رَضِيَ اللهُ عنه قالَ: الحمدُ للهِ رَبِّ العالمينَ، اللهمَّ صَلِّ على محمدٍ وعلى آلِ محمدٍ، كما صَلَّيْتَ على إبراهيمَ وآلِ إبراهيمَ. وبارِكْ على محمدٍ وعلى آلِ محمدٍ، كما باركْتَ على إبراهيمَ وآلِ إبراهيمَ، إنكَ حَميدٌ مجيدٌ.

اللهمَّ إنّا نَستَمِدُّ بكَ الْمِنْحةَ، كما نَسْتَدْفِعُ بكَ الْمِحْنةَ، ونَسْألُكَ العِصْمةَ، كما نَسْتَوْهِبُ منكَ الرحْمةَ. ربَّنا لا تُزِغْ قلوبَنا بعد إذْ هَدَيْتَنا، ويَسِّرْ لنا العَمَلَ كما عَلَّمْتَنا، وأَوْزِعْنا شُكْرَ ما آتيْتَنا، وانْهَجْ لنا سَبيلاً يَهْدي إليك، وافتحْ بينَنا وبينَك باباً نَفِدُ منه عليكَ، لك مقاليدُ السماواتِ والأرضِ وأنتَ على كلِّ شيءٍ قديرٌ.

قاصِمةُ الظَّهر (بموت النبيّ ﷺ)

بَعْدَ أنِ اسْتَأثَرَ اللهُ بِنَبيِّه[٢] صَلَّى اللهُ عليهِ وَسَلَّمَ وقدْ أَكْمَلَ له ولنا دِينَه، وأتمَّ عليه وعليْنا نِعْمتَه، كما قال تعالى {الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا} وما مِنْ شيءٍ في الدُّنيا يَكْمُلُ إلا وجاءه

---

[١] – لم أعثر له على ترجمة.

[٢] – توفاه.

النُّقْصانُ، لِيكونَ الكَمالُ الذي يُرادُ به وجْهُ اللهِ خاصةً، وذلك العملُ والدارُ الآخرةُ، فهي دارُ اللهِ الكاملةُ.

قال أنسٌ: ما نَفَضْنا أيدِيَنا مِنْ تُرابِ قَبْرِ رسولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عليهِ وَسَلَّمَ حتى أَنْكَرْنا قلوبَنا[١].

واضْطَرَبَتِ الحالُ، ثم تداركَ اللهُ الإسلامَ ببيْعةِ أبي بكرٍ، فكان موتُ النبيِّ صَلَّى اللهُ عليهِ وَسَلَّمَ قاصِمةَ الظَّهْرِ ومُصِيبةَ العُمَر.

استخفاء عليٍّ وإهجار عُمَر

فأمَّا عليٌّ فاسْتَخْفى[٢] في بيتِه مع فاطمةَ[٣]، وأمَّا عُثمانُ فسَكَتَ. وأمَّا عُمَرُ فأَهْجَرَ[٤] وقالَ: «ما ماتَ رَسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عليهِ وَسَلَّمَ، وإنما واعَدَه اللهُ

---

١ – رواه أحمد والترمذي وابنُ ماجه. وقد كان الصَّحابةُ رَضِيَ اللهُ عَنهم يُحِبُّون رسولَ اللهِ ﷺ حبًّا جمًّا، وكان أشدَّ يومٍ عليهم يومَ موتِه وفِراقِه، وهذا حالُ أيِّ مُحِبٍّ مع محبوبِه، فقُربُه يَسُرُّه وبُعدُه يَسوءُه، وفي هذا الحديثِ يقولُ أنسُ بنُ مالكٍ رَضِيَ اللهُ عَنه: "لَمَّا كان اليومُ الَّذي دخَل فيه رسولُ اللهِ ﷺ المدينةَ"، أي: يومَ هِجْرتِه إليها، "أضاء منها كلُّ شيءٍ"، أي: أشرَقَت المدينةُ بالخيرِ والبركةِ، وهذا بيانٌ لسُرورِه وعِظَمِ فرَحِه بمَقْدَمِ رسولِ اللهِ ﷺ عليهم وبَقائِه فيهم، "فلمَّا كان اليومُ الَّذي مات فيه أظلَم مِنها كلُّ شيءٍ"، أي: طُمِس عنها نورُ النَّبيِّ ﷺ وهذا كنايةٌ عن عظيمِ حُزنِه وغمِّه بفقدِ رسولِ اللهِ ﷺ. قال أنسٌ: "حتَّى أنكَرْنا قُلوبَنا"، أي: تغيَّرَت عمَّا كانت عليه ورسولُ اللهِ ﷺ حيٌّ فيهم؛ لِمَا انقَطَع عليهم مِن الوحيِ.

٢ – ثم خرج وشهد الاجتماع في سقيفة بني ساعدة.

٣ – عاشت فاطمة بعد موت النبي ﷺ ستة أشهر معتزلة في بيتها ومعها عليّ فلما مرضت جاءها الصدِّيق فدخل عليها فجعل يترضّاها فرضيت.

٤ – أهجر في كلامه: تكلم بالهذَيان والقبيح وغيرِ المقبول.

كما واعَدَ موسى، ولَيَرْجِعَنَّ رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عليهِ وَسَلَّمَ فلَيَقْطَعَنَّ أيْدِيَ الناسِ وأَرْجُلَهم»[١].

وتَعلَّقَ بالُ العبَّاسِ وعليٍّ بأمرِ أنفُسِهما في مَرَضِ النبيِّ صَلَّى اللهُ عليهِ وَسَلَّمَ، فقالَ العبّاسُ لعليٍّ: «إني أَرَى الموتَ في وجوهِ بَنِي عبدِالمطَّلبِ، فتعالَ حتى نَسْألَ رسولَ الله صَلَّى اللهُ عليهِ وَسَلَّمَ، فإنْ كان هذا الأمرُ فينا عَلِمناه»[٢]. وتَعَلَّقَ بالُ العبّاسِ وعليٍّ بميراثِهما فيما تَرَكَهُ النبيُّ صَلَّى اللهُ عليهِ وَسَلَّمَ مِنْ فَدَكَ[٣] وبَني النَّضيرِ وخَيْبَرَ[٤].

واضْطَرَبَ أمرُ الأنْصارِ يَطْلُبون الأمرِ لأنفُسِهم، أو الشَّرِكَةَ فيه معَ المهاجِرين[٥]. وانْقَطَعَتْ قُلوبُ الجَيشِ الذي كان قدْ بَرَزَ معَ أسامةَ بنِ زيدٍ بالجُرُفِ[٦].

---

١ – صحيح البخاري – فضائل الصحابة.

٢ – فقال له عليّ: إنا والله لئن سألناها رسول الله فمنعناها لا يعطيناها الناس بعده، وإني والله لا أسألها رسول الله ﷺ رواه البخاري في كتاب المغازي من صحيحه.

٣ – فدك: منطقة زراعية جنوب المدينة غنمها الرسول ﷺ من اليهود في غزوة خيبر.

٤ – ثم رضوا حين ذكّروا بقول النبي ﷺ: لا نورث، ما تركناه صدقة.

٥ – حتى قالوا: منا أمير ومنكم أمير. وهم يرون أن الأمر لهم؛ لأن البلد بلدهم، وهم أنصار الله وكتيبة الإسلام، فلا ينبغي أن تختزل قريش الأمر من دونهم.

٦ – حزن الجيش حين جاءهم نبأ موت النبي ﷺ وكانوا خرجوا لقتال الروم بقيادة أسامة بن زيد بمنطقة الجرف.

عاصِمة (باستخلاف أبي بكر)

فتداركَ اللّهُ الإسلامَ والأَنامَ، وانجابَتِ الغُمَّةُ انجِيابَ الغَمامِ، ونَفَذَ وعْدُ اللّهِ باسْتِئثارِ[1] رسُولِ اللّهِ وإقامةِ دينِه على التَّمامِ بأَبي بكرٍ الصديقِ رَضِيَ اللّهُ عنه، وإنْ كان قدْ أصابَ ما أصابَ مِنَ الرَّزِيَّةِ الإسلامَ.

وكانَ (أبو بكرٍ) إذْ ماتَ النبيُّ صَلَّى اللّهُ عليهِ وَسَلَّمَ غائباً في مالِه بالسُّنْح[2]

فجاء إلى مَنزلِ ابْنتِه عائشةَ رَضِيَ اللّهُ عنها، وفيه ماتَ النبيُّ صَلَّى اللّهُ عليهِ وَسَلَّمَ فكَشَفَ عنْ وجْهِهِ، وأَكَبَّ عليه يُقَبّلُه وقالَ: بِأَبي أنتَ وأُمّي يا رسولَ اللّهِ، طِبْتَ حَيّاً ومَيّتاً، واللّهِ لا يَجْمَعُ اللّهُ عليكَ الْمَوْتَتينِ، أمّا الْمَوْتَةُ التي كَتَبَ اللّهُ عليكَ فقدْ مِتَّها.

---

١ – بموت، يقال استأثر اللهُ فلاناً، وبفلانٍ، إذا مات.

٢ – والسُّنْحُ منازل في عوالي المدينة، بينها وبين مسجد رسول الله ﷺ ميل واحد. وكان الصدّيق قد صلى بالمسلمين صلاة الصبح، وكان إذ ذاك قد أفاق رسول ﷺ إفاقة من غمرة ما كان فيه من الوجع، وكشف ستر الحجرة، ونظر إلى المسلمين وهم صفوف في الصلاة خلف أبي بكر، فأعجبه ذلك وتبسم ﷺ حتى همَّ المسلمون أن يتركوا ما هم فيه من الصلاة؛ لفرحهم به، وحتى أراد أبو بكر أن يتأخر ليصِلَ الصف، فأشار إليهم ﷺ أن يمكثوا كما هم، وأرخى الستارة، وكان آخر العهد به ﷺ فلما انصرف أبو بكر من الصلاة دخل عليه، وقال لعائشة: ما أرى رسول الله ﷺ إلا قد أقلع عنه الوجع، وهذا يوم بنت خارجة –يعني إحدى زوجتيه، وكانت ساكنة بالسنح شرقي المدينة– فركب على فرس وذهب إلى منزله، وتوفي ﷺ حين اشتد الضحى، فذهب سالم بن عبيد وراء الصديق فأعلمه بموت النبي ﷺ، فجاء الصديق حين بلغه الخبر. (ابن كثير – البداية والنهاية).

ثم خَرَجَ إلى المسجِدَ والناسُ فيه، وعُمَرُ يأتي بهَجْرٍ من القولِ كما قدَّمنا، فَرَقِيَ المنبرَ فحَمِدَ اللهَ وأَثْنَى عليه ثم قال: أمّا بَعْدُ أيُّها الناسُ، مَنْ كان يَعْبُدُ محمداً فإنَّ محمداً قدْ ماتَ ومَنْ كان يَعْبُدُ اللهَ فإنَّ اللهَ حَيٌّ لا يَموتُ. ثم قَرَأَ {وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ} فخَرَجَ الناسُ يَتْلُونَهَا في سِكَكِ المدينةِ كأنَّها لم تَنْزِلْ إلا ذلكَ اليومَ[١].

يوم السقيفة

واجْتَمَعَتِ الأنصارُ في سَقيفةِ بَني ساعِدَةَ[٢] يَتَشاورون ولا يَدْرونَ ما يَفْعلونَ، وبَلَغَ ذلكَ المهاجِرينَ فقالُوا: نُرْسِلُ إليهم يَأْتوننا، فقالَ أبو بكرٍ بل نَمْشي إليهم. فسارَ إليهم المهاجِرونَ، منهم أبوبكرٍ وعُمَرُ وأبوعبيدةَ، فتراجَعُوا الكلامَ[٣]، فقال بعضُ الأنصارِ: مِنّا أميرٌ ومنْكُم أمير. فقال أبو بكرٍ كلاماً كثيراً مُصِيباً، يُكْثِرُ ويُصيبُ، منه: نحنُ الأُمَراءُ وأنتمُ الوُزَراءُ، إنَّ رسولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عليهِ وَسَلَّمَ قال: الأئمةُ مِنْ قُرَيشٍ وقال: أوصِيكُم بالأنْصارِ خيراً: أنْ تَقْبلوا مِنْ مُحْسِنِهم، وتَتَجاوَزوا عنْ مُسيئِهم[٤].

---

١ – صحيح البخاري – فضائل الصحابة.

٢ – بنو ساعدة قبيلة من قبائل الخزرج الأنصاريين.

٣ – تبادلوه.

٤ – صحيح البخاري –كتاب مناقب الأنصار عن أنس بن مالك قال: "مر أبو بكر والعباس رضي الله عنهما بمجلس من مجالس الأنصار يبكون، "والظاهر أن ذلك كان في مرض النبي ﷺ الذي مات به" فقال: ما يبكيكم؟ قالوا: ذكرنا مجلس

انقياد الأنصار لأبي بكر

وقال أبو بكرٍ: إنَّ اللهَ سَمّانا الصادِقين وسمَّاكم المفْلِحين وقدْ أَمَرَكم أنْ تَكُونوا مَعَنا حيثُما كنّا فقال: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ} إلى غيرِ ذلكَ مِنَ الأقوالِ الْمُصيبةِ والأَدِلَّةِ القَويَّةِ، فتَذَكَّرَ الأنصارُ ذلكَ وانقادتْ إليه، وبايَعوا أبا بكرٍ الصِّدّيقَ رَضِيَ اللّهُ عنه[1].

وقال أبو بكرٍ لأُسامةَ[2]: انْفُذْ[3] لأمرِ رَسولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عليهِ وَسَلَّمَ، فقالَ عُمَرُ: كيف تُرْسِلُ هذا الجيشَ والعَرَبُ قدِ اضْطَرَبتْ[4] عليكَ؟ فقال: لو لَعِبَت

النبي ﷺ منا. فدخل على النبي ﷺ فأخبره بذلك، قال: فخرج النبي ﷺ، وقد عصب على رأسه حاشية برد، قال: فصعد المنبر – ولم يصعده بعد ذلك اليوم – فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: "أوصيكم بالأنصار فإنهم كرشي وعيبتي، وقد قضوا الذي عليهم وبقى الذي لهم، فاقبلوا من محسنهم وتجاوزوا عن مسيئهم".

١ – وقالوا: صدقت، نحن الوزراء وأنتم الأمراء. رواه أحمد.

٢ – أسامة بن زيد بن حارثة (٧ ق.هـ – ٥٤ هـ) حب رسول الله وابن حب رسول الله ﷺ أبوه زيد بن حارثة وأمه أم أيمن حاضنة النبيﷺ. ذهب أسامة إلى الرسولﷺ ليشفع لامرأة مخزومية سرقت فاحمرّ وجه رسول الله وقال له: "أتشفع في حد من حدود الله يا أسامة؟".

٣ – يعني اخرج بالجيش الذي أمر به الرسول ﷺ لقتال الروم. كان هذا الجيش سبعمائة، والأمير عليهم أسامة بن زيد، وكان قد ندبهم رسول الله ﷺ للمسير إلى تخوم البلقاء "شرق الأردن"، حيث قتل زيد بن حارثة وجعفر بن أبي طالب وابن رواحة، ولما انتقل ﷺ إلى الرفيق الأعلى أشار كثير من الصحابة –ومنهم عمر– ألا ينفذ الصدّيق هذا الجيش؛ لِمَا وقع من الاضطراب في الناس ولا سيما في القبائل، فعن عائشة قالت: "لما قبض رسول الله ﷺ ارتدت العرب قاطبة وأشربت النفاق، وصار أصحاب محمد ﷺ كأنهم معزى مطيرة. وكتب أسامة إلى أبي بكر (أنه قد حدث أعظم الحدث، وما أرى العرب إلا ستكفر ومعي وجوه أصحاب رسول الله ﷺ وحدهم فإن رأيت أن نقيم). فكتب إليه أبو بكر فقال: (ما كنت لأستفتح بشيء أول من رد أمر رسول الله ﷺ، ولأن تخطفني الطير أحب إلي من ذلك، ولكن إن رأيت أن تأذن لعمر فأذن له.ومضى أسامة لوجهه. (ابن خياط).

٤ – تحركوا وخرجوا عليك وارتدوا ومنعوا الزكاة.

الكِلابُ بخَلاخيلِ نساءِ المدينةِ ما رَدْدتُ جيشاً أَنْفَذَهُ رسولُ الله صَلَّى اللهُ عليهِ وَسَلَّمَ[١].

صلابة أبي بكر مع مانعي الزكاة

وقال له عُمَرُ وغيرُه: إذا مَنَعَكَ العربُ الزكاةَ فاصبِرْ عليهم. فقال: «واللهِ لو مَنَعوني عِقالاً[٢] كانوا يؤدّونَه إلى رسولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عليهِ وَسَلَّمَ لقاتَلْتُهم عليه. واللهِ لأقاتِلَنَّ مَنْ فرّق بينَ الزَّكاةِ والصَّلاةِ». قيلَ: ومَعَ مَنْ تُقاتِلُهم؟ قال: «وَحْدي، حتى تَنْفرِدَ سالفَتي[٣]».

---

١ – عن أبي هريرة قال: "والله الذي لا إله إلا هو لولا أبو بكر استُخْلِف ما عُبِدَ الله" فقيل له: مه يا أبا هريرة. فقال: إن رسول الله وجَّه إسامة بن زيد في سبعمائة إلى الشام، فلما نزل بذي خشب قُبِض رسول الله وارتدَّت العرب. فاجتمع إليه أصحاب رسول الله فقالوا: يا أبا بكر، رُدَّ هؤلاء، فقد ارتدت العرب حول المدينة، فقال: "والذي لا إله غيره لو جرت الكلاب بأرجل أزواج رسول الله ما رددت جيشاً وجهه رسول الله ولا حللت لواء عقده رسول الله". فوجه أسامةَ فجعل لا يمر بقبيل يريدون الارتداد إلا قالوا: لولا أن لهؤلاء قوة ما خرج مثل هؤلاء من عندهم ولكن ندعهم حتى يلقوا الروم، فلقوا الروم فهزموهم وقتلوهم ورجعوا سالمين فثبتوا على الإسلام.

٢ – الحَبْل.

٣ – السالفة: جانب العُنُق، وهما سالفتان من جانبيه، ولا تنفرد إحداهما عن الأخرى إلا بالموت. وقد روي أنه لَمّا مضى جيش أسامة في طريقه إلى شرق الأردن جعلت وفود القبائل تقدم المدينة، يقرون بالصلاة ويمتنعون عن أداء الزكاة، ومنهم من احتج بقوله تعالى: {خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ} قالوا: فلسنا ندفع زكاتنا إلا إلى من صلاته سكن لنا، وقد تكلم الصحابة مع الصديق في أن يتركهم وما هم عليه من منع الزكاة ويتألفهم حتى يتمكن الإيمان في قلوبهم ثم هم بعد ذلك يزكون، فامتنع الصديق من ذلك وأباه، وقد روي أن عمر بن الخطاب قال لأبي بكر: علام تقاتل الناس وقد قال رسول الله ﷺ: "أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا ألا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، فإذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها؟" فقال أبو بكر: والله لو منعوني عناقًا "وفي رواية: عقالًا" كانوا يؤدونه إلى رسول الله ﷺ لأقاتلنهم على منعها، إن

وقَدَّمَ الأمراءَ على الأجْنادِ والعمَّالِ في البلادِ مختاراً لهم، مُرتئياً[١] فيهم، فكان ذلكَ مِنْ أَسَدِّ عملِه، وأفضلِ ما قدَّمَه للإسلامِ[٢].

ميراث النبي

وقالَ لفاطِمةَ وعليٍّ والعباسِ[٣]: إنَّ رسولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عليهِ وَسَلَّمَ قال «لا نُوْرَثُ ما تَرَكناه صَدَقَةٌ»[٤]. فذَكَرَ الصحابةُ ذلك[٥]. وقال: سَمِعْتُه صَلَّى اللهُ

الزكاة حق المال، والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة" قال عمر: "فما هو إلا أن رأيت الله قد شرح صدر أبي بكر للقتال، فعرفت أنه الحق".

١ – معتقِداً صوابَ رأيه فيهم.

٢ – وفي مقدمة هؤلاء القادة: أبو عبيدة بن الجراح وعمرو بن العاص وخالد بن الوليد.

٣ – أرسلت فاطمة إلى أبي بكر تسأله ميراثها من النبي فيما أفاء الله على رسوله ، فقال أبو بكر إن رسول الله قال "لا نورث، ما تركنا فهو صدقة. إنما يأكل آل محمد من هذا المال – يعني مال الله – ليس لهم أن يزيدوا على المأكل" وإني والله لا أغيّر شيئاً من صدقات النبي التي كانت عليها في عهد النبي ولأعملن فيها بما عمل فيها رسول الله. فتشهد عليٌّ ثم قال: إنا عرفنا يا أبا بكر فضيلتك (وذكر قرابتهم من رسول الله وحقهم) فتكلم أبو بكر فقال: والذي نفسي بيده لَقَرابة رسول الله أحبُّ إليَّ أن أصل من قرابتي. رواه البخاري في فضائل الصحابة.

٤ – قال شيخ الإسلام ابن تيمية في منهاج السنة: قول النبي ﷺ: "لا نورث، ما تركنا صدقة"، رواه عنه أبو بكر، وعمر، وعثمان، وعلي، وطلحة، والزبير، وسعد، وعبد الرحمن بن عوف، والعباس بن عبد المطلب، وأزواج النبي ﷺ، وأبو هريرة. وقال ابن تيمية: إن الله تعالى صان الأنبياء أن يورثوا دنيا لئلا يكون ذلك شبهة لمن يقدح في نبوتهم بأنهم طلبوا الدنيا وورثوها لورثتهم، ثم إن من ورثة النبي ﷺ أزواجه ومنهم عائشة بنت أبي بكر، وقد حرمت نصيبها بهذا الحديث النبوي، ولو جرى أبو بكر مع ميله الفطري لأحب أن ترث ابنته.

٥ – وقد تولى عليٌّ الخلافة بعد ذلك، وصارت فَدَك وغيرُها تحت حُكمه، ولم يعط لأولاد فاطمة ولا زوجات النبي ﷺ ولا ولد العباس شيئًا من ميراثه.

عليهِ وَسَلَّمَ يقولُ: «لا يُدْفَنُ نَبيٌّ إلا حيثُ يموتُ»[١]، وهو في ذلك كلِّه رابِطُ الجأْشِ[٢] ثابتُ العِلْمِ والقَدَمِ في الدِّينِ. ثم اسْتَخلَفَ عُمَرَ[٣]، فظهرتْ بَرَكَةُ الإسلامِ، ونَفَذَ[٤] الوعدُ الصادقُ في الخَليفَتينِ[٥]. ثمَّ جَعَلَها عُمَرُ شُورَى[٦]،

---

١ – موطَّأ مالك – كتاب الجنائز. وفيه أن رسول الله ﷺ توفي يوم الاثنين، ودفن يوم الثلاثاء، وصلى الناس عليه أفذاذًا لا يؤمهم أحد، فقال ناس: يدفن عند المنبر، وقال آخرون، يدفن بالبقيع، فجاء أبو بكر الصديق فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: "ما دفن نبي قط إلا في مكانه الذي توفي فيه".

٢ – يعني ثابت مطمئن. قالت عائشة: توفي رسول الله ﷺ فلو نزل بالجبال الراسيات ما نزل بأبي لهاضها، اشرأب النفاق بالمدينة وارتدت العرب، فوالله ما اختلفوا في نقطة إلا طار أبي إلى أعظمها في الاسلام.

٣ – أوصى أبو بكر بأن يكون عمر الخليفة من بعده.

٤ – تحقق.

٥ – وعد الله في سورة النور: وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا. قال المرحوم محب الدين الخطيب: ولقد كان المجتمع الإسلامي –بتوجيه هذين الخليفتين– أسعد مجتمع إنساني عرفه التاريخ؛ لأن الناس – من ولاة ورعية– كانوا يتعاملون بالإيثار، وكان الواحد منهم يكتفي بما يفي بحاجته، ويبذل من ذات نفسه أقصى ما يستطيع أن يستخرج منها من جهد لإقامة الحق في الأرض وتعميم الخير بين الناس، ويلقى الرجل الخير منهم رجلًا لا تزال تنزع به نزعات الشر، فلا يزال به حتى يخدر عناصر الشر المتوثبة في نفسه، ويوقظ ما كمن فيها من عناصر الخير إلى أن يكون من أهل الخير، وفي المنتسبين إلى الإسلام حتى يومنا هذا طوائف امتلأت قلوبهم بالضغن حتى على أبي بكر وعمر، فضلًا عمن استعان بهم أبو بكر وعمر من أهل الفضل والإحسان، فصنعوا لهم من الأخبار الكاذبة شخصيات لأخرى غير شخصياتهم التي كانوا عليها في نفس الأمر؛ ليقنعوا أنفسهم بأنهم أبغضوا أناسًا يستحقون منهم هذه البغضاء؛ ولهذا امتلأ التاريخ الإسلامي بالأكاذيب، ولن تتجدد للمسلمين نهضة إلا إذا عرفوا سلفهم على حقيقته واتخذوا منه قدوة لهم، ولن يعرفوا سلفهم على حقيقته إلا بتطهير التاريخ الإسلامي مما ألصق به.

٦ – في ستة أشخاص، وتمّ تعيينهم من قِبَل عمر بن الخطاب حين كان على فراش الموت سنة (٢٣ هـ) ليختاروا من بينهم من يكون خليفة من بعده، كما ألزم عمر القبول بما يتمخض من هذه الشورى وأمر بضرب عنق كل من خالف رأي الأكثرية. وقد أفضت هذه الشورى إلى اختيار عثمان بن عفان خليفة ثالثاً للمسلمين.

فأَخْرَجَ عبدُ الرحمنِ بنِ عوفٍ[١] نفسَه من الأمرِ حتى يُنْظَرَ ويُتَحَرَّى فيمن يُقَدَّمُ، فقُدِّمَ عُثْمانُ، فكان عندَ الظنِّ به[٢]: ما خالَفَ عهداً، ولا نَكَثَ عَقْداً، ولا اقْتَحَمَ مَكْروهاً ولا خْالَفَ سُنَّةً.

فضائل عثمان

وقدْ كان النبيُّ صَلَّى اللهُ عليهِ وَسَلَّمَ أَخْبَرَ بأنَّ عُمَرَ شَهيدٌ، وبأنَّ عُثمانَ شَهيدٌ، وبأنَّ له الجَنَّةَ على بَلْوَى تُصيبُهُ[٣]. وهو وزوجُه رُقَيَّةُ ابنةُ رسولِ اللهِ

---

١ – عبد الرّحمن بن عوف القرشيّ الزهريّ (٤٣ ق.هـ – ٣٢ هـ)، هو أحد الصحابة العشرة المبشرين بالجنة، ومن السابقين الأولين إلى الإسلام، وأحد الثمانية الذين سبقوا بالإسلام، وأحد الستة أصحاب الشورى الذين اختارهم عمر بن الخطاب ليختاروا الخليفة من بعده.

٢ – المقصود عثمان.

٣ – قال أبوموسى الأشعري: إن النبي دخل حائطاً (أي بستاناً) وأمرني بحفظ باب الحائط، فجاء رجل يستأذن، فقال "ائذن له وبشره بالجنة" فإذا أبو بكر. ثم جاء آخر يستأذن، فقال: "ائذن له وبشره بالجنة" فإذا عمر، ثم جاء آخر يستأذن، فسكت هنيهة ثم قال: "ائذن له وبشره بالجنة على بلوى ستصيبه" فإذا عثمان بن عفان. صحيح البخاري – كتاب فضائل الصحابة.

صَلَّى اللهُ عليهِ وَسَلَّمَ أَوَّلُ مُهاجِرٍ[١] بعد إبراهيمَ الخليلِ صَلَّى اللهُ عليهِ وَسَلَّمَ، دَخَلَ به في بابِ (أَوَّلُ مَنْ ...) وهو عِلْمٌ كبيرٌ جَمَعَهُ الناسُ[٢].

ولما صَحَّتْ إمامَتُه قُتِلَ مَظْلوماً، ولِيَقْضِيَ اللهُ أمْراً كان مَفْعولاً. ما نَصَبَ حَرْباً ولا جَيَّشَ عَسْكراً ولا سَعَى إلى فِتْنَةٍ[٣]، ولا دَعا إلى بَيْعَةٍ[٤]، ولا حارَبَه ولا نازَعَه مَنْ هو من أَضْرابِه ولا أَشْكالِه[٥]، ولا كان يَرْجوها لنفسه[٦]، ولا خِلافَ أنه ليس لأَحَدٍ[٧] مِنَ المسْلمينَ أنْ يُفعَلَ فيه ذلكَ، فكيف بعثمانَ رَضِيَ الله عنه![٨]

---

١ – لما خرج عثمان بن عفان ومعه امرأته رقية بنت رسول الله ﷺ إلى أرض الحبشة، فأبطأ على رسول الله ﷺ خبرهما، فقدمت امرأة من قريش فقالت: يا محمد، قد رأيت ختنك (صهرك) ومعه امرأته. قال: "على أي حال رأيتهما؟". قالت: رأيته قد حمل امرأته على حمار، وهو يسوقها. فقال رسول الله ﷺ "صحبهما الله، إن عثمان أول من هاجر بأهله بعد لوط عليه السلام". ابن كثير – البداية والنهاية – باب من هاجر إلى الحبشة.

٢ – للجلال السيوطي وغيره من العلماء قبله وبعده كتب ألفوها في تسمية الأشخاص الذين سبقوا غيرهم إلى شيء من الأعمال المحمودة وقيل عنهم: أول من ....

٣ – يعني بين المسلمين.

٤ – يعني لم يطلب ممن امتنع عن مبايعته أن يبايعه.

٥ – يعني الصحابة الذين هم في منزلته من العشرة المبشرين بالجنة أمثال طلحة والزبير.

٦ – لم تكن نفْس عثمان تتطلع إلى الخلافة.

٧ – عبارة الأصل مضطربة وقد غيَّرتُها على النحو المشاهَد.

٨ – وكيف لا يكون عثمان عند حسن الظن به وقد شهد له بطهارة السيرة وحسن الخاتمة رسول الله ﷺ الذي لا ينطق عن الهوى، إن هو إلا وحي يوحى، قال الحافظ ابن حجر في ترجمة عثمان من الإصابة: جاء من أوجه متواترة أن رسول الله ﷺ بشر عثمان بالجنة، وعدَّه من أهل الجنة، وشهد له بالشهادة. وروى الترمذي من طريق الحارث بن عبد الرحمن عن طلحة أحد العشرة المبشرين بالجنة أن رسول الله ﷺ قال: "لكل نبي رفيق، ورفيقي في

وقد سَمَّوا مَنْ قام عليه[١]، فوجدْناهم أهلَ أغراضِ سوءٍ[٢]، حِيلَ بينَهم وبينَها. فوُعِظوا وزُجِروا[٣]. وأقامُوا عندَ عبدِ الرحمنِ بنِ خالدِ بنِ الوليدِ[٤]، فتَوَعَّدَهم

الجنة عثمان". وقال الحافظ بن عبد البر في ترجمة عثمان من كتاب الاستيعاب: ثبت عن النبي ﷺ أنه قال: "سألت ربي عز وجل ألا يدخل النار أحدًا صاهر إليَّ أو صاهرت إليه". وشهادة أخرى من رسول ﷺ لهذا الإنسان الأفضل يتمنى مثلها أبو بكر وعمر، فقد روى الإمام مسلم في كتاب فضائل الصحابة من صحيحه عن عائشة أن رسول الله ﷺ قال في عثمان: "ألا أستحي من رجل تستحي منه الملائكة؟". وفي صحيح البخاري عن عبد الله بن عمر بن الخطاب قال: "كنا في زمن النبي ﷺ لا نعدل بأبي بكر أحدًا، ثم عمر، ثم عثمان، ثم نترك أصحاب النبي ﷺ لا نفاضل بينهم". وقيل للمهلب بن أبي صفرة: لِمَ قيل لعثمان ذو النورين؟ قال: لأنه لم يُعلم أن أحدًا أرسل سترًا على ابنتيْ نبيٍّ غيره.

١ - نازعوه وخرجوا عليه.

٢ - قال الأستاذ محب الدين الخطيب في تحقيقه المفيد لكتاب العواصم من القواصم تبياناً لأغراض هؤلاء:
الذين شاركوا في الجناية على الإسلام يوم الدار طوائف على مراتب: فيهم الذين غلب عليهم الغلو في الدين فأكبروا الهنات (بالغوا في تكبير الهفوات) وارتكبوا في إنكارها الموبقات. وفيهم الذين ينزعون إلى عصبية يَمَنية على شيوخ الصحابة من قريش، ولم تكن لهم في الإسلام سابقة فحسدوا أهل السابقة من قريش على ما أصابوا من مغانم شرعية جزاء جهادهم وفتوحهم، فأرادوا أن يكون لهم مثلها بلا سابقة ولا جهاد. وفيهم الموتورون من حدود شرعية أقيمت على بعض ذويهم فاضطغنوا في قلوبهم الإحنة والغل لأجلها. وفيهم الحمقى الذين استغل السبئيون ضعف قلوبهم فدفعوهم إلى الفتنة والفساد والعقائد الضالة. وفيهم من أثقل كاهله خير عثمان ومعروفه نحوه فكفر معروف عثمان عندما طمع منه بما لا يستحقه من الرئاسة والتقدم بسبب نشأته في أحضانه. وفيهم من أصابهم من عثمان شيء من التعزير لبوادر بدرت منهم تخالف أدب الإسلام فأغضبهم التعزير الشرعي من عثمان. وفيهم المتعجلون بالرياسة قبل أن يتأهلوا لها اغتراراً بما لهم من ذكاء خلاب أو فصاحة لا تغذيها الحكمة، فثاروا متعجلين بالأمر قبل أوانه. وبالإجمال فإن الرحمة التي جبل عليها عثمان وامتلأ بها قلبه أطمعت الكثير فيه، وأرادوا أن يتخذوا من رحمته مطية لأهوائهم.

٣ - وعظهم وزجرهم أهلُ العافية والحكمة والرضا من أعيان أمصارهم وعلمائها في الكوفة والبصرة ومصر، ثم وعظهم وزجرهم معاوية في مجالس له معهم عندما سيَّرهم عثمان إلى الشام.

٤ - وكان عبد الرحمن بن خالد بن الوليد والياً لمعاوية على حِمْص وما يليها من شمال الشام.

حتّى تابُوا، وأَرْسَلَ بهم إلى عُثمانَ فتابُوا[1] وخَيرَّهم فاختاروا التَّفَرُّق في البلادِ، فأَرْسَلَهم، فلمّا سارَ كلٌّ إلى ما اختارَ أَنْشَأُوا الفِتْنةَ، وألَّبُوا الجَماعةَ، وجاءوا إليه بجُمْلتِهم، فاطَّلَعَ عليهم مِنْ حائطِ دارِه وذكَّرَهم، وورَّعَهم عنْ دَمِه.

وخَرَجَ طَلْحةُ[2] يَبْكي ويُوَرِّعُ الناسَ، وأَرْسَلَ عليٌّ ولَدَيه[3]، وقال الناسُ[4] لهم: إنكم أَرْسَلْتم إلينا: أَقْبِلوا إلى مَنْ غَيَّرَ سُنَّةَ اللهِ[5]، فلمّا جِئنا قَعَدَ هذا في بيتِه (يَعْنون عَلِيّاً) وخَرَجْتَ أنتَ[6] تَفيضُ عيناك[7]، واللهِ لا بَرِحْنا حتى نُريقَ دمَه. وهذا قَهْرٌ عظيمٌ وافتئاتٌ[8] على الصَّحابةِ وكَذِبٌ في وجوهِهم وبَهْتٌ لهم[9]،

---

١ – تظاهروا بالتوبة.

٢ – طلحة بن عبيد الله أحد العشرة المبشرين بالجنة، ومن السابقين الأولين إلى الإسلام، وأحد الستة أصحاب الشورى الذين اختارهم عمر بن الخطاب ليختاروا الخليفة من بعده. قال عنه النبي ﷺ إنه شهيد يمشي على الأرض، استشهد في حرب الجمل.

٣ – الحسن والحسين ليكونا في حراسة الخليفة عثمان.

٤ – المقصود بالناس: البُغاة الذين جاءوا لقتل عثمان.

٥ – زعموا أنهم تلقوا من عليٍّ كتاباً يدعوهم للثورة على عثمان، وكذبوا.

٦ – الخطاب لطلحة بن عبيد الله.

٧ – في الأصل: عينيك.

٨ – افتراء وكذب.

٩ – وهذا باب في التاريخ الإسلامي يسمى "الفتنة الكبرى" التي ظهرت بظهور عبد الله بن سبأ في اليمن ، وكان يهوديًا، واليمن قبل الإسلام مقاطعة فارسية، فتعلّم ابن سبأ الكثير عن المجوسية، وأراد أن يطعن في الإسلام، وبدأ بالتفكير في عمل هذه الفتنة، فدخل في الإسلام ظاهرًا في عهد عثمان ، وبدأ يتنقل في البلاد حتى ينشر بعض الأفكار السامّة، والطاعنة في الإسلام، فذهب إلى الحجاز، ولما لم يجد صدى كافيًا انطلق إلى العراق، فذهب إلى البصرة، وكانت موطنًا للفتن، وبدأ ابن سبأ يلقي في روعه بعض الأفكار الجديدة على الإسلام، والمقتبسة من اليهودية، والمجوسية.

ولو أراد عثمانُ لكانَ مُسْتَنصِراً بالصَّحابةِ، ولَنَصَرُوه في لحظةٍ[١]، وإنَّما جاء القَوْمُ مُسْتجِيرينَ مُتَظَلِّمين[٢]، فوَعَظُوهم فاسْتَشاطُوا[٣]، فأرادَ الصَّحابةُ أَلَّهُم[٤]، فأَوْعَزَ إليهم عثمانُ ألّا يُقاتَلَ أحدٌ بسببِه أبداً، فاستَسْلمَ وأَسْلمُوه برضاهُ.

وهي مَسألةٌ مِنَ الفِقْهِ كبيرةٌ: هل يجوزُ للرجلِ أنْ يَسْتسلِمَ، أمْ يَجِبُ عليه أنْ يُدافِعَ عن نفْسِه؟ وإذا اسْتسلمَ وحَرَّمَ على أحدٍ أنْ يُدافعَ عنه بالقتلِ، هلْ يجوزُ لغيرِه أنْ يُدافعَ عنه ولا يَلْتفتَ إلى رِضاه؟ اخْتَلَفَ العُلماءُ فيها. فلمْ يأتِ عثمانُ مُنْكَراً لا في أَوّلِ الأمْرِ ولا في آخِرِه، ولا جاء الصَّحابةُ بمنْكرٍ، وكلُّ ما سمعْتَ مِنْ خَبَرٍ باطلٍ إيّاكَ أنْ تَلتَفتَ إليه.

قاصِمة (الافتراء على عثمان وقتله)

قالوا مُتَعدِّين[٥]، مُتَعَلِّقينَ بِروايةِ كذّابِينَ: جاء عثمانُ في وِلايَتِه بمَظالمَ ومَناكيرَ، منها:

١- ضَرْبُه لعَمّارٍ حتى فَتَقَ أمعاءَه.

٢- ولابنِ مسعودٍ حتى كَسَرَ أضلاعَه ومَنَعَه عطاءَه.

---

١ - عرض عليه معاوية أن ينقل دار الخلافة إلى الشام أو يمده بجند من الشام أشداء فرفض عثمان.

٢ - يتظاهرون بأنهم متظلِّمون ولديهم شكوى.

٣ - اشتد غضبُهم.

٤ - طعنَهم بالألَّة، وهي الحَرْبة العريضة النَّصل.

٥ - يعني الذين خرجوا على عثمان وحاصروه ثم قتلوه بعد ذلك.

٣- وابتَدَعَ في جَمْعِ القرآنِ وتأليفِه، وفي حَرْقِ المصاحفِ.

٤- وحَمَى الحِمَى.

٥- وأجْلَى أبا ذَرٍّ إلى الرَّبَذَةِ.

٦- وأَخْرَجَ مِنَ الشامِ أبا الدَّرْداءِ.

٧- وردَّ الحَكَمَ بعدَ أنْ نَفاه رسولُ الله صَلَّى اللهُ عليهِ وَسَلَّمَ.

٨- وأبْطَلَ سُنَّةَ القَصْرِ في الصَّلَواتِ في السَّفِرِ.

٩- ووَلَّى مُعاوِيَةَ، وعبدَاللهِ بنِ عامرِ بنِ كُرَيْزٍ ومَرْوانَ، ووَلَّى الوليدَ بنَ عقبةَ وهو فاسقٌ ليس مِنْ أهلِ الوِلايةِ.

١٠- وأَعْطى مَرْوانَ خُمْسَ أفريقيةَ.

١١- وكان عُمَرُ يَضْرِبُ بالدِّرَّةِ[1] وضَرَبَ هو بالعَصا.

١٢- وعَلا على دَرَجةِ رسولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عليهِ وَسَلَّمَ وقدِ انْحَطَّ عنها أبو بكرٍ وعُمَرُ.

١٣- ولم يَحْضُرْ بَدْراً، وانْهَزَمَ يومَ أُحُدٍ، وغاب عنْ بَيْعةِ الرَّضوانِ.

١٤- ولم يَقْتلْ عُبَيْدَ اللهِ بنَ عُمَرَ بالهُرْمُزانِ (الذي أَعْطى السِّكِّينَ إلى أبي لُؤلُؤةٍ، وحَرَّضَه على عُمَرَ حتى قَتَلَه).

١٥- وكَتَبَ مع عبْدِه على جَمَلِهِ كتاباً إلى ابنِ أبي سَرْحٍ في قَتْلِ مَنْ ذَكَرَ فيه.

---

١ - الدِّرة: عصاً صغيرة يحملها السلطان يزع بها.

عاصمة (ببيان حقيقة ما نُسب إلى عثمان)

هذا كلُّه باطلٌ سَنَداً ومَتْناً: أمّا قولُهم (جاءَ عُثمانُ بمظالمَ ومَناكيرَ) فباطلٌ[١].

وأمّا ضَرْبُه لابنِ مَسْعودٍ ومَنْعُه عَطاءَه فزُورٌ[٢]، وضَرْبُه لعَمَّارٍ إفْكٌ مثلُه[٣]، ولو فَتَقَ أمعاءَه ما عاشَ أبداً. وقدِ اعْتَذَرَ عنْ ذلكَ العلماءُ بِوُجُوهٍ لا يَنْبغي أنْ يُشْتَغَلَ بها لأنَّها مَبْنيَّةٌ على باطلٍ، ولا يُبْنى حَقٌّ على باطلٍ، ولا نُذْهِبُ الزمانَ في مُماشاةِ الجُهّالِ، فإنَّ ذلكَ لا آخِرَ له.

جَمْع القرآن

وأمَّا جمعُ القرآنِ، فتلك حَسَنَتُه العُظْمى وخَصْلَتُه الكُبرى، وإنْ كان وجدَها كامِلةً[٤]، لكنَّه أظْهَرها وردَّ الناسَ إليها وحَسَمَ مادَّةَ الخِلافِ فيها. وكان نُفُوذُ وَعْدِ اللهِ بحفْظِ القُرآنِ على يَديْهِ حَسْبما بيَّناه في كُتُبِ القرآنِ وغيرِها[٥].

---

١ – أبطل ابن العربي هذه المناكير ورد عليها فيما يأتي واحدة واحدة حتى أتى عليها كلها.

٢ - لم يضرب عثمان ابن مسعود ولم يمنعه عطاءه، وبقي يعرف له قدره كما بقي ابن مسعود على طاعته لإمامه الذي بايع له وهو يعتقد أنه خير المسلمين وقت البيعة حين قال: بايعنا خيرنا ولم نأل. وحتى بعدما غسل عثمان مصحف ابن مسعود بعد توحيد المصاحف بقي ابن مسعود على السمع والطاعة لولي الأمر.

٣ – روى الطبري (٥: ٩٩) عن سعيد بن المسيب أنه كان بين عمار وعباس بن عتبة بن أبي لهب خلاف حمل عثمان على أن يؤدبهما عليه بالضرب. وهذا مما يفعله ولي الأمر في مثل هذه الأحوال قبل عثمان وبعده.

٤ – لأن أبا بكر وعمر سبقاه في مسألة جمع القرآن كما سيأتي ذكره.

٥ – مؤلفات ابن العربي المتعلقة بعلوم القرآن كثيرة، منها: (أنوار الفجر) و(قانون التأويل) و(أحكام القرآن) و(كتاب المشكلين) و(الناسخ والمنسوخ).

رَوَى الأئمَّةُ بأجْمَعِهم[١] أنَّ زيدَ بنَ ثابتٍ[٢] قال: أَرْسلَ إليَّ أبو بكرٍ مقتلَ[٣] أهلِ اليَمامَةِ فإذا عُمَرُ بنُ الخطّابِ عِندَه، فقالَ أبو بكرٍ: إنَّ عُمَرَ أتانا فقالَ: إنَّ القتلَ قدِ اسْتَحَرَّ[٤] يومَ اليَمامةِ بقُرّاءِ القُرآنِ، وإنّي أخْشى أنْ يَسْتَحِرَّ القتلُ بالقُرَّاءِ بالْمَواطِنِ فيذْهَبَ كثيرٌ مِنَ القُرآنِ، وإني أَرى أنْ تَجْمَعَ القرآنَ. قلْتُ لعُمَرَ: كيف نَفْعَلُ شَيئاً لم يَفْعَلْه رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عليهِ وَسَلَّمَ؟ قال عُمَرُ: هذا واللهِ خيرٌ. فلم يَزَلْ يُراجِعُني حتّى شَرَحَ اللهُ صَدْري لذلكَ، ورَأَيتُ في ذلكَ الذي رَأَى عُمَرُ.

قالَ زيدٌ: قالَ أبو بكرٍ: إنَّكَ رَجُلٌ شابٌّ عاقلٌ لا نَتَّهِمُكَ، وقد كنتَ تَكْتبُ الوحْيَ لرسولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عليهِ وَسَلَّمَ؛ فتَتَبَّعِ القرآنَ فاجْمَعْه. فواللهِ لو كَلَّفوني[٥] نَقْلَ جَبَلٍ مِنَ الجِبالِ ما كان أَثْقَلَ عليَّ مما أَمَروني به مِنْ جَمْعِ القرآنِ. قلتُ: كيف تَفْعلونَ شيئاً لم يَفْعلْه رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عليهِ وَسَلَّمَ؟ قال عُمَرُ: هذا واللهِ خَيرٌ. فلم يَزَلْ يُراجِعُني حتّى شَرَحَ اللهُ صَدْري للذي شَرَحَ

---

١ – وفي مقدمتهم الإمام أحمد في مسنده والإمام البخاري في صحيحه.

٢ – زيد بن ثابت بن الضحّاك الأنصاري صحابي جليل وكاتب الوحي، شيخ المقرئين، مفتي المدينة، روى الحديث عن النبي، وقرأ عليه القرآن بعضه أو كله.

٣ – (مقتل) ظرف زمان، يعني أرسل في زمان مقتل أهل اليمامة لما ارتدت بنو حنيفة برئاسة مسيلمة الكذاب.

٤ – اشتد.

٥ – المتكلم زيد بن ثابت.

له صَدْرَ أبي بكرٍ وعُمَرَ، فتَتَبَّعْتُ القرآنَ أَجْمَعُه مِنَ العُسُبِ واللِّخافِ[١] وصُدورِ الرِّجالِ، حتى وجَدْتُ آخِرَ سُورةِ التَّوبَةِ مع خُزَيْمَةَ الأَنْصاريِّ لم أجدْها مع أحدٍ غيرِه {لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ} حتى خاتمةِ (بَراءةٌ).

فكانتِ الصُّحُفُ عندَ أبي بكرٍ حتى توفّاهُ اللهُ، ثمَّ عندَ عُمَرَ حياتَه، ثم عندَ حَفْصةَ بنتِ عُمَرَ، حتى قَدِمَ حُذَيْفةُ بنُ اليَمانِ[٢] على عثمانَ، وكان يُغازي أهلَ الشامِ في فتحِ أَرْمينيَّةَ مع أهلِ العِراقِ، فحَدَّثَه حُذَيفةُ عن اختلافِهم في القراءةِ، فقال حُذَيفةُ لعثمانَ: يا أميرَ المؤمنينَ، أدْرِكْ هذه الأُمَّةَ قبلَ أنْ يَخْتلِفوا في الكتابِ اختلافَ اليهودِ والنَّصارى. فأَرْسلَ عثمانُ إلى حَفْصةَ أنْ أرْسِلي إلينا بالصُّحِفِ نَنْسَخْها في المصاحِفِ ثم نَرُدُّها إليكِ، فأرسَلَتْ بها حَفْصةُ إلى عثمانَ، فأمَرَ زيدَ بنَ ثابتٍ وعبدَاللهِ بنَ الزُّبَيْرِ وسعيدَ بنَ العاصِ وعبدَالرحمنِ بنَ الحارثِ بنِ هشامٍ فنَسَخُوها في المصاحفِ.

وقالَ عُثمانُ للرَّهْطِ القُرَشِيّين الثلاثةِ: «إذا اخْتَلَفْتم أنتُم وزيدُ بنُ ثابتٍ في شيءٍ مِنَ القرآنِ فاكْتُبوه بلِسانِ قُريشٍ، فإنَّما نَزَلَ بلسانِهم» فَفَعَلُوا. حتّى إذا نَسَخُوا الصُّحُفَ في الْمَصاحفِ رَدَّ عثمانُ الصُّحفَ إلى حَفْصةَ، وأَرْسلَ إلى

١ - العُسُب (جمع عَسيب) أي جريدة النخل، وهي السعفة التي لا ينبت عليها الخوص. واللَّخاف (جمع لَخْفَة) وهي حجارة بِيضٌ رِقاقٌ كانوا يكتبون عليها إذا تعذَّر الوَرَق.

٢ - الصحابي الجليل، ولد في مكة وعاش في المدينة المنورة، وكان يسمى حافظ سر الرسول، حيث إن الرسول ﷺ كان قد أسر له بأسماء كافة المنافقين المحيطين بهم ولم يفش بهذا السر لأحد، وكان خليفة المسلمين عمر بن الخطاب عندما يريد أن يصلي على أحد أموات المسلمين هل حذيفة ضمن الحاضرين للصلاة.

كُلِّ أُفُقٍ بمصْحَفٍ مما نَسَخُوا، وأَمَرَ بما سِواهُ مِنَ القرآنِ في كُلِّ صَحيفةٍ ومُصْحفٍ أنْ يُحْرق.

قال ابنُ شِهابٍ: وأَخْبَرَني خارِجَةُ بنُ زَيدِ بنِ ثابتٍ أنه سَمِعَ زيدَ بنَ ثابتٍ قال: فَقَدْتُ آيةً مِنَ الأحْزابِ حينَ نَسَخْنا المصْحفَ قدْ كُنتُ أَسْمعُ رَسولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عليهِ وَسَلَّمَ يَقْرأُ بها، فالتَمَسْناها فوجَدْناها مع خُزَيمةَ الأنصاريِّ[1] {مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ} فأَلحقْناها في سُورتِها مِنَ المصْحفِ.

حرق المصاحف

وأمّا ما رُويَ أنَّه حَرَقَها أو خَرَقَها بالحاءِ الْمُهمَلةِ أو الخاءِ الْمُعجَمَةِ – وكلاهما جائزٌ – إذا كان في بَقائها فَسَادٌ، أو كان فيها ما ليس مِنَ القُرآنِ أو ما نُسِخَ منه أو على غَيرِ نَظْمِه، فقدْ سَلَّمَ في ذلك الصَّحابةُ كلُّهم. إلا أنه رُويَ عنِ ابنِ مَسْعودٍ أنه خَطَبَ بالكوفةِ فقال: أمّا بعدُ، فإنَّ اللهَ قالَ {وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ} وإني غالٌّ مُصْحَفي، فمنِ اسْتطاعَ منْكم أنْ يَغُلَّ مُصْحفَه فلْيَفعلْ. وأرادَ ابنُ مَسْعودٍ أنْ يُؤخَذَ بمُصْحَفِه، وأنْ يُثْبِتَ ما يَعْلمُ فيه، فلمّا

---

١ – خزيمة بن ثابت، الأنصاري الأوسي، الملقَّب بذي الشهادتين، هو أحد أصحاب الرسول ﷺ والإمام علي. يُكنَّى بأبي عمارة. جعل رسول الله شهادته بشهادة رجلين.

لم يَفْعَلْ ذلكَ قالَ له ما قالَ، فأَكْرَهَه عثمانُ على رَفْعِ مُصْحَفِه، ومحا رُسومَه لم تُثْبَتْ له قراءةٌ أَبَداً، ونَصَرَ اللهُ عُثمانَ والحقَّ بمَحْوِها مِنَ الأرضِ.

وأمّا الحِمَى[١]، فكان قديماً، فيقال إنَّ عثمانَ زاد فيه لما زادتِ الرَّعِيةُ، وإذا جاز أَصْلُه للحاجَةِ جازتِ الزِّيادَةُ لزيادَةِ الحاجَةِ.

حقيقة نفي أبي ذر

وأمّا نَفْيُه أبا ذَرٍّ إلى الرَّبَذَةِ فلم يَفْعَلْ[٢]، كان أبو ذَرٍّ زاهداً، وكان يُقَرِّعُ[٣] عُمّالَ عُثمانَ، ويَتْلو عليهم {وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ}، ويَراهُم يَتَّسِعُون في الْمَراكبِ والملابسِ حينَ وَجَدوا[٤] فيُنْكِرُ ذلكَ عليهم، ويُريدُ تَفْريقَ جميعَ ذلكَ مِنْ بينِ أَيْديهم، وهو غيرُ لازمٍ. قال ابنُ عُمَرَ وغيرُه مِنَ الصحابةِ: إنَّ ما أَدَّيتَ زكاتَه فليس بِكَنْزٍ، فوقَعَ بينَ أبي ذَرٍّ ومُعاوِيَةَ كلامٌ بالشّامِ، فخَرَجَ إلى المدينةَ، فاجْتمَعَ إليه الناسُ، فجَعَلَ يَسْلُكُ تلكَ الطرقَ[٥]، فقالَ له عُثمانُ: لو اعتزلْتَ. معناهُ أنَّكَ على

---

١ – كان الشريف في الجاهلية إذا نزل أرضاً في حَيِّه استعوى كلباً فحمى لخيله وإبله وسوائمه مدى عواء الكلب لا يشركه فيه غيره. فلما جاء الإسلام نهى النبي ﷺ عن ذلك، واختص الحمى بإبل الزكاة المرصدة للجهاد والمصالح العامة، فقال ﷺ: «لا حمى إلا لله ورسوله» رواه البخاري من حديث الصعب بن جثامة في كتاب المساقاة.

٢ – اختار أبو ذر أن يعتزل في الربذة بإرادته كما سيبينه المؤلف بعد قليل.

٣ – يعنفهم ويلومهم ويقلقهم.

٤ – يعني اغتنوا.

٥ – يعني يفعل مثلما كان يفعل في الشام من تقريع.

مَذْهبٍ لا يَصْلُحُ لمخالَطَةِ الناسِ، فإنَّ للخُلْطَةِ شُروطاً وللعُزلةِ مِثْلَها، ومَنْ كان على طَريقةِ أبي ذَرٍّ فحالُه تَقْتضي أنْ يَنْفرِدَ بنفْسِه، أو يُخالَطَ ويُسَلِّمَ لكلِّ أحدٍ حالَه ممّا ليس بحرامٍ في الشَّريعةِ، فخَرَجَ إلى الرَّبَذَةِ[١] زاهداً فاضلاً، وتَرَكَ جِلَّةَ فُضَلاءَ، وكلٌّ على خيرٍ وبركةٍ وفَضْلٍ، وحالُ أبي ذَرٍّ أَفْضلُ، ولا تُمكَنُ لجميعِ الخَلْقِ، فلو كانوا عليها لهَلَكُوا فسُبحانَ مُرَتِّبِ الْمَنازلِ.

ومِنَ العَجَبِ أنْ يؤخَذَ عليه في أَمْرٍ فَعَلَه عُمَر، فقدْ رُويَ أنَّ عُمَر بنَ الخطّابِ رَضِيَ اللهُ عنه سَجَنَ ابنَ مسعودٍ في نَفَرٍ من الصحابةِ بالمدينةِ حينَ استُشْهِدَ، فأَطْلَقَهم عثمانُ، وكان سَجَنَهم[٢] لأنَّ القومَ أَكْثَروا الحديثَ عنْ رسولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عليهِ وَسَلَّمَ.

ووقَعَ بينَ أبي ذَرٍّ ومُعاوِيَة كلامٌ بالشام[٣]، وكان أبو ذَرٍّ يُطْلِقُ مِنَ الكَلامِ ما لم يَكُنْ في زمانِ عُمَرَ، فأَعلَمَ مُعاوِيَةُ بذلكَ عُثمانَ، وخَشِيَ مِنَ العامَّةِ أنْ تَثورَ منهم فِتْنةٌ، فإنَّ أبا ذَرٍّ كان يَحْمِلُهم على التَّزَهُّدِ وأمورٍ لا يَحْتَمِلُها الناسُ كلُّهم، وإنَّما هي مَخْصوصةٌ ببعْضِهم، فكَتَبَ إليه عُثمانُ كما قدَّمنا أنْ يَقْدُمَ المدينةَ،

---

١ – مدينة تاريخية أثرية، تقع في شرق المدينة المنورة وكان أبو ذر أول من سكنها.

٢ – نبه ابن حزم على أن هذا الخبر مرسل ولا يجوز الاحتجاج به.

٣ – وكان ذلك بدسيسة من عبد الله بن سبأ فإنه لقي أبا ذر فقال: يا أبا ذر ألا تعجب إلى معاوية يقول: "المال مال الله، ألا إن كل شيء لله" كأنه يريد أن يحتجنه دون المسلمين ويمحو اسم المسلمين. فذهب أبو ذر إلى معاوية فقال: ما يدعوك إلى أن تسمي مال المسلمين "مال الله"؟ قال معاوية: يرحمك الله يا أبا ذر ألسنا عباد الله والمال ماله والخلق خلقه والأمر أمره؟ قال أبو ذر: فلا تقله. قال معاوية: سأقول "مال المسلمين". الطبري (٥: ٦٦)

فلما قَدِمَ اجتمَعَ إليه الناسُ، فقال لعُثمانَ: أريدُ الرَّبَذَةَ. فقال له: افعَلْ. فاعتزلَ[١]. ولم يكنْ يَصْلُحُ له إلا ذلكَ لطريقتِه.

حقيقة نفي أبي الدرداء

ووقَعَ بينَ أبي الدَّرْداءِ ومُعاوِيَةَ كلامٌ وكان أبو الدَّرداءَ زاهداً فاضِلاً قاضِياً لهم، فلمّا اشْتَدَّ في الحقِّ وأَخْرجَ طريقةَ عُمَرَ في قومٍ لم يَحْتَمِلوها عَزَلُوه، فخَرَجَ إلى المدينةِ. وهذه كلُّها مَصالحُ لا تَقْدَحُ في الدِّينِ، ولا تُؤَثِّرُ في مَنْزلةِ أَحَدٍ مِنَ المسلمينَ بحالٍ، وأبو الدَّرداءِ وأبو ذرٍّ بَريئانِ مِنْ عابٍ، وعُثمانُ بَريءٌ أَعْظَمَ بَراءةٍ وأَكْثرَ نَزاهةٍ، فمَنْ رَوَى أنه نُفِيَ ورَوَى سبباً فهو كلُّه باطلٌ.

حقيقة رد عثمان للحَكِم

وأمّا رَدُّ الحَكَمِ[٢] فلمْ يَصِحَّ[٣]. وقال علماؤنا في جَوابِه: قدْ كان أَذِنَ له رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عليهِ وَسَلَّمَ. وقال عثمانُ[٤] لأبي بكرٍ وعُمَر، فقالا له: إن كان

---

١ – استأذن أبو ذر عثمان في الخروج من المدينة وقال: "إن رسول الله أمرني أن أخرج منها إذا بلغ البناء سلعا" فأذن له، ونزل الربذة وبنى بها مسجداً، وأقطعه عثمان صرمة من الإبل، وأعطاه مملوكين، وأجرى عليه رزقاً. ابن حبان (١٥٤٩ موارد الظمآن) ابن خلدون (العبر ٢: ١٣٩).

٢ – الحَكَم بن أبي العاص، عم عثمان بن عفان، غادر المدينة، ومعه ابنه مروان، فلم يزل هو وابنه خارجها في زمن النبي ﷺ وأبي بكر وعمر، فلما ولي عثمان أعاده إلى المدينة.

٣ – يعني لم يصح أنه خالف في رده الشرعَ.

٤ – يعني طلب من كلٍّ منهما ردَّه.

معكَ شهيدٌ رَدَدْناه، فلما وَلِيَ قَضَى بعلْمِه في رَدِّه، وما كان عُثمانُ لِيَصَلَ مَهْجورَ رسولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عليهِ وَسَلَّمَ ولو كان أَباه، ولا لِيَنْقُضَ حُكْمَه.

حقيقة ترْك قصْر الصلاة

وأمّا تركُ القَصْرِ[١] فاجتهادٌ[٢]، إذْ سَمِعَ أنَّ الناسَ افتُتِنوا بالقَصْرِ، وفَعَلُوا ذلك في مَنازِلِهم، فرَأَى أنَّ السُّنَّةَ ربما أدَّتْ إلى إسقاطِ الفَريضةِ، فتَرَكَها خَوْفَ الذَّريعةِ[٣]، مَعَ أنَّ جَماعةً مِنَ العُلماءِ قالُوا إنَّ المسافِرَ مُخَيَّرٌ بينَ القَصْرِ والإِتْمامِ، واخْتَلَفَ في ذلك الصَّحابةُ[٤].

وأمّا مُعاوِيَةُ فعُمَرُ ولّاهُ وجَمَعَ له الشّامَاتِ كلَّها، وأَقَرَّه عُثمانُ. بلْ إنَّما ولَّاهُ أبو بكرٍ الصِّدِّيقُ رَضِيَ اللهُ عنه[٥]، لأنَّه ولَّى أخاه يَزيدَ، واستَخْلَفَه يَزيدُ[٦]، فأَقَرَّهُ

---

١ - قصر الصلاة الرباعية إلى ركعتين.

٢ - عاتب عبد الرحمن بن عوف عثمان في إتمامه الصلاة وهم في مِنى، فاعتذر له عثمان بأن بعض من حج من أهل اليمن وجفاة الناس قالوا في العام الماضي: إن الصلاة للمقيم ركعتان، وهذا إمامكم عثمان يصلي ركعتين. ثم قال عثمان لعبد الرحمن بن عوف: وقد اتخذت بمكة أهلا (أي أنه صار في حكم المقيم لا المسافر) فرأيت أن أصلي أربعا لخوف ما أخاف على الناس. (الطبري ٥: ٥٦ - ٥٧).

٣ - يعني سداً للذريعة ومنعاً من تحوّل المباح إلى مفسدة. ومعنى كلمة الذريعة: الوسيلة إلى الشيء.

٤ - روي عن جماعة من الصحابة أنهم كانوا يتمون الصلاة في السفر منهم عائشة وسلمان وغيرهما.

٥ - بل إن النبي ﷺ ولّى معاوية شيئًا من عمله قبل أن يوليه أبو بكر وعمر، وولى يزيد بن أبي سفيان أيضًا. وقد استعمل النبي ﷺ معاوية كاتباً له.

٦ - يزيد بن أبي سفيان بن حرب الأموي القرشي، أبو خالد، صحابي جليل من فضلاء الصحابة استعمله النبي ﷺ على صدقات بني فراس من قبيلة كنانة وكانوا أخواله، وهو أحد القادة الذين أرسلهم الخليفة أبو بكر الصديق لفتح بلاد الشام. وهو أخو معاوية وأكبر منه سناً.

عُمَرُ لتَعَلُّقِه بوِلايةِ أبي بكرٍ لأجْلِ اسْتِخلافِ والِيه له، فتعلَّقَ عثمانُ بعُمَرَ وأَقَرَّه. فانْظُروا إلى هذه السِلْسلَةِ ما أَوْثَقَ عُراها [وأَقْدَرَ سَرْدَها][1] ولنْ يَأتيَ أحدٌ مِثلَها أَبَداً بَعْدَها[2].

تولية ابن كُريز والوليد بن عقبة

وأمّا عبدُ اللهِ بنُ عامرِ بنِ كُرَيْزٍ[3] فولّاهُ كما قال لأنَّه كَريمُ العَمّاتِ والخالاتِ. وأمّا تَوْلِيةُ الوليدِ بنِ عُقْبَةَ[4] فإنَّ الناسَ على فسادِ النّياتِ أَسْرعُوا إلى السَّيئاتِ

---

١ – سقطت من طبعة الشيخ محب الدين الخطيب، ولكنها موجودة في المخطوطات.

٢ – قال المرحوم محب الدين الخطيب: بلغت دولة الإسلام في خلافة أبي بكر وعمر الذروة في العزة، وكانت مضرب الأمثال في الفلاح الإنساني وسعادة المجتمع؛ لأن أبا بكر وعمر كانا يكتشفان بنور الله عز وجل كوامن السجايا في أهلها وعناصر الرجولة في الرجال، فيوليانهم القيادة، ويبوّئانهم مقاعد السيادة، ويأتمنانهم على أمة محمد ﷺ، وهما يعلمان أنهما مسئولان عن ذلك بين يدي الله عز وجل.

٣ – عبد الله بن كريز القرشي صحابي جليل فتح جميع إقليم خراسان وكان والياً في عهد عثمان حتى عزله معاوية وهو شريفٌ في قومه بارٌ بهم جوادٌ كريمٌ من أجود رجال قريش والعرب. ولما وُلِدَ أتي به إلى النبي ﷺ فقال لبني عبد شمس: "هذا أشبه بنا منه بكم" ثم تفل في فيه فازدرده، فقال ﷺ: "أرجو أن يكون مُسقَيًّا" فكان لا يعالج أرضًا إلا ظهر منها الماء. ونشأ سخيًّا كريمًا شجاعًا ميمون النقيبة كثير المناقب، افتتح خراسان كلها، وأطراف فارس، وسجستان، وكرمان حتى بلغ أعمال غزنة، وقضى على يزدجرد بن شهريار آخر ملوك الفرس، ويعتقد الإيرانيون أن سلسلة ملوكهم بدأت بآدمهم الذي يسمونه "جيومرت" فلم يزل مُلك أولاده منتظمًا على سياق إلى أن كان القضاء الأخير عليه بسلطان الإسلام في خلافة أمير المؤمنين عثمان بجهاد هذا العبشمي الآباء الهاشمي الخؤولة عبدالله بن كريز. وهي حرقة في قلوب أهل النزعة المجوسية على الإسلام، وعلى عثمان وابن كريز، فهم يحقدون على هؤلاء ويحاربونهم إلى اليوم بسلاح الكذب، والبغض، والدسائس، وسيستمر ذلك إلى يوم القيامة (الخطيب).

٤ – هو أخوه لأمِّه أروى بنت كريز، وأمها البيضاء بنت عبد المطلب بن هاشم، كان شاباً ماضي العزيمة رضِيّ الخُلُق صادق الإيمان استعمله أبو بكر في الحروب تحت قيادة خالد بن الوليد. وإن دولة الإسلام الأولى من خلافة أبي بكر تلقفت هذا الشاب الماضي العزيمة، الرضي الخلق، الصادق الإيمان فاستعملت مواهبه في سبيل الله إلى أن

قبل الحَسَناتِ؛ فذَكَرَ الافتِرائيّون أنه إنَّما ولّاهُ للمَعْنى الذي تَكَلَّمَ به، قال عثمانُ: ما وَلَّيْتُ الوليدَ لأنَّه أَخي، وإنَّما وَلَّيْتُه لأنَّه ابنُ أمِّ حَكيمٍ البَيْضاءِ عمَّةِ رسولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عليهِ وَسَلَّمَ وتَوْأَمَةِ أَبيه. وسَيَأْتي بَيانُه إنْ شاءَ اللهُ.

والوِلايةُ اجْتِهادٌ وقدْ عَزَلَ عُمَرُ سَعْدَ بنَ أبي وقاصٍ وقدَّمَ أَقَلَّ منه دَرَجةً.

حقيقة ما قيل في مروان والوليد

وأمّا قَوْلُ القائلِينَ في مَرْوانَ[١] والوَليدِ فشَديدٌ عليهم، وحُكْمُهم عليهما بالفِسْقِ فِسْقٌ منهم.

مَرْوانُ رجلٌ عَدْلٌ مِنْ كبارِ الأُمَّةِ عندَ الصَّحابةِ والتابِعينَ وفُقهاءِ المسلمينَ. أمَّا الصَّحابةُ فإنَّ سَهْلَ بنَ سعدٍ الساعِديَّ رَوَى عنه. وأمَّا التابعونَ فأصْحابُه في السِّنِّ، وإنْ كان جازَهم باسْمِ الصُّحْبةِ في أَحَدِ القَولينِ. وأمَّا فقهاءُ الأمْصارِ فكُلُّهم على تَعْظيمِه واعْتبارِ خِلافتِه والتلَفُّتِ إلى فَتْواهُ والانْقيادِ إلى رِوايتِه، وأمَّا السُّفهاءُ مِنَ المؤرِّخينَ والأُدباءِ فيقولونَ على أَقْدارِهم.

توفي أبو بكر، وأول عمل له في خلافة أبي بكر أنه كان موضع السر في الرسائل الحربية التي دارت بين الخليفة وقائده خالد بن الوليد في وقعة المذار مع الفرس سنة ١٢ ثم وجهه مددًا إلى قائده عياض بن غنم الفهري.

١ – مروان بن الحكم بن أبي العاص الأموي القرشي رابع خلفاء الدولة الأموية كان كاتباً لعثمان بن عفان أثناء خلافته، وفي عهد معاوية بن أبي سفيان ولاه معاوية على المدينة.

وأمَّا الوليدُ فقدْ رَوَى بعضُ المفسّرين أنَّ اللهَ سمَّاه فاسِقاً في قولِه {إن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ} فإنّها في قولِهم نزلتْ فيه أَرْسلَه النبيُّ صَلَّى اللهُ عليهِ وَسَلَّمَ إلى بَني المصْطَلِقِ فأَخْبَرَ عنهم أنَّهمُ ارْتَدُّوا فأرسلَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عليهِ وَسَلَّمَ إليهم خالدَ بنَ الوليدِ فتَثَبَّتَ في أَمْرِهم فبيَّنَ بُطلانَ قولِه. وقدِ اختُلِفَ فيه فقيلَ نَزَلَتْ في ذلكَ وقيلَ في عليٍّ والوليدِ في قصَّةٍ أُخْرى. وقيلَ إنَّ الوليدَ سِيقَ يومَ الفتحِ في جُملةِ الصِّبيانِ إلى رسولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عليهِ وَسَلَّمَ فمَسَحَ رؤوسَهم وبَرَّكَ عليهم إلا هو، فقال إنه كان على رأْسِي خَلُوقٌ[1] فامْتَنعَ صَلَّى اللهُ عليهِ وَسَلَّمَ مِنْ مَسِّه، فمَنْ يكونُ في مثلِ هذه السنِّ يُرْسَلُ مُصدَّقاً؟ وبهذا الاختلافِ يُسْقِطُ العلماءُ الأحاديثَ القويَّةَ، وكيف يُفَسَّقُ رَجلٌ بمثلِ هذا الكلامِ؟ فكيف برَجُلٍ مِنْ أصْحابِ محمدٍ صَلَّى اللهُ عليهِ وَسَلَّمَ؟ وأمّا حدُّه في الخمْرِ، فقد حَدَّ عُمَرُ قُدامةَ بنَ مظعونٍ[2] على الخَمْرِ وهو أميرٌ وعَزَلَه. ثم قيل إنَّه صالحَه. وليستِ الذُّنوبُ مُسْقِطةً للعدالةِ إذا وقعتْ منها التوبةُ. وقدْ قيلَ لعثمانَ إنَّكَ ولَّيتَ الوليدَ لأنه أخوكَ لأمّكَ أَرْوى بنتِ كُرَيْزِ بنِ رَبيعةَ بنِ حبيبِ بنِ عبدِ شَمسٍ فقالَ بلْ لأنَّه ابنُ عمَّةِ رسولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عليهِ وَسَلَّمَ أمِّ حكيمٍ البَيْضاءِ جَدَّةِ عثمانَ وجَدَّةِ الوليدِ

---

١ – طِيب مركَّب من الزعفران ومواد أخرى، ويغلب عليه الحمرة والصفرة، وهو مستثنى من المنع على المحرِم في الحج، فيجوز للمُحرِمِ شمه بخلاف غيره من أنواع الطيب.

٢ – قدامة بن مظعون الجمحي أحد السابقين الأولين، هاجر الهجرتين وشهد بدراً، وكان صهر أمير المؤمنين عمر على أخته، وقيل بل هو خال أم المؤمنين حفصة بنت عمر وأخيها عبيد الله.

لأمّهما أَرْوى المذكورةِ أمّ حكيمٍ تَوْأَمَةِ عبدِ اللهِ أبي رسولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عليهِ وَسَلَّمَ. وأيُّ حَرَجٍ على المرءِ أنْ يُوَلِّيَ أَخاهُ أو قريبَه[١]؟

حقيقة خُمس أفريقية

وأمَّا إعطاؤهُ خُمْسَ أفريقيةَ لواحدٍ فلم يَصِحَّ[٢]، على أنَّه قدْ ذَهَبَ مالِكٌ[٣] وجماعةٌ إلى أنَّ الإمامَ يَرَى في الخُمْسِ وينفِّذُ فيه ما أدَّاه إليه اجْتهادُه وأنَّ إعطاءَه لواحِدٍ جائزٌ، وقد بيَّنا ذلكَ في مَواضِعِه. وأمَّا قولُهم إنه ضَرَبَ بالعَصا فما سَمِعتُه ممَّنْ أَطاعَ أو عَصَى وإنَّما هو باطِلٌ يُحكى وزُورٌ يُنْثى[٤] فيا لَلّهِ لِلنُّهى[٥].

حقيقة علوّه على المنبر

وأمَّا عُلُوُّه على دَرَجةِ رَسولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عليهِ وَسَلَّمَ[٦] فما سمعتُه ممَّن فيه تَقِيَّة[٧]. وإنَّما هي إشاعةُ مُنْكَرٍ، ليُروَى ويُذْكَرَ، فيَتَغَيَّرَ قَلْبُ مَنْ يَتَغَيَّرُ. قالَ عُلماؤنا: ولو صَحَّ ذلكَ فما في هذا ما يُحِلُّ دَمَه، ولا يَخْلو أنْ يكونَ ذلكَ

---

١ – أمير المؤمنين علي بن أبي طالب جعل الأمراء في خلافته على أكثر الأمصار من ذوي قرابته. ورسول الله ﷺ ولّى رجال بني أمية وشبابَهم. وكذلك فعل أبو بكر وعمر، فلم يفعل عثمان إلا الذي سبقه إليه النبي ﷺ وصاحباه.

٢ – والذي صح هو إعطاؤه خمس الخمس لعبد الله بن أبي سرح جزاء جهاده المشكور، ثم عاد فاسترده منه.

٣ – الإمام مالك بن أنس الفقيه والمحدّث، وثاني الأئمة الأربعة عند أهل السنة، وصاحب الموطأ.

٤ – نثا الخبرَ والحديثَ: أذاعَه وأظهرَه بين الناس.

٥ – أسلوب تعجب معناه أين أصحاب العقول؟

٦ – يعني درجات المنبر عند الخطبة.

٧ – التقية: التقوى والخَشية لله. والتقية في مذهب الشيعة: إِخْفاءُ مَذْهَبِهِم والتَّسَتُّرُ عَلَيْهِ خَوْفاً وَخَشْيَةً.

حَقّاً فلمْ تُنْكِرْه الصَّحابةُ عليه، إذْ رأتْ جَوازَه ابْتداءً أو لِسَببٍ اقْتَضى ذلكَ[١].
وإن كانَ لم يكنْ فقدِ انقطَعَ الكَلامُ.

حقيقة يوم حنين وأُحُد وبدر

وأمّا انهِزامُه يومَ حُنَينٍ وفِرارُه يومَ أُحُدٍ ومَغيبُه عنْ بدْرٍ وبَيْعةِ الرِّضْوانِ، فقدْ بيَّن عبدُ اللهِ بنُ عُمَرَ وجْهَ الحُكْمِ في شأنِ البَيْعةِ وبدْرٍ وأُحُدٍ. وأمّا يومَ حُنَيْن فلمْ يَبْقَ إلا نَفَرٌ يَسيرٌ معَ رَسولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عليهِ وَسَلَّمَ. ولكنْ لم يَجْرِ في الأمْرِ تَفْسيرُ مَنْ بَقِيَ معه إلا العباسُ وابناهُ عبدُ اللهِ وقَثَم، فناهيكَ بهذا الاخْتلافِ، وهو أمرٌ قدِ اشتَرَكَ فيه الصَّحابةُ، وقدْ عفا اللهُ ورَسولُه، فلا يَحِلُّ ذِكْرُ ما أَسْقَطَه اللهُ ورَسولُه والمؤمنونَ.

أخْرَجَ البُخاريُّ[٢]: جاء رجلٌ إلى ابنِ عُمَرَ فسَألَه عنْ عثمانَ، فذَكَرَ عنْ محاسنِ عَمَلِه وقالَ: لعلَّ ذلكَ يَسوؤكَ؟ قالَ: نعمْ. قالَ: فأَرْغَمَ اللهُ بأَنْفِك! ثمَّ سَأَلَه عنْ عَلِيٍّ، فذَكَرَ محاسِنَ عَمَلِه وقالَ: وهو ذاكَ بيتُه أوْسطُ بُيوتِ النبيِّ صَلَّى

١ – قيل إنه لما ازداد عدد المصلين بازدياد عدد سكان المدينة وقاصديها وسع أمير المؤمنين عثمان مسجد الرسول وجعل طوله ستين ومائة ذراع وعرضه خمسين ومائة ذراع وجدد بناءه. فاتساع المسجد وازدياد الناس وبُعد أمكنة بعضهم عن منبر الخطابة يجوز أن يكون من ضرورات ارتفاع الخطيب ليراهم ويروه ويسمعوه.

٢ – كتاب فضائل الصحابة.

اللهُ عليهِ وَسَلَّمَ. ثمَّ قالَ: لعلَّ ذلكَ يُسوؤك؟ قال: أجلْ. قال «بُنِيَ الإسلامُ على خَمْسٍ» زيادةٌ فيه للبخاريِّ في عليٍّ وعثمانَ[١].

وقدْ أَخْرَجَ البُخاريُّ أيضاً[٢] مِنْ حَديثِ عثمانَ بنَ عبدِاللهِ بنِ مَوْهَبٍ قال: جاءَ رجلٌ مِنْ أهْلِ مِصْرَ يُريدُ حَجَّ البيتِ، فرَأَى قَوْماً جُلوساً، فقالَ: مَنْ هؤلاءِ؟ قالوا: هؤلاءِ قُريشٌ. قال: فمَنِ الشيخُ فيهم؟ قالوا: عبدُ اللهِ بنُ عُمَرَ. قال: يابنَ عُمَرَ: إني سائلُكَ عنْ شيءٍ فحدِّثْني عنه، هل تَعْلمُ أنَّ عثمانَ فَرَّ يومَ أُحُدٍ؟ قالَ: نعمْ. فقالَ: تَعْلمُ أنَّه تَغَيَّبَ عنْ بَدْرٍ ولم يَشْهدْ؟ قالَ: نعمْ. قالَ: هلْ تَعْلمُ أنَّه تَّغَيَّبَ عنْ بَيْعةِ الرِّضْوانِ فلم يَشْهدْها؟ قالَ: نَعَمْ. قالَ: اللهُ أكبرُ! قال ابنُ عُمَر: تَعالَ أُبيِّنْ لَكَ: أمَّا فِرارُه يومَ أُحُدٍ فأَشْهدُ أنَّ اللهَ عفا عنه وغَفَرَ له، وأمّا تَغَيُّبُه عنْ بَدْرٍ فإنَّه كانَ تَحْتَه[٣] بنتُ رسولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عليهِ وَسَلَّمَ وكانتْ مَريضةً فقالَ له رَسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عليهِ وَسَلَّمَ إنَّ لكَ

---

١ – روى البخاري أنَّ رَجُلًا أتَى ابْنَ عُمَرَ فَقالَ: يا أبَا عبدِ الرَّحْمَنِ ما حَمَلَكَ علَى أنْ تَحُجَّ عَامًا، وتَعْتَمِرَ عَامًا وتَتْرُكَ الجِهَادَ في سَبيلِ اللَّهِ عزَّ وجلَّ، وقدْ عَلِمْتَ ما رَغَّبَ اللَّهُ فِيهِ، قَالَ: يا ابْنَ أخِي بُنِيَ الإسْلَامُ علَى خَمْسٍ، إيمَانٍ باللَّهِ ورَسولِهِ، والصَّلَاةِ الخَمْسِ، وصِيَامِ رَمَضَانَ، وأَدَاءِ الزَّكَاةِ، وحَجِّ البَيْتِ قَالَ يا أبَا عبدِ الرَّحْمَنِ: ألَا تَسْمَعُ ما ذَكَرَ اللَّهُ في كِتَابِهِ: {وَإنْ طَائِفَتَانِ مِنَ المُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فأصْلِحُوا بيْنَهُمَا، فإنْ بَغَتْ إحْدَاهُما علَى الأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتي تَبْغِي حتَّى تَفِيءَ إلى أمْرِ اللَّهِ} {وقَاتِلُوهُمْ حتَّى لا تَكُونَ فِتْنَةٌ} قَالَ: فَعَلْنَا علَى عَهْدِ رَسولِ اللَّهِ ﷺ وكانَ الإسْلَامُ قَلِيلًا، فَكانَ الرَّجُلُ يُفْتَنُ في دِينِهِ: إمَّا قَتَلُوهُ، وإمَّا يُعَذِّبُونَهُ، حتَّى كَثُرَ الإسْلَامُ فَلَمْ تَكُنْ فِتْنَةٌ. قَالَ: فَما قَوْلُكَ في عَلِيٍّ وعُثْمَانَ؟ قَالَ: أمَّا عُثْمَانُ فَكَأنَّ اللَّهَ عَفَا عنْه، وأَمَّا أنتُمْ فَكَرِهْتُمْ أنْ تَعْفُوا عنْه، وأَمَّا عَلِيٌّ فَابنُ عَمِّ رَسولِ اللَّهِ ﷺ وخَتَنُهُ وأَشَارَ بيَدِهِ، فَقالَ: هذا بَيْتُهُ حَيْثُ تَرَوْنَ.

٢ – المرجع السابق.

٣ – يعني متزوجاً بنت رسول الله السيدة رقية وكانت مريضة فأمره النبي بالبقاء لتمريضها فبقي معها حتى ماتت.

أَجْرَ رَجُلٍ مِمَّنْ شَهِدَ بَدْراً وسَهْمَه. وأمّا تَغَيُّبُه عنْ بيْعةِ الرِّضوانِ[١] فلو كان أحدٌ أَعَزَّ ببطْنِ مَكَّةَ مِنْ عثمانَ لبَعَثَه مَكانَه[٢]، فبَعَثَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عليهِ وَسَلَّمَ عثمانَ (وكانتْ بيعةُ الرِّضْوانِ بعدَما ذَهَبَ عثمانُ إلى مكةَ، فقال رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عليهِ وَسَلَّمَ بيدِه اليُمْنى: «هذه يدُ عثمانَ» فضَرَبَ بها على يدِه فقال: «هذه لعثمانَ». ثم قال له ابنُ عُمَر: اذْهَبْ بها الآنَ مَعَكَ[٣].

حقيقة امتناعه عن قتل عبيدالله

وأمّا امْتِناعُه عنْ قَتْلِ عبيدِ اللهِ بنِ عُمَرَ بنِ الخطابِ بالهُرْمُزانِ[٤] فإنَّ ذلكَ باطلٌ[٥]. فإنْ كان لم يَفْعَلْ فالصحابةُ مَتوافِرونَ والأمْرُ في أولِّه. وقدْ قِيلَ: إنَّ الهُرمُزانَ سَعَى في قتْلِ عُمَرَ، وحَمَلَ الخِنْجرَ وظَهَرَ تحتَ ثِيابِه، وكان قتْلُ عُبيدِاللهِ

---

١ – بيعة الرضوان أو بيعة الشجرة في شهر ذي القعدة من السنة السادسة للهجرة في منطقة الحديبية، حيث بايع فيها الصحابة النبي ﷺ على قتال قريش وألا يفروا حتى الموت، بسبب ما أشيع من أن عثمان بن عفان قتلته قريش حين أرسله النبي ﷺ إليهم للمفاوضة، لَمّا منعتهم قريش من دخول مكة وكانوا قد قدموا للعمرة لا للقتال. فلما بلغ المسلمين إشاعة مقتل عثمان قال لهم النبي ﷺ: «لا نبرح حتى نناجز القوم»، ودعا المسلمين للبيعة فبايعوا.

٢ – قبل أن يبعث النبيُّ عثمانَ دعا عمر ليبعثه إلى مكة، فيبلغ عنه أشراف قريش ما جاء له، فقال عمر: يا رسول الله إني أخاف قريشًا على نفسي، وليس في مكة من بني عدي أحد يمنعني، ولكني أدلك على رجل هو أعز مني فيها: عثمان بن عفان. فدعاه رسول الله ﷺ، فبعثه إلى أبي سفيان وأشراف قريش. (الخطيب).

٣ – اذهَبْ بها الآنَ معكَ، أي: حتَّى يَزولَ عنكَ ما كنتَ تعتقدُه مِن عيبِ عثمانَ رضِي اللهُ عنه.

٤ – لما قتل أبو لؤلؤة عمرَ بن الخطاب سارع بقتل نفسه، وقد رأى عبدالرحمن بن أبي بكر الهرمزان وجماعة فيهم أبو لؤلؤة يتشاورون ليلة مقتل عمر. فلما فوجئوا به اضطربوا وسقط منهم خنجر له نصلان وشهد عبد الرحمن بن أبي بكر أنه نفسُ الخنجر الذي طُعن به عمر. لذا سارع عبيد الله بن عمر إلى قتل الهرمزان انتقاماً لأبيه.

٥ – قيل إن عثمانَ دعا ابنَ الهرمزان ليقتل عبيدَ الله بأبيه فعفا عنه.

له وعثمانُ لم يَلِ بَعْدُ، ولعلَّ عثمانَ كان لا يَرَى على عُبيدِ اللهِ حقاً، لِمَا ثَبَتَ عندَه مِنْ حالِ الهُرْمزانِ وفِعْلِه، وأيضاً فإنَّ أَحَداً لم يَقُمْ بطَلَبِه. وكيف يَصِحُّ مع هذه الاحْتمالاتِ كلِّها أنْ يُنْظَرَ في أمرٍ لم يَصِحَّ؟

تزوير الكتاب على عثمان

وأما تعلُّقُهم بأنَّ الكتابَ وجِدَ مع راكبٍ، أو مع غلامِه – ولم يَقُلْ أحدٌ قَطُّ إنَّه كانَ غلامَه – إلى عبدِ اللهِ بنِ سعدِ بنِ أبي سَرْحٍ[1] يأمرُه بقتْلِ حامِلِيه[2]، فقدْ قالَ لهم عثمانُ: (إمّا أنْ تُقِيموا شاهِدَين على ذلكَ، أو يمِينٌ باللهِ أنّي ما كَتَبْتُ ولا أَمْلَلْتُ ولا عَلِمْتُ، وقدْ يُكتَبُ على لسانِ الرَّجلِ، ويُضْرَبُ على خَطِّه، ويُنْقَشُ على خاتَمِه)[3].

فقالوا لِتُسْلِمْ لنا مَروانَ[4]. فقال: لا أَفْعَلُ. ولو سَلَّمَه لكانَ ظالماً[5]، وإنَّما عليهم أنْ يَطْلُبوا حَقَّهم عندَه على مروانَ وسِواه، فما ثَبَتَ كانَ هو مُنْفِذَه وآخِذَه

١ – عبد الله بن سعد بن أبي السرح القرشي صحابي وقائد عسكري وهو أخو عثمان بن عفان من الرضاعة ووالي مصر في عهد خلافته وهو فاتح إفريقية وهزم الروم في معركة ذات الصواري. وأما قصة الكتاب المزور على عثمان فقيل إن فيه أمرا لابن أبي سرح بقتل بعض الثوار المصريين. وهو كتاب مصنوع لتجديد الفتنة ورد الثوار إلى المدينة. وهو ما نجح فيه من صنعوه، فقد تعللوا به في العودة إلى عثمان وحصاره الذي انتهى بقتله رضي الله عنه.

٢ – المقصود قتل من وردت أسماؤهم فيه.

٣ – في العبارة السابقة تصويبات من تاريخ ابن الخياط.

٤ – ربما لأن مروان كان كاتبا لعثمان بن عفان أثناء خلافته، فإن كان عثمان لم يكتب فقد كتب كاتبه.

٥ – قال شيخ الإسلام ابن تيمية في منهاج السنة (٣: ١٨٩): وأما الذين طلبوا قتل مروان فقوم خوارج مفسدون في الأرض ليس لهم قتل أحد ولا إقامة حد. وليس مروان أولى بالفتنة والشر من محمد بن أبي بكر، ولا هو (أي

والمَمَكِّنَ لمن يَأْخذُهُ بالحقِّ. ومع سابِقَتِه وفَضيلتِه ومكانتِه لم يَثْبُتْ عليه ما يوجِبُ خَلْعَه فضلاً عنْ قتلِه.

اجتماع ذوي الأحقاد

وأَمَثَلُ ما رُوِيَ في قِصَّتِه أنه – بالقَضاءِ السّابقِ – تألَّبَ عليه قومٌ لأحقادٍ اعتقَدُوها، ممَّن طَلَبَ أَمْراً فلمْ يَصِلْ إليه، وحَسَدِ حَسادَةٍ أظهرَ داءَها، وحَمَلَه على ذلك قِلَّةُ دِينٍ وضَعْفِ يَقينٍ، وإيثارِ العاجِلَةِ على الآجِلَةِ. وإذا نَظَرْتَ إليهم دَلَّكَ صَريحُ ذِكْرِهم على دَناءةِ قلوبِهم وبُطْلانِ أمرِهم[1].

رؤوس الفتنة

كان الغافِقيُّ الْمِصريُّ[2] أميرَ القَوْمِ، وكِنانَةُ بنُ بِشْرٍ التَّجيبيّ[3] وسُودانُ بنُ حمرانَ[4] وعبدُ اللهِ بنُ بُدَيْلِ بنِ وَرْقاءَ الخُزاعِي[5] وحَكيمُ بنُ جَبَلَةَ مِنْ أهلِ

ابن أبي بكر) أشهر بالعلم والدين منه (أي من مروان). بل أخرج أهل الصحاح عدة أحاديث عن مروان، وله قول مع أهل الفتيا، واختلف في صحبته. ومحمد بن أبي بكر ليس بهذه المنزلة عند الناس، ومروان من أقران ابن الزبير.

١ – أول من نظر إلى وجوههم بنور الله فتشاءم منهم الملهَم المحدَّث عمر بن الخطاب صاحب الفراسة التي لا تخطئ فإنه لما استعرض الجيوش للجهاد سنة ١٤ مرت أمامه قبائل السكون اليمنية فأعرض عنهم فقيل له ما لك ولهؤلاء؟ فقال ما مر بي قوم أكره إليّ منهم . فكان منهم سودان بن حمران وخالد بن ملجم من البغاة على عثمان.

٢ – هو الغافقي بن حرب العكي من أبناء القبائل اليمنية التي نزلت مصر عند الفتح. ونجح ابن سبأ في تجنيده.

٣ – وهو أيضاً ممن استماله ابن سبأ. كان ممّن دخل على عثمان، ورفع مَشاقصَ كانت في يده، فوجأ بها في أصل أُذن عثمان، فمضت حَتَّى دخلت في حلقه، ثُمَّ علاه بالسَّيف حَتَّى قتله.

٤ – من قبائل مراد اليمنية النازلة في مصر، كان أحد الذين قدموا في خلافة عمر للجهاد مع جيوش اليمن بقيادة حصين بن نمير ومعاوية بن حديج، فلما استعرضهم أمير المؤمنين عمر وقع نظره على سودان بن حمران هذا وعلى زميله خالد بن ملجم فتشاءم منهما وكرههما.

٥ – أسلم عَبْدُ الله مع أَبيه قبل الفتح، وشهد حُنينًا والطّائف، وتبوك، والفتح. وفي فتنة قتل عثمان كان على باب الدار وشارك في قتل من جاء لحماية عثمان.

البَصْرة[١] ومالِكُ بنُ الحارثِ الأَشْترُ[٢] في طائفةٍ هؤلاءِ رؤوسُهم، فناهيكَ بغيرِهم.

وقدْ كانوا أَثاروا فتنةً[٣]، فأخرجَهم عثمانُ بالاجتهادِ، وصاروا في جماعتِهم عندَ مُعاوِيَة، فذكَّرَهم باللهِ وبالتقوى لفسادِ الحالِ وهَتْكِ حُرمةِ الأمةِ، حتى قال له زيدُ بنُ صُوحان[٤] - فيما يُروَى: «كمْ تُكْثِرُ علينا بالإمْرةِ وبقريشٍ، فما زالتِ العربُ تأكلُ من قوائمِ سيوفِها وقريشٌ تأكلُ مِنْ متاجِرِها». فقال له مُعاوِيَة: «لا أُمَّ لكَ! أُذَكِّر بالإسلامِ وتُذَكِّرني بالجاهليةِ! قبَّحَ اللهُ مَنْ كَثَّرَ على أميرِ المؤمنينَ بِكُم، فما أنتم ممَّنْ ينفَعُ أو يَضُرُّ. اخْرُجُوا عنّي». وأخْبَرَه ابنُ الكَوّاءِ[٥] بأهلِ الفتنةِ في كلِّ بلدٍ ومؤامَرتِهم، فكَتَبَ (معاوية) إلى عثمانَ يُخبِرُه بذلكَ، فأَرْسَلَ إليه بإشخاصِهم إليه[٦]. فأَخْرجَهم مُعاوِيَةُ، فمَرّوا بعبدِ الرحمنِ بنِ خالدِ

١ - هاجر مع قومه إلى البصرة في عهد عمر، وكان من الثائرين على عثمان وقتلته، وذلك بعد أن وضعه عثمان تحت الإقامة الجبرية في البصرة ومنعه من مغادرتها لطيشٍ كان فيه، فحقد عليه واستجاب لفتنة ابن سبأ.

٢ - من قبيلة يمنية، كان أول مشاهده الحربية في اليرموك، وفيها فقد إحدى عينيه، ثم شارك في مواقف الفتنة، وقيل إنه استجاب لعليٍّ في الانصراف عن دار عثمان وغادر الحصار قبل مقتل عثمان.

٣ - ضربوا عبد الرحمن بن خنيس الأسدي وأباه وهم في دار الإمارة بالكوفة، فكتب أشراف الكوفة وصلحاؤها إلى عثمان بإخراجهم إلى بلد آخر، فسيرهم إلى معاوية في الشام.

٤ - كان من العلماء العباد، ذكروه في كتب معرفة الصحابة ولا صحبة له لكنه أسلم في حياة النبي ﷺ وسمع من عمر، وعلي، وسلمان.

٥ - يعني أخبر معاوية، وابن الكواء هو عبدالله بن عمرو من بني يشكر كان ناسباً عالماً وكان من أصحاب عليٍّ.

٦ - يعني طلب عثمان إرسالهم إليه. وفي بقية النسخ (بأشخاصهم) بهمزة فوقية.

بنِ الوليدِ[١]، فحَبَسَهم ووَبَّخَهم وقالَ لهمْ: «اذْكُروا لي ما كنتمْ تَذكُرونَ لمعاوِيَةَ». وحَصَرَهم وأَمْشاهم بينَ يديْهِ أَذِلّاءَ حتى تابوا بعدَ حَوْلٍ[٢].

وكَتَبَ إلى عثمانَ بِخَبَرِهم، فكَتَبَ إليه أنْ سَرِّحْهم إليَّ. فلما مَثُلُوا[٣] بينَ يديْهِ جَدَّدوا التَّوبةَ، وحَلَفوا على صِدْقِهم، وتَبَرَّأوا مما نُسِبَ إليهم. فخَيَّرَهم حيثُ يَسِيرونَ، فاخْتارَ كلُّ واحدٍ ما أرادَ مِنَ البلادِ: كوفةً وبَصْرةً ومِصْرَ، فأَخْرَجَهم. فما اسْتَقَرّوا حيثُما سارُوا حتى ثارُوا وأَلَّبُوا، حتى انضافَ إليهم جَمْعٌ. وسارُوا إليه: على أهلِ مصرَ عبدُ الرحمنِ بنُ عُدَيْسٍ البَلَويِّ[٤]. وعلى أهلِ البَصْرةِ

---

١ – عبدالرحمن بن خالد بن الوليد من صغار الصحابة، وهو من أبناء الصحابي والقائد العسكري المسلم خالد بن الوليد. أدرك النبي ﷺ ورآه، ومات النبي وهو فتى يافع. اشترك في معركة اليرموك، وكان على كتيبة وهو ابن ثماني عشرة. سكن حمص، وكان يستعمله معاوية بن أبي سفيان على غزو الروم في خلافة عمر بن الخطاب. ولاه عثمان بن عفان ولاية حمص، وكان معه لواء معاوية يوم صفين. مات عبد الرحمن سنة ست وأربعين، قتله ابن أثال النصراني بالسم بحمص.

٢ – يعني تظاهروا بالتوبة بعد مرور سنة. وكان عبدالرحمن كلما ركب أمشاهم، ويقول لهم أعلمتم أن من لم يصلحه الخير أصلحه الشر؟ فيقولون: نتوب إلى الله، أقلنا أقالك الله. (رواه الطبري).

٣ – وقفوا.

٤ – اشترك في فتنة مقتل عثمان، قال الطبري :لديه ميل إلى الرئاسة، وهو قائد على إحدى الفرق الأربع التي خرجت من مصر إلى المدينة وكان عبد الرحمن بن عديس في مدة الحصار شديد الوطأة على عثمان وأهل بيته، ثم كانت عاقبته القتل في جبل الجليل بالقرب من حمص، لقيه أحد الأعراب، فلما اعترف له أنه مِنْ قتلة عثمان بادر بقتله.

حَكيمُ بنُ جَبَلَةَ، وعلى أهلِ الكُوفةِ الأَشْترُ مالِكُ بنُ الحارثِ النَّخْعِيّ[١].
فدَخَلُوا المدينةَ هِلالَ ذي القِعْدةِ سَنَةَ خَمْسٍ وثَلاثينَ.

فاسْتَقْبَلَهُم عُثْمانُ. فقالوا: ادْعُ بالمصْحَفِ. فدعا به، فقالوا: افْتَحِ التاسِعةَ – يَعْني سُورةَ يونُسَ – فقالوا: اقْرَأْ. فقَرَأَ حتى انتَهى إلى قولِه {آللّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللهِ تَفْتَرُونَ} قالوا له: قِفْ: أرأيتَ ما حَمَيْتَ مِنَ الحِمَى، أَذِنَ اللهُ لكَ أمْ على اللهِ افْتَرَيْتَ؟ قال: امْضِه، إنما نَزَلَتْ في كذا. وقدْ حَمَى عُمَرُ، وزادتِ الإبلُ فزِدْتُ. فجَعَلوا يَتْبَعُونه هكذا، وهو ظاهرٌ[٢] عليهم. حتّى قالَ لهُم: ماذا تُريدونَ؟ فأَخَذُوا مِيثاقَه، وكَتَبوا عليه سِتّاً أو خَمْساً: أنَّ المنْفيَّ يُعادُ والمحرومَ يُعْطى، ويُوَفَّرُ الفَيءُ، ويُعْدَلَ في القَسْمِ، ويُسْتَعمَلُ ذو الأمانةِ والقُوةِ. فكَتَبوا ذلكَ في كتابٍ. وأَخَذَ عليهم ألا يَشُقّوا عَصاً ولا يُفرِّقوا جَماعةً. ثم رَجَعوا راضِينَ[٣]. وقيلَ أَرْسَلَ إليهم عَليّاً فاتَّفَقوا على الخَمْسِ المذْكورةِ[٤]، ورَجَعُوا راضِينَ. فبينما همْ كذلكَ، إذا راكبٌ يَتعَرَّضُ لهم، ثم يُفَرِّقُهم مِراراً[٥]، قالوا:

---

١ – تقدمت ترجمتهما.

٢ – منتصر.

٣ – كان الزاحفون من أمصارهم على المدينة فريقين: رؤساء خادعين ، ومرءوسين مخدوعين. ولما أصغى عامة الثائرين إلى أجوبة عثمان وعرفوا الحقيقة اقتنعوا ورجعوا.

٤ – وعند ابن الخياط: وأن يُرد ابن عامر على البصرة وأبو موسى الأشعري على الكوفة.

٥ – الأخبار التي جاء فيها أن الراكب غلام عثمان، وأن الجمل جمل الصدقة، وأن عثمان اعترف بذلك، كلها أخبار مرسلة لا يُعرف قائلها أو مكذوبة أذاعها رواة مطعون في صدقهم وأمانتهم. (الخطيب).

مالَكَ؟ قالَ: أنا رسولُ أميرِ المؤمنينَ إلى عامِلِه بِمِصْرَ[١]. ففَتَّشوه، فإذا هُمْ بالكتابِ على لسانِ عُثمانَ عليه خاتَمُه إلى عامِلِ مَصْرَ أنْ يَصْلُبَهم ويَقْطَعَ أيديَهم وأَرْجُلَهم.

فأَقْبَلوا حتى قَدِموا المدينةَ، فأَتَوْا عَليّاً فقالوا له: ألَمْ تَرَ إلى عَدُوِّ اللهِ! كَتَبَ فينا بِكَذا، وقدْ أَحَلَّ اللهُ دَمَه، وقالُوا له: فقُمْ مَعَنا إليه، قالَ: واللهِ لا أَقومُ معَكم، قالُوا: فلِمَ كَتَبْتَ إلينا؟ قالَ: واللهِ ما كتبتُ إليكم[٢]، فنَظَرَ بعضُهم إلى بعضٍ، وخَرَجَ عليٌّ مِنَ المدينةِ. فانطَلَقُوا إلى عثمانَ فقالُوا له: كَتَبْتَ فينا كذا. قال لهم إمّا أنْ تُقِيموا اثنينِ مِنَ المسلمينَ[٣]، أو يَميني – كما تقدَّمَ ذِكْرُه – فلم يَقْبَلُوا ذلك منه[٤]. ونَقَضُوا عهدَه وحَصَرُوه.

---

١ – واضح أنه كان يتعمد أن يوقفوه ويفتشوه لتكتمل المؤامرة التي حاكوها. وقد كان. وقد علق المرحوم محب الدين الخطيب على ذلك فقال: ما فعل ذلك إلا ليلفت أنظارهم إليه، ويثير شكوكهم فيه. وهذا ما أراده مستأجرو هذا الرجل لتمثيل هذا الدور، ومدبرو هذه المكيدة لتجديد الفتنة بعد أن صرفها الله وأراح المسلمين من شرورها، ولا يعقل أن يكون تدبير هذا الدور التمثيلي صادرًا عن عثمان أو مروان أو أي إنسان يتصل بهما؛ لأنه لا مصلحة لهما في تجديد الفتنة بعد أن صرفها الله، وإنما المصلحة في ذلك للدعاة الأولين إلى إحداث هذا الشغب، ومنهم الأشتر وحكيم بن جبلة اللذان لم يسافرا مع جماعتهما إلى بلديهما، بل تخلفا في المدينة.

٢ – وهذا دليل على أن اليد التي زورت الكتاب على عثمان هي اليد التي زورت على عليٍّ كتاباً إلى الثوار العراقيين بأن يعودوا.

٣ – يعني للشهادة.

٤ – لأنهم ما جاءوا ليقبلوا حقاً أو يرجعوا إلى شرع، وإنما جاءوا ليخلعوه أو يسفكوه دمه.

وقدْ رُويَ أنَّ عثمانَ جِيءَ إليه بالأشْتَرِ[١]، فقال له: يُريدُ القومُ منك إمّا أنْ تَخْلَعَ نَفْسَكَ أو تَقُصَّ منها أو يَقْتلوكَ! فقال: أمّا خَلْعي فلا أَترُكُ أمَّةَ محمدٍ بعضَها على بعضٍ. وأمّا القِصاصُ فصاحِبايَ قَبْلي[٢] لم يَقُصّا مِنْ أَنْفُسِهما، ولا يَحْتَمِلُ ذلكَ بَدَني[٣].

ورُويَ أنَّ رجلاً قال له: نَذَرْتُ دَمَكَ. قال: خُذْ جَنْبي. فشَرَطَ فيه شَرْطَةً بالسَّيفِ أراقَ منه دَمَه، ثم خَرَجَ الرَّجلُ ورَكِبَ راحِلَتَه وانْصَرَفَ في الحِين[٤].

---

١ – في مصنف ابن أبي شيبة (٣٨٨٠٩): فَقَالَ عثمان: يَا أَشْتَرُ، مَا يُرِيدُ النَّاسُ مِنِّي، قَالَ: ثَلاَثٌ لَيْسَ مِنْ إحْدَاهُنَّ بُد، يُخَيِّرُونَك بَيْنَ أَنْ تَخْلَعَ لَهُمْ أَمْرَهُمْ، فَتَقُولُ: هَذَا أَمْرُكُمْ فَاخْتَارُوا لَهُ مَنْ شِئْتُمْ، وَبَيْنَ أَنْ تُقِصَّ مِنْ نَفْسِكَ، فَإِنْ أَبَيْت هَاتَيْنِ فَإِنَّ الْقَوْمَ قَاتِلُوك، قَالَ: مَا مِنْ إحْدَاهُنَّ بُدٌّ، قَالَ: مَا مِنْ إحْدَاهُنَّ بُدٌّ، فَقَالَ: أَمَّا أَنْ أَخْلَعَ لَهُمْ أَمْرَهُمْ فَمَا كُنْت لأَخْلَعَ لَهُمْ سِرْبَالاً سَرْبَلَنِيهِ اللَّهُ أَبَدًا، وأمّا أَنْ أُقَصَّ لَهُمْ مِنْ نَفْسِي، فَوَاللهِ لَقَدْ عَلِمْتُ أَنَّ صَاحِبَيّ بَيْنَ يَدَيّ كَانَا يُقَصَّانِ مِنْ أَنْفُسِهِمَا، وَمَا يَقُومُ بَدَنِي بِالْقِصَاصِ، وَأَمَّا أَنْ يَقْتُلُونِي، فَوَاللهِ لَئِنْ قَتَلُونِي لاَ يَتَحَابُّونَ بَعْدِي أَبَدًا، وَلاَ يُقَاتِلُونَ بَعْدِي جَمِيعًا عَدُوًّا أَبَدًا، فَقَامَ الأَشْتَرُ فَانْطَلَقَ، فَمَكَثْنَا فَقُلْنَا: لَعَلَّ النَّاسَ، ثُمَّ جَاءَ رُوَيْجِلٌ كَأَنَّهُ ذِئْبٌ، فَاطَّلَعَ مِنَ الْبَابِ ثُمَّ رَجَعَ، ثُمَّ جَاءَ مُحَمَّدُ بْنُ أَبِي بَكْرٍ فِي ثَلاَثَةَ عَشَرَ رَجُلاً حَتَّى انْتَهَى إلَى عُثْمَانَ فَأَخَذَ بِلِحْيَتِهِ، فَقَالَ بِهَا حَتَّى سَمِعْتُ وَقْعَ أَضْرَاسِهِ، وَقَالَ: مَا أَغْنَى عَنْك مُعَاوِيَةُ، مَا أَغْنَى عَنْك ابْنُ عَامِرٍ، مَا أَغْنَتْ عَنْك كُتُبُك، فَقَالَ: أَرْسِلْ لِي لِحْيَتِي يَابْنَ أَخِي، أَرْسِلْ لِي لِحْيَتِي يَا أَخِي، قَالَ: فرَأَيْته اسْتَعْدَى رَجُلاً مِنَ الْقَوْمِ يُعِينه فَقَامَ إلَيْهِ بِمِشْقَصٍ حَتَّى وَجَأَ بِهِ فِي رَأْسِهِ فَأُثْبِت، ثُمَّ مه؟، قَالَ: ثُمَّ دَخَلُوا عَلَيْهِ وَاللهِ حَتَّى قَتَلُوهُ.

٢ – أبو بكر وعمر رضي الله عنهما.

٣ – كان في الثانية والثمانين لما قتلوه رضي الله عنه.

٤ – كتاب (التمهيد) للإمام أبي بكر الباقلاني. وقد جاء كميل بن زياد النخعي إلى المدينة ليغتال عثمان وترصد للخليفة حتى مر به، فلما التقيا ارتاب منه عثمان، ووجأ وجهه فوقع على استه، فقال لعثمان: أوجعتني يا أمير المؤمنين، قال عثمان: أولستَ بفاتك؟ قال: لا والله الذي لا إله إلا هو، فاجتمع الناس وقالوا: نفتشه يا أمير المؤمنين. فقال: لا. قد رزق الله العافية، ولا أشتهي أن أطلع منه على غير ما قال. (رواه الطبري).

ولقدْ دَخَلَ عليه ابنُ عُمَرَ، فقال له عثمانُ: انظرْ ما يقولُ هؤلاءِ، يقولونَ: اخْلَعْ نفسَك أو نَقْتُلَكَ، قال له ابنُ عُمَرَ: أَمُخَلَّدٌ أنتَ في الدُّنيا؟ قال: لا. قال: هل يَزِيدونَ على أنْ يَقْتُلوكَ؟ قال: لا. قال: هلْ يَمْلِكون لكَ جَنَّةً أو ناراً؟ قال: لا. قال: فلا تَخْلَعْ قميصَ اللهِ عَنْكَ فتكونَ سُنَّةً، كلَّما كَرِهَ قومٌ خَليفَتَهم خَلَعوه أو قَتَلوه[1]. وقدْ أَشْرَفَ عليهم عثمانُ، واحْتَجَّ عليهم بالحديثِ الصحيحِ في بُنْيانِ المسْجِدِ وحَفْرِ بِئْرِ رُومَةَ، وقولِ النبيِّ صَلَّى اللهُ عليهِ وَسَلَّمَ حينَ رَجَفَ بهِمْ أُحُدٌ[2]. وأَقَرُّوا له به في أشياءَ ذَكَرَها[3].

١ – البلاذري – أنساب الأشراف (٥: ٧٦). وكان عثمان يستشير ابن عمر فيشير عليه. وهذا الرأي من ابن عمر ينم عن بعد نظره وتقديره لعواقب الأمور. ولم يكتف ابن عمر بالمشورة فقط فقد أبدى استعداده لحمل السلاح للدفاع عن أمير المؤمنين عثمان والتصدي للغوغاء المحاصرين لعثمان في داره، فقد ذكر ابن سعد عن نافع أن ابن عمر لبس الدرع يوم الدار مرتين. ولما قُتل عثمان رأى ابن عمر أن الأمة وقعت في محنة، وأن قتل الخليفة بهذه الصورة معصية شؤمها على الأمة خطير، لذا لما عرض عليه الغوغاء الخلافة بعد مقتل عثمان قال: إن لهذا الأمر انتقامًا، والله لا أعترض له، فالتمِسوا غيري.

٢ – من فضائل عثمان أنه قام بتوسعة المسجد بعد أن اشترى المنازل المحيطة به وضمها إليه. وقد بشره رسول الله ﷺ بالجنة في أكثر من مرة، من ذلك ما ذكره البخاري عن أبي عبد الرحمن السلمي أن عثمان حين حوصر أشرف على الناس فقال: أنشدكم بالله! ولا أنشد إلا أصحاب النبي ﷺ ألستم تعلمون أن رسول الله ﷺ قال: من جهز جيش العسرة فله الجنة فجهزتهم؟ ألستم تعلمون أن رسول الله ﷺ قال: من حفر بئر رومة فله الجنة؟ فحفرتها، فصدقوه بما قال. وقد شهد له الرسول ﷺ بالشهادة فقد روى البخاري أن النبي ﷺ صعد أُحُداً وأبو بكر وعمر وعثمان، فرجف بهم، فقال: اثبت أُحُد فإنما عليك نبي وصدِّيق وشهيدان.

٣ – في مصنف ابن أبي شيبة عن أبي لَيْلَى الْكِنْدِيِّ قال: رَأَيْتُ عُثْمَانَ اطَّلَعَ عَلَى النَّاسِ وَهُوَ مَحْصُورٌ، فَقَالَ: أَيُّهَا النَّاسُ لاَ تَقْتُلُونِي وَاسْتَعْتِبُونِي، فَوَاللهِ لَئِنْ قَتَلْتُمُونِي لاَ تُقَاتِلُونَ جَمِيعًا أَبَدًا وَلاَ تُجَاهِدُونَ عَدُوًّا أَبَدًا، وَلَتَخْتَلِفُنَّ حَتَّى تَصِيرُوا هَكَذَا وَشَبَّكَ بَيْنَ أَصَابِعِهِ: {وَيَا قَوْمِ لاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ

وقدْ ثَبَتَ أنَّ عثمانَ أشرفَ عليهم[١] وقال: أفيكُم ابنا محدوج[٢]؟ أنْشُدُكُما اللهَ ألستُما تَعْلَمانِ أنَّ عُمَرَ قال: إنَّ ربيعةَ فاجِرٌ أو غادِرٌ وإني واللهِ لا أجعلُ فرائضَهم وفرائضَ قومٍ جاءوا منْ مسيرةِ شهرٍ، وإنما مُهْرُ أَحَدِهم عندَ طَنَبِه[٣]. وإني زِدْتُهم في غَزاةٍ واحدةٍ خَمْسَمائةٍ حتى أَلْحَقْتُهم بهم؟ قالوا: بلى. قال: أذكِّرُكما اللهَ ألسْتُما تَعْلمانِ أَنَّكُمَا أَتَيْتُمَانِي فَقُلْتُمَا: إِنَّ كِنْدَةَ أَكَلَةُ رَأْسٍ، وَأَنَّ رَبِيعَةَ هُمَ الرَّأْسُ، وَأَنَّ الأَشْعَثَ بْنَ قَيْسٍ قَدْ أَكَلَهُمْ فنَزَعْتُه[٤] واسْتَعْمَلْتُكما؟ قالا: بلى. قال: اللَّهُمَّ إِنْ كَانُوا كَفَرُوا مَعْرُوفِي وَبَدَّلُوا نِعْمَتِي فَلاَ تُرْضِهِمْ عَنْ إمَامٍ وَلاَ تُرْضِ إماماً عَنْهُمْ.[٥]

وقد رَوَى عبدُ اللهِ بنُ عامرِ بنِ ربيعةَ قال: كنتُ مع عثمانَ في الدارِ فقالَ: أَعْزِمُ على كلِّ مَنْ رَأَى أنَّ عليه سَمْعاً وطاعةً إلا كَفَّ يَدَه وسلاحَه. ثم قالَ:

أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ} قَالَ: وَأَرْسَلَ إِلَى عَبْدِ اللهِ بْنِ سَلاَمٍ فَسَأَلَهُ، فَقَالَ: الْكَفُّ الْكَفُّ، فَإِنَّهُ أَبْلَغُ لَكَ فِي الْحُجَّةِ، فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَتَلُوهُ.

١ – اطلع عليهم من سطح داره.

٢ – آل محدوج كانت لهم الرياسة على الكوفة. وهم من شيعة عليّ رضي الله عنه.

٣ – في مصنف ابن أبي شيبة: فَهَاجَرَ أَحَدُهُمْ عِنْدَ طَنَبِهِ.

٤ - في جميع الطبعات: فنزعه، وهو خطأ.

٥ – في مصنف ابن أبي شيبة: أَشْرَفَ عَلَيْنَا عُثْمَان مِنْ كُوَّةٍ وَهُوَ مَحْصُورٌ، فَقَالَ: أَفِيكُمَ ابْنا محدوج، فَلَمْ يَكُونَا ثَمَّ، كَانَا نَائِمَيْنِ، فَأُوقِظَا فَجَاءَا، فَقَالَ لَهُمَا عُثْمَان: أُذَكِّرُكُمَا اللَّهَ، أَلَسْتُمَا تَعْلَمَانِ أَنَّ عُمَرَ قَالَ: إنَّمَا رَبِيعَةُ فَاجِرٌ، أَوْ غَادِرٌ، فَإِنِّي وَاللهِ لاَ أَجْعَلُ فَرَائِضَهُمْ وَفَرَائِضَ قَوْمٍ جَاؤُوا مِنْ مَسِيرَةِ شَهْرٍ، فَهَاجَرَ أَحَدُهُمْ عِنْدَ طَنَبِهِ، ثُمَّ زِدْتهمْ فِي غَدَاةٍ وَاحِدَةٍ خَمْسَمِئَةٍ خَمْسَمِئَةٍ، حَتَّى أَلْحَقْتهم بِهِمْ، قَالاَ: بَلَى.

قمْ يابنَ عُمَرَ – وعلى ابنِ عُمَرَ سيفُه مُتَقَلِّداً[١] – فأَخْبِرْ به الناسَ. فخَرَجَ ابنُ عُمَرَ والحَسَنُ بنُ عليٍّ. ودَخَلوا فقَتَلوه[٢].

وجاء زيدُ بنُ ثابتٍ فقال له: إنَّ هؤلاءِ الأنصارَ بالبابِ يقولون: إنْ شِئْتَ كُنّا أنصارَ اللهِ مرتين[٣]. قال عثمانُ: لا حاجةَ لي في ذلكَ، كُفُّوا.

وقال له أبو هُرَيرةَ: اليومَ طابَ الضَّرْبُ مَعَكَ. قالَ: عَزَمْتُ عليكَ لَتَخْرُجَنَّ.

وكان الحَسَنُ بنُ عليٍّ آخرَ مَنْ خَرَجَ مِنْ عندِه، فإنه جاءَ الحَسَنُ والحُسَيْن وابنُ عُمَر وابنُ الزُّبَيْر ومَرْوان، فعَزَمَ عليهمْ في وَضْعِ سِلاحِهم وخُروجِهم ولُزومِ بُيوتِهِم. فقال له ابنُ الزُّبَيْرِ ومَرْوانُ: نحن نَعْزِمُ على أنفسِنا لا نَبْرَحُ. ففَتَحَ عثمانُ البابَ[٤]. ودَخَلُوا عليه في أَصَحِّ الأقوالِ. فقَتَلَه المرءُ الأسودُ[٥].

---

١ – لم يلبس ابن عمر سلاحه إلا يوم الدار في خلافة عثمان، ويوم أراد نجدةُ الحروريُّ أن يدخل المدينة مع الخوارج أيام عبد الله بن الزبير.

٢ – يعني البغاة، بعدما خرج ابن عمر والحسن وعبد الله بن الزبير. وكان آخر من خرج عبد الله بن الزبير عندما أمره عثمان أن يصير إلى أبيه بوصيته التي كتبها استعداداً للموت، أمره أن يأتي أهل الدار (أي المدافعين عنه) فيأمرهم بالانصراف إلى منازلهم. فخرج عبد الله بن الزبير آخرهم، فما زال يدعى بها ويحدث الناس عن عثمان بآخر ما مات عليه، وإنما أوصى عثمان إلى الزبير لأن الزبير كان محل الثقة من كبار الصحابة.

٣ – يعني كما كنا مع النبي ﷺ نكون معك.

٤ – لأنه كان يكره الفتنة، ويتقي الله في دماء المسلمين.

٥ – قتلوه وهو صائم. وكان قد قال لهم: أَنْشُدكم اللهَ هل تعلمون أني اشتريت رومة من مالي وجعلت رشائي فيها كرشاء رجل من المسلمين؟ قيل: نعم. قال: فعلام تمنعوني أن أشرب من مائها حتى أفطر على ماء البحر؟ وعند ابن خياط الموت الأسود بدل الرجل الأسود. قال: دخل عليه رجل من بني سدوس يقال له الموت الأسود فخنقه

جريمة مقتل عثمان

وقيلَ: أَخَذَ ابنُ أبي بكرٍ[١] بِلِحْيَتِه، وذَبَحَه كِنانةُ[٢]، وقيل: رَجلٌ مِنْ أهلِ مصرَ يُقالُ له حمارٌ، فسَقَطَتْ قَطْرةٌ مِنْ دَمِه على المصْحَفِ على قولِه {فَسَيَكْفِيكَهُمُ} فإنَّها فيه، ما حُكَّتْ إلى الآنِ[٣].

---

١ – عبدالرحمن بن أبي بكر الصديق، وكان معهم، وقد ورد أنه لما دخل على عثمان رضى الله عنه وعظه عثمان فخرج وتركه. روى ذلك ابن كثير، وقال الألباني: (الروايات التي وردت في اتهام محمد بن أبي بكر الصديق في قتل عثمان رضى الله عنه لم يصح منها إلا أنه دخل عليه فوعظه عثمان رضى الله عنه، فخرج وتركه، وهذه الرواية التي رواها ابن عبد البر في كتابه الاستيعاب بإسناد حسن). وعند ابن خياط أن ابن أبي بكر أخذ بلحيته فقال عثمان: لقد أخذت مني مأخذا – أو قعدت مني مقعدا – ما كان أبوك ليقعده، فخرج وتركه.

٢ – هو كنانة بن بشر بن عتاب التجيبي قائد إحدى الفرق المصرية الأربع وكان قبل ذلك أحد الذين التفوا بعمار بن ياسر في الفسطاط ليجعلوه سبئياً، وهو أول داخل إلى دار عثمان بالشعلة من النفط ليحرق باب الدار، وهو الذي اخترط السيف ليضعه في بطن أمير المؤمنين، فوقته زوجته نائلة فقطع يدها واتكأ بالسيف عليه في صدره، وكانت عاقبة التجيبي القتل مخذولاً في المعركة التي نشبت في مصر بين محمد بن أبي بكر وعمرو بن العاص.

٣ – قال حسان بن ثابت:

مَن سَرَّهُ الموتُ صِرفاً لا مِزاجَ لَهُ ... فَليَأتِ مَأسَدَةً في دارِ عُثمان

ضَحَّوا بِأَشمَطَ عُنوانُ السُجودِ بِهِ ... يُقَطِّعُ اللَيلَ تسبيحاً وَقُرآنا

لَتَسمَعُنَّ وَشيكاً في دِيارِكُمُ ... اللَهُ أَكبَرُ يا ثاراتِ عُثمانا

ورُويَ أنَّ عائشةَ رَضِيَ اللهُ عنها قالتْ: «غَضِبْتُ لكمْ مِنَ السَّوطِ ولا أغْضَبُ لعثمانَ مِنَ السَّيْفِ؟! اسْتَعْتَبْتُمُوه حتى إذا تركتُموه كالقَنْدِ المصَفّى[1]، ومَصْتُمُوه مَوْصَ الإناءِ[2]، وتَرَكْتُمُوه كالثَّوْبِ المنَقَّى مِنَ الدَّنَسِ ثم قَتَلْتُمُوه».

قال مَسْروقٌ[3]: فقلتُ لها: «هذا عمَلُكِ، كَتَبْتِ إلى الناسِ تَأْمرينَهم بالخروجِ عليه». فقالتْ عائشَةُ: «والذِي آمَنَ به المؤمنونَ وكَفَرَ به الكافرونَ ما كَتبْتُ إليهم سَوَاداً في بَياضٍ». قال الأعْمَشُ[4]: فكانوا يَرَوْنَ أنه كُتِبَ على لسانِها[5].

وقد رُويَ أنه ما قَتَلَه أحدٌ إلا أعلاجٌ[6] مِنْ أهلِ مِصْرَ.

قال القاضِي أبو بَكْرٍ رَضِيَ الله عنه: فهذا أَشْبَهُ ما رُويَ في البابِ، وبه يَتَبَيَّنُ أنَّ أَحَداً مِنَ الصحابةِ لم يَسْعَ عليه ولا قَعَدَ عنه[7]. ولو اسْتَنْصَرَ ما غَلَبَ

١ – القنْد المصفّى: عصير قصب السكر.

٢ – يعني غسلتموه كما يغسل الإناء.

٣ – أبو عائشة مسروق بن الأجدع الوادعي المتوفي سنة ٦٢ هـ، تابعي ومفتي كوفي، وأحد رواة الحديث النبوي. وقد لزم مسروق أمَّ المؤمنين وكان منها مُقرّبًا، حتى أنها قالت له: يا مسروق إنك من ولدي، وإنك لمن أحبهم إليَّ. كما أنه من حُبه لها تكنّى بأبي عائشة.

٤ – سليمان بن مهران الأعمش أبو محمد الأسدي الكاهلي تابعي من حفّاظ الحديث النبوي، ومُحدّث من الثقات، لقّبه شمس الدين الذهبي بـ "شيخ المحدّثين"، وعاش الأعمش في الكوفة، وكان محدثها في زمانه. أدرك الأعمش جماعة من الصحابة، وعاصرهم ورأى أنس بن مالك، وسمعه.

٥ – الطبري ٥: ١٦٥ –١٦٦

٦ – أعلاج: من غير العرب.

٧ – المقصود عثمان رضي الله عنه.

ألفٌ أو أربعةُ آلافٍ غرباءُ عشرينَ ألفاً مِنْ أهلِ المدينةِ أو أكثرَ مِنْ ذلكَ، ولكنه ألْقَى بِيَدِه إلى المصِيبَةِ[١].

وقدِ اخْتَلَفَ العلماءُ فيمن نَزَلَ به مثلُها: هل يُلْقِي بِيَدِهِ أو يَسْتَنْصِرُ؟ وأَجازَ بعضُهم أنْ يَسْتَسْلِمَ ويُلْقِيَ بِيَدِهِ اقتداءً بفِعْلِ عثمانَ وبتوْصِيةِ النبيّ صَلَّى اللهُ عليهِ وَسَلَّمَ بذلكَ في الفتْنَةِ[٢].

ما وقع للمؤلف شبيهاً بعثمان

قال القاضي أبو بكرٍ رَضِيَ اللهُ عنه: ولقدْ حَكَمْتُ بينَ الناسِ[٣] فألزمتُهُمُ الصَّلاةَ والأمرَ بالمعروفِ والنَّهْيَ عنِ المنْكَرِ، حتى لم يَكُ يُرَى في الأرضِ مُنْكَرٌ، واشتدَّ الخَطْبُ على أهلِ الغَصْبِ وعَظُمَ على الفَسَقَةِ الكَرْبُ، فتَأَلَّبُوا وأَلَّبُوا وثارُوا إليَّ، فاسْتَسْلمتُ لأمرِ اللهِ وأمرتُ كلَّ من حَوْلي ألّا يَدْفَعوا عنْ داري، وخَرَجْتُ على السطوحِ بنفسي فعاثُوا عليَّ، وأَمْسيتُ سَلَيبَ الدارِ، ولولا ما سَبَقَ مِنْ حُسْنِ المِقدارِ لكنتُ قَتِيلَ الدّارِ.

---

١ – يعني استسلم لقضاء الله؛ لأنه اختار بذلك أهْوَنَ الشَّرين فآثر التضحية بنفسه على توسيع دائرة الفتنة وسفك دماء المسلمين.

٢ – عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: تَكُونُ فِتْنَةٌ الْقَاعِدُ فِيهَا خَيْرٌ مِنَ الْمَاشِي، وَالْمَاشِي فِيهَا خَيْرٌ مِنَ السَّاعِي، مَنْ يَسْتَشْرِفْ لَهَا تَسْتَشْرِفْ لَهُ، وَمَنْ وَجَدَ مِنْهَا مَلْجَأً أَوْ مَعَاذًا فَلْيَعُذْ بِهِ.

٣ – تولى ابن العربي القضاء فكان في ذلك موفَّقاً، إلا أن أعداءه ومبغضي طريقته أثاروا العامة عليه بأساليبهم الخبيثة حتى نابه بداره في أحد الأيام مثلُ الذي ناب أمير المؤمنين عثمان بن عفان لما تألب البغاة عليه وهاجموه في داره.

وكان الذي حَمَلَني على ذلكَ ثلاثةُ أمورٍ: أحدُها وَصايَةُ النبيّ صَلَّى اللهُ عليهِ وَسَلَّمَ المتَقَدِّمةُ[١]، والثاني الاقتداءُ بعثمانَ، والثالثُ سوءُ الأُحْدوثَةِ التي فَرَ منها رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عليهِ وَسَلَّمَ المؤَيَّدُ بالوَحْي[٢]. فإنَّ مَنْ غابَ عنّي، بلْ مَنْ حَضَرَ مِنَ الحَسَدَةِ معي، خِفْتُ أنْ يقولَ: إنَّ الناسَ مَشَوْا إليه مُسْتعينينَ به مُسْتغيثينَ له فأراقَ دِماءَهم.

وأَمْرُ عثمانَ كلُّه سُنَّةٌ ماضِيةٌ وسِيرةٌ راضِيةٌ. فإنَّه تَحَقَّقَ أنه مقتولٌ بخَبَرِ الصادقِ له بذلك، وأنَّه بَشَّرَه بالجَنَّةِ على بلْوَى تُصيبُه، وأنه شِهيد[٣].

ورُويَ أنه قالَ له في الْمَنامِ: إنْ شِئْتَ نَصَرْتُك، أو تُفْطِرَ عندَنا الليلةَ[٤].

---

١ – عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: (ستكون فتن القاعد فيها خير من القائم، والقائم فيها خير من الماشي، والماشي فيها خير من الساعي. ومن يشرف لها تستشرفه، ومن وجد ملجأ أو معاذاً فليعذ به). وأعلن أبو موسى الأشعري في الكوفة قبل وقعة الجمل أنه سمعه من رسول الله ﷺ. رواه البخاري في باب الفتن.

٢ – لعل المؤلف يقصد لما قال ابن سلول في غزوة بني المصطلق {لئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ}، فأراد عمر أن يقتله فمنعه النبي ﷺ وقال: (لا يتحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه).

٣ - روى البخاري أن النبي ﷺ صعد أُحُداً وأبو بكر وعمر وعثمان، فرجف بهم، فقال: اثبت أُحُد فإنما عليك نبي وصدّيق وشهيدان.

٤ – قال أبو سعيد مولى عثمان: إن عثمان أعتق عشرين مملوكاً (يعني عندما أيقن أنه مقتول)، ودعا بسراويل فشدها عليه ولم يلبسها في جاهلية ولا إسلام، وقال: إني رأيت رسول الله ﷺ البارحة في المنام ورأيت أبا بكر وعمر فقالوا لي: (اصبر فإنك تفطر عندنا الليلة). البداية والنهاية (٧: ١٨٢ – ١٨٣)

وقد انْتُدِبَتِ الْمَرَدَةُ والجَهَلَةُ إلى أنْ يَقولوا: إنَّ كلَّ فاضِلٍ مِنَ الصَّحابةِ كانَ عليه[١] مُشاغِباً مُؤلِّباً، وبما جَرَى عليه راضِياً. واخْتَرَعوا كِتاباً فيه فَصاحةٌ وأَمثالٌ كَتَبَ عثمانُ به مُسْتَصْرِخاً إلى عَليٍّ. وذلك كلُّه مصنوعٌ ليوغِروا قلوبَ المسلمينَ على السَّلَفِ الماضِينَ والخُلَفاءِ الراشِدينَ.

قال القاضِي أبو بكرٍ: فالذي يُنْخَلُ[٢] مِنْ ذلك أنَّ عثمانَ مَظلومٌ، مَحْجوجٌ بغيرِ حُجَّةٍ، وأنَّ الصَّحابةَ بَراءٌ مِنْ دَمِهِ بأَجْمَعِهم، لأنَّهم أَتَوا إرادَتَه وسَلَّمَوا له رأيَه في إسلامِ نفْسِه.

والطريقُ الثاني طريقُ علماءِ التاريخِ، وهو أنْ يَعْرِضوا كلَّ خبرٍ على سجايا[٣] مَنْ يُخْبِرُ عنه، ويقارِنُوه بِسيرَتِه، وهل هو مما يُنْتَظَرُ وقوعُه ممَّن نُسِبَ إليه ويُلائمُ المعروفَ مِنْ سابقَتِه وأخْلاقِه أم لا. وتَمْحيصُ تاريخِنا يحتاجُ إلى هاتينِ الطريقتينِ معاً يقومُ بهما علماءٌ راسِخونَ فيهما. ولقدْ ثَبَتَ - زائداً إلى ما تَقَدَّمَ عنهم - أنَّ عبدَ اللهِ بنِ الزُّبَيْر قال لعثمانَ: إنّا معكَ في الدارِ عِصابةً مُسْتَبْصرةً يَنْصُرُ اللهُ بأقلَّ منهم، فائْذَنْ لنا. فقال: أَذْكَرَ[٤] اللهُ رجلاً أراقَ لِيَ دَمَه، أو قال دَماً.

---

١ - يعني على عثمان؟

٢ - يعني يُستنتَج.

٣ - أخلاق.

٤ - يعني جعل له ذكراً حسناً بين الناس.

وقال سَلِيطُ بنُ أبي سَلِيطٍ[١]: نهانا عثمانُ عنْ قتالِهِم، فلو أَذِنَ لنا لضَرَبْناهم حتى نُخْرِجَهم عن أقطارِها[٢].

وقال عبدُ اللهِ بنُ عامرِ بنِ ربيعةَ: كنتُ مع عثمانَ في الدارِ فقال: أَعْزِمُ على كلِّ مَنْ رَأَى أنَّ لِيَ عليه سَمْعاً وطاعةً إلا كَفَّ يَدَه وسِلاحَه، فإنَّ أَفْضَلَكم غَناءً[٣] مَنْ كَفَّ يَدَه وسِلاحَه.

وثَبَتَ أنَّ الحَسَنَ والحُسَيْنَ وابنَ الزُّبَيْرِ وابنَ عُمَرَ ومَرْوانَ كلُّهم شاكٍ في السلاحِ[٤] حتى دَخَلُوا الدارَ، فقالَ عثمانُ: أَعْزِمُ عليكُم لَمَا رَجَعْتُم فوَضَعْتُم أَسْلِحَتَكم ولَزِمْتُم بُيوتَكم[٥].

البيعة لعليٍّ رضي الله عنه

فلما قَضَى اللهُ مِنْ أَمْرِهِ ما قَضَى، ومَضَى في قَدَرِهِ ما مَضَى، عُلِمَ أنَّ الحقَّ لا يَتْرُكُ الناسَ سُدًى، وأنَّ الخَلْقَ بعدَه مُفْتَقِرونَ إلى خَليفةٍ مَفْروضٍ عليهم النَّظَرُ

---

١ – هاجر أبوه سَلِيط بن عمرو وامرأته أمّ يقظة بنت علقمة، فولدت له هناك سَلِيط بن سَلِيط . وشهد سَلِيط مع أبيه موقعة اليمامة. وكانت عند عمر حُلَّة زائدة عما كسا أصحابَ رسول الله ﷺ، فقال: دلوني على فتى هاجر هو وأبوه، فقالوا: ابنُ عمر. فقال: ابن عمر هُوجِرَ بهِ، فدلوه على سَلِيط بن سَلِيط، فكساهُ إياها.

٢ – يعني المدينة.

٣ – يعني نَفعاً وكفايةً.

٤ – يلبس سلاحه كاملاً استعداداً لكل طارئ.

٥ – قتلوه وأحزنوا عليه المؤمنين. دخل عليٌّ يوماً على بناتِه وهنَّ يمسحنَ عيونَهن فقال: ما لكنَّ تبكين؟ قلن: نبكي على عثمان. فبكى وقال: ابكين. البلاذري – أنساب الأشراف (٥: ١٠٣).

فيه. ولم يَكُنْ بَعْدَ الثَّلاثةِ كالرابعِ[١] قَدْراً وعِلْماً وتُقىً ودِيناً، فانعَقَدَتْ له البَيْعةُ. ولولا الإسراعُ بعَقْدِ البيعةِ لعليٍّ لجَرَى على مَنْ بها مِنَ الأوْباشِ ما لا يُرْقَعُ خَرْقُه. ولكنْ عَزَمَ عليه المهاجِرونَ والأنْصارُ، ورَأَى ذلكَ فرْضاً عليه، فانقادَ إليه.

وعَقَدَ له البيعةَ طلحةُ[٢]، فقال الناسُ: بايَعَتْ عَليّاً يدٌ شَلَّاءُ، واللهِ لا يَتِمُّ هذا الأمرُ.

فإن قيل: بايَعا مُكْرَهين[٣]. قلْنا: حاشا للهِ أنْ يُكْرَها، لهما ولمن بايَعَهما. ولو كانا مُكْرَهَيْنِ ما أَثَّرَ ذلكَ، لأنَّ واحداً أو اثنينِ تَنْعَقِدُ البَيْعةُ بهما وتَتِمُّ، ومَنْ

١ – الثلاثة: أبوبكر وعمر وعثمان والرابع عليٌّ، رضي الله عنهم وعن أصحاب محمد أجمعين.

٢ – هو طَلْحَة بن عُبَيْد الله التَّيمي القُرشي (٢٨ ق.هـ – ٣٦ هـ / ٥٩٤ – ٦٥٦م)، أحد العشرة المبشرين بالجنة، ومن السابقين الأولين إلى الإسلام، وأحد الستة أصحاب الشورى الذين اختارهم عمر بن الخطاب ليختاروا الخليفة من بعده. قال عنه النبي محمد إنه شهيد يمشي على الأرض فقال: «من سره أن ينظر إلى شهيد يمشي على وجه الأرض فلينظر إلى طلحة بن عبيد الله».

أسلم مبكرًا، فكان أحد الثمانية الذين سبقوا إلى الإسلام، وهاجر إلى المدينة، وشارك في جميع الغزوات في العصر النبوي إلا غزوة بدر حيث كان بالشام، وكان ممن دافعوا عن النبي محمد في غزوة أُحُد حتى شُلَّت يده، فظل كذلك إلى أن مات. وجعله عمر بن الخطاب في الستة أصحاب الشورى الذين ذكرهم للخلافة بعده، وقال: «هم الذين توفي رسول الله ﷺ وهو عنهم راضٍ»، وبعد مقتل عثمان بن عفان خرج إلى البصرة مطالبًا بالقصاص من قتلة عثمان فقُتِلَ في موقعة الجمل.

٣ – يعني طلحة والزبير.

بايعَ بعدَ ذلكَ فهو لازِمٌ له، وهو مُكْرَهٌ على ذلك شرعاً. ولو لم يُبايِعا ما أثَّرَ ذلكَ فيهما، ولا في بيعةِ الإمامِ.

وأمّا مَنْ قال يَدٌ شَلّاءُ وأمْرٌ لا يَتِمُّ، فذلك ظَنٌّ مِنَ القائلِ أنَّ طَلْحةَ أولُّ مَنْ بايَعَ، ولم يكنْ كذلكَ.

فإنْ قيلَ: فقدْ قال طَلْحَةُ: «بايعتُ واللُّجُّ[١] على قَفَيَّ». قلْنا: اخْتَرَعَ هذا الحديثَ مَنْ أرادَ أنْ يَجْعَلَ في القَفا لُغَةَ قَفَيّ كما يُجْعلُ في الهوى: هويَّ. وتلك لغةُ هُذَيلٍ لا قُرَيشٍ فكانتْ كِذْبةً لم تُدَبَّرْ.

وأمّا قولُهم «يَدٌ شَلّاءُ» لو صَحَّ فلا مُتَعَلَّقٌ لهم فيه[٢]، فإن يداً شُلَّتْ في وِقايةِ رسولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عليهِ وَسَلَّمَ يَتِمُّ لها كلُّ أمْرٍ، ويُتَوَقَّى بها مِنْ كلِّ مَكروهٍ. وقدْ تمَّ الأمرُ على وجْهِ، ونَفَذَ القَدَرُ بعدَ ذلكَ على حُكْمِه، وجَهِلَ المبتدِعُ ذلكَ فاخْتَرَعَ ما هو حُجَّةٌ عليه.

فإنْ قيلَ: بايَعُوه على أنْ يَقْتلَ قَتَلةَ عثمانَ. قلْنا: هذا لا يَصِحُّ في شَرْطِ البَيْعةِ، وإنما يُبايِعونَه على الحُكْمِ بالحقِّ، وهو أنْ يَحْضُرَ الطالبُ للدَّمِ، ويَحْضُرَ المطلوبُ، وتَقَعَ الدَّعوَى، ويكونَ الجوابُ، وتقومَ البيّنةُ، ويقعَ الحُكْمُ. فأمّا على الهَجْمِ عليه بما كانَ مِنْ قولٍ مُطْلَقٍ، أو فِعْلٍ غيرِ مُحَقَّقٍ، أو سَماعِ كلامٍ،

---

١ – السيف

٢ – يعني لا حق لهم.

فليسَ ذلكَ في دِينِ الإسلامِ. قالتِ العُثْمانيَّةُ[١]: تَخَلَّفَ عنه[٢] مِنَ الصحابةِ جماعةٌ، منهم سعدُ بنُ أبي وقّاصٍ، ومحمدُ بنُ مَسْلَمةَ، وابنُ عُمَرَ، وأسامةُ بنُ زَيْدٍ وسِواهم مِنْ نُظَرائهم.

قلْنا: أمّا بيعتُه فلم يُتَخَلَّفْ عنها. وأما نُصْرَتُه فتَخَلَّفَ عنها قومٌ منهم مَنْ ذَكَرْتم، لأنها كانتْ مَسألةً اجتهاديةً، فاجْتَهَدَ كلُّ واحدٍ وأَعْمَلَ نَظَرَه وأصابَ قَدَرَه.

قاصمة (الافتراء على أصحاب الجمل وعليٍّ)

رَوَى قومٌ[٣] أنَّ البيعةَ لما تمَّتْ لعليٍّ استأذنَ طَلْحةُ والزُّبَيْرُ عليّاً في الخروجِ إلى مَكَّةَ. فقالَ لهما عَليٌّ: لعلَّكما تُريدانِ البَصْرةَ والشامَ؟ فأقْسَما ألّا يَفْعَلا[٤]. وكانتْ عائشةُ بمكَّةَ[٥].

وهَرَبَ عبدُ اللهِ بنُ عامرِ بنِ كُرَيْزٍ عاملُ عثمانَ على البصرةِ إلى مكَّةَ، ويَعْلى بنُ أُميَّةَ عاملُ عثمانَ على اليَمَنِ.

---

١ – المطالِبون بالثأر لعثمان.

٢ – عن بيعة عليٍّ.

٣ – جرت عادة ابن العربي في هذا الكتاب أن يذكر الأخبار المفتراة على الصحابة تحت عنوان (قاصمة) ثم يرد عليها ببيان وجه الحق فيها تحت عنوان (عاصمة).

٤ – قول عليٍّ لهما وقسَمَهما له من زيادات مرتكبي (القاصمة) ورواتِها.

٥ – لأداء الحج.

فاجتمعوا بمكَّةَ كلُّهم، ومعهم مَرْوانُ بنُ الحَكَمِ. واجتمعتْ بنو أميَّةَ. وحَرَّضُوا على دَمِ عثمانَ. وأَعْطى يَعْلَى لِطلحةَ والزُّبَيْرِ وعائشةَ أربعمائةَ ألفِ دِرْهمٍ. وأَعْطى لعائشةَ "عَسْكراً" جَملاً اشتراهُ باليَمَنِ بمائتيْ دينارٍ. فأرادُوا الشامَ، فصدَّهمُ ابنُ عامرٍ وقال: لا مِيعادَ لكم بمُعاوِيَةَ، ولِي بالبَصْرةِ صَنائعُ، ولكنْ إليها.

فجاءوا إلى ماءِ الحَوْأَبِ[1]، ونَبَحَتْ كِلابُه، فسَأَلتْ عائشةُ فقيل لها: هذا ماءُ الحَوْأَبِ. فرَدَّتْ خِطامَها عنه، وذلك لِمَا سَمِعَتِ النبيَّ صَلَّى اللهُ عليهِ وَسَلَّمَ يقول «أيتُكُنَّ صاحِبةُ الجَمَلِ الأَدْبَب[2]، التي تَنْبَحُها كلابُ الحَوْأَب؟»[3] فشَهِدَ طَلْحَةُ والزُّبَيْرُ أنه ليس هذا ماءَ الحَوْأَبِ، وخمسونَ رجلاً إليهما، وكانتْ أوَّلَ شِهادةِ زُورٍ دارتْ في الإسلامِ[4].

وخَرَجَ عليٌّ إلى الكوفةِ، وتَعَسْكَرَ الفَريقانِ والْتَقَوْا، وقال عَمّارٌ – وقدْ دَنا مِنْ هَوْدَجِ عائشةَ –: ما تَطْلبونَ؟ قالوا: نَطْلُبُ دَمَ عثمانَ. قال: قَتَلَ اللهُ في هذا اليومِ الباغيَ والطالبَ بغيرِ الحقِّ.

---

١ – مكان بَيْنَ مَكَّةَ والبَصْرة، وَهُوَ الَّذِي نَزَلَتْهُ عَائِشَةُ لَمَّا جَاءَتْ إِلَى الْبَصْرَةِ فِي وقْعَة الجَمل.

٢ – كثير الشَّعر.

٣ – رواه الإمام أحمد وابن حبان والحاكم وابن أبي شيبة.

٤ – هذا الزعم سيرد عليه المؤلف بعد قليل وأن هذه الشهادة من طلحة والزبير لم تكن.

والْتَقَى عليٌّ والزُّبَيْرُ، فقال له عليٌّ: أَتَذْكرُ قولَ النبيِّ صَلَّى اللهُ عليهِ وَسَلَّمَ إنكَ تُقاتِلُني؟ فترَكَه ورَجَعَ. وراجَعَه ولَدُه[1] فلمْ يَقْبَلْ. وأَتْبَعَه الأَحْنَفُ[2] مَنْ قَتَلَه.

ونادى عليٌّ طلحةَ مِنْ بَعْدُ: ما تَطْلُبُ؟ قال: دَمَ عثمانَ. قال: قاتَلَ اللهُ أَوْلانا بدَمِ عثمانَ. ألم تَسْمعِ النبيَّ صَلَّى اللهُ عليهِ وَسَلَّمَ يقولُ: «اللهمَّ والِ مَنْ والاهُ، وعادِ مَنْ عاداهُ، وانْصُرْ مَنْ نَصرَه، واخْذُلْ مَنْ خَذَلَه[3]» وأنتَ أوَّلُ مَنْ بايَعَني ونَكَث.

عاصمة (ببيان وجه الحق)

أمّا خُروجُهم إلى البَصْرَةِ فلا إِشْكالَ فيه.

ولكنْ لأَيِّ شيءٍ خَرَجُوا؟ لم يَصحَّ فيه نَقْلٌ، ولا يُوثَقُ فيه بأحدٍ لأنَّ الثقةَ لم يَنْقِلْه، وكلامُ المتَعَصِّبِ لا يُسْمَعُ. وقدْ دَخَلَ مَعَ[4] المتَعَصِّبِ مَنْ يريدُ الطَّعْنَ في الإسلامِ واستِنْقاصِ الصحابةِ.

---

١ – قال عبداللهِ بنِ الزُّبَيْرِ رضي الله عنهما: لَمَّا وَقَفَ الزُّبَيْرُ يَوْمَ الْجَمَلِ دَعانِي، فَقُمْتُ إِلَى جَنْبِهِ، فَقَالَ: يَا بُنَيَّ، إِنَّهُ لا يُقْتَلُ الْيَوْمَ إِلَّا ظَالِمٌ أَوْ مَظْلُومٌ، وإِنِّي لا أُرَانِي إِلَّا سَأُقْتَلُ الْيومَ مَظْلُومًا، وَإِنَّ مِنْ أَكْبَرِ هَمِّي لَدَيْنِي، أَفَتَرَى دَيْنَنَا يُبْقِي مِنْ مالِنا شَيْئًا؟ ثُمَّ قَالَ: يا بُنَيَّ، بِعْ مَالَنَا واقْضِ دَيْنِي.

٢ – الأحنف بن قيس. وهو أتقى لله من أن يأمرهم بقتله.

٣ – رواه ابن ماجة، وصححه الألباني.

٤ – في نسخة الخطيب (على) بدل (مع).

فيُحْتَمَلُ أنَّهم[١] خَرَجوا خَلْعاً لعليٍّ لأمرٍ ظَهَرَ لهم[٢]، وهو أنَّهم بايَعوا لتَسْكينِ الثائرةِ، ثم قاموا يَطْلُبونَ الحقَّ.

ويُحْتَمَلُ أنَّهم خَرَجوا ليَتَمَكَّنوا مِنْ قَتَلَةِ عثمانَ[٣].

ويُمكِنُ أنَّهم خَرَجوا في جَمْعِ طوائفِ المسلمينَ، وضَمِّ نَشْرِهم، ورَدِّهم إلى قانونٍ واحدٍ حتى لا يَضْطَرِبوا فيَقْتَتِلوا. وهذا هو الصحيحُ، لا شيءَ سواهُ، وبذلكَ وَرَدَتْ صِحاحُ الأخْبارِ.

فأمّا الأقْسامُ الأُولى فكلُّها باطِلةٌ وضَعيفةٌ:

أمّا بَيْعتُهم كُرْهاً فباطلٌ قدْ بَيّنّاه.

وأمّا خَلْعُهم فباطِلٌ، لأنَّ الخَلْعَ لا يكونُ إلا بِنَظَرٍ مِنَ الجميعِ، فيمكِنُ أنْ يُوَلَّى واحدٌ أو اثنانِ، ولا يكونُ الخَلْعُ إلا بعدَ الإثباتِ والبيانِ.

---

١ – المؤلف يذكر احتمالات، من باب التدرج مع الخصوم، ثم ينقضها بعد ذلك ويرد عليها.

٢ – لم ينقل أحد أن عائشة ومن معها نازعوا علياً في الخلافة، ولا دَعَوا إلى أحد منهم ليولوه الخلافة. الحافظ ابن حجر في فتح الباري (١٣ – ٤١: ٤٢).

٣ – قال محب الدين الخطيب: وهذا ما كانوا يذكرونه إلا أنهم يريدون أن يتفقوا مع عليّ على الطريقة التي يتوصلون بها إلى ذلك. وهذا ما كان يسعى به الصحابي المجاهد القعقاع بن عمرو، ورضي به الطرفان كما سيأتي

وأمّا خُروجُهم في أمْرِ قَتَلَةِ عثمانَ فيَضْعُفُ[1]، لأنَّ الأصلَ قَبْلَه تأليفُ الكلمةِ، ويُمكِنُ أنْ يَجْتَمِعَ الأمرانِ.

ويُرْوَى أنَّ في تَغَيُّبِهم[2] قَطْعَ الشَّغَبِ بينَ الناسِ.

فخَرَجَ طَلْحَةُ والزُّبَيْرُ وعائشَةُ أمُّ المؤمنينَ رَضِيَ الله عنهم رَجاءَ أنْ يَرْجِعَ الناسُ إلى أُمِّهم فيَرْعَوْا حُرْمَةَ نَبِيِّهم. واحْتَجُّوا عليها[3] بقولِه تعالى: {لاَّ خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلاَّ مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلاَحٍ بَيْنَ النَّاسِ}. وقدْ خَرَجَ النبيُّ صَلَّى اللهُ عليهِ وَسَلَّمَ في الصُّلْحِ وأَرْسَلَ فيه. فَرَجَتِ الْمَثُوبَةَ، واغْتَنَمَتِ الفُرْصَةَ[4]، وخَرَجَتْ حتى بَلَغَتِ الأَقْضِيةُ مَقاديرَها[5]. وأَحَسَّ بهم أهلُ البَصْرةِ، فحَرَّضَ مَنْ كان بها مِنَ المتَأَلِّبينَ على عثمانَ الناسَ، وقالوا اخْرُجوا إليهم حتى تَرَوْا ما جاءوا إليه.

---

١ – كلمة (فيضعف) سقطت من نسخة الخطيب، ولا يتم المعنى إلا بها. وقد وجدتها في نسخة دار الجيل.

٢ – أي تغيُّب طلحة والزبير وعائشة عن المدينة.

٣ – على عائشة لما أقنعوها بالخروج إلى البصرة.

٤ – في نسخة الخطيب القصة بدل الفرصة. والمقصود الفرصة إلى الصلح بين المسلمين.

٥ – الأقضية جمع قضاء. والمقصود ما قضاه الله وشاءه.

فبَعَثَ عثمانُ بنُ حنيفٍ[١] حَكيمَ بنَ جَبَلَةَ[٢] فلَقِيَ طلحةَ والزُّبَيْرَ بالزابوقةِ[٣]، فقُتِلَ حَكيمٌ. ولو خَرَجَ مُسَلِّماً مُستسلِماً لا مُدافِعاً[٤] لَمَا أصابه شيءٌ. وأيُّ خيرٍ كان له في الْمُدافَعةِ وعَنْ أيِّ شيءٍ كان يُدافِعُ؟ وهُمْ ما جاءوا مقاتِلينَ ولا وُلاةً، وإنَّما جاءوا ساعِينَ في الصُّلْحِ، راغِبينَ في تأليفِ الكَلِمَةِ[٥]، فمَنْ خَرَجَ إليهم ودافَعَهم وقاتَلَهم دافَعوا عنْ مَقْصِدِهم، كما يُفْعَلُ في سائرِ الأسْفارِ والمقاصِدِ.

فلمّا وَصَلُوا إلى البَصْرَةِ تَلَقَّاهمُ الناسُ بأعْلى الْمِرْبَدِ[٦] مُجْتَمِعِينَ، حتى لو رُمِيَ حَجَرٌ ما وَقَعَ إلا على رأسِ إنسانٍ. فتَكَلَمَ طَلْحةُ وتَكَلَّمَ الزُّبَيْرُ وتَكَلَّمتْ عائشةُ رَضِيَ اللهُ عنها. وكَثُرَ اللَّغَطُ[٧] وطلْحةُ يقولُ «أَنْصِتُوا» فجَعَلُوا يَرْكَبونَه

---

١ – عثمان بن حنيف أحد ولاة عليّ بن أبي طالب على البصرة. ولما وصل أصحاب الجمل قريباً من البصرة أرسل إليهم عثمانُ بنُ حنيفٍ عمرانَ بنَ حصينٍ ليعلم له خبرهم، فلما عاد إليه وذكر له حديثه مع أصحاب الجمل قال له عثمان بن حنيف: أشرْ عليَّ يا عمران. فقال له: إني قاعد فاقعد. فقال عثمان: بل أمنعهم حتى يأتي أمير المؤمنين عليّ، وأشار عليه هشام بن عامر الأنصاري – أحد الصحابة المجاهدين الفاتحين – بأن يسالمهم حتى يأتي أمر عليّ، فأبى عثمان بن حنيف ونادى في الناس، فلبسوا السلاح وخرجوا، فكانت العاقبة فشله وخروج الأمر من يده إلى أيدي أصحاب الجمل. ووقع ابن حنيف في أسر الجماهير فنتفت لحيته. (الطبري ٥ : ١٦١ – ١٧٥).

٢ – حكيم بن جبلة من قتلة أمير المؤمنين عثمان.

٣ – مدينة قريبة من البصرة كانت فيها موقعة الجمل.

٤ – مقاتلاً.

٥ – قال ابن تيمية (منهاج السنة): عائشة لم تقاتل ولم تخرج لقتال وإنما خرجت بقصد الإصلاح بين المسلمين.

٦ – مربد البصرة: كانت تقام فيه سوق الإبل، ثم صارت تكون فيه مفاخرات الشعراء ومجالس الخطباء.

٧ – بين أنصار قادة الجمل وبين أنصار عليٍّ.

ولا يُنصِتُونَ، فقالَ «أُف، أُف. فَرَاشَ نار، وذُبابُ طَمَع». وانْقَلَبُوا على غيرِ بَيانٍ وانْحَدَروا إلى بَني نَهْدٍ[١]، فرَماهمُ الناسُ بالحِجارةِ حتى نَزَلُوا الجَبَلَ[٢].

والْتَقى طلْحةُ والزُّبَيْر وعُثمانُ بنُ حنيفٍ - عاملُ عليٍّ على البصْرةِ - وكَتَبُوا بينهم أنْ يَكُفّوا عنِ القتالِ، ولِعُثمانَ[٣] دارُ الإمارةِ والمسجدُ وبيتُ المالِ، وأنْ يَنْزِلَ طلحةُ والزُّبَيْر مِنَ البصرةِ حيثُ شاءا، ولا يَعْرِضُ بعضُهم لبعضٍ حتّى يَقْدُمَ عليٌّ.

ورُوِيَ أنَّ حَكيمَ بنَ جَبَلَةَ عارَضَهم حينئذٍ فقُتِلَ بعدَ الصُّلْحِ. وقَدِمَ عليٌّ البَصْرةَ، وتَدانَوَا ليَتَراءَوا، فلمْ يَتْرُكْهم أصحابُ الأَهْواءِ وبادَرُوا بإراقةِ الدِّماءِ. واشْتَجَرتِ الحربُ. وكَثُرَتِ الغَوْغاءُ على البَوْغاءِ[٤]؛ كلُّ ذلك حتى لا يَقَعَ بُرْهان، ولا تَقِفَ الحالُ على بَيان، ويَخْفَى قَتَلَةُ عُثْمان، وإنَّ واحدًا في الجيشِ يُفْسِدُ تَدْبيرَه، فكيف بألفٍ!

---

١ - قبيلة نهد بن زيد القضاعية، ويعتبر العراق أحد مواطن قبيلة نهد قبل الإسلام إلى مجيء الإسلام، بل وكثير من تاريخ قبيلة نهد قبل الإسلام وفي صدره إلى تاريخ حقبة بني أمية كان مذكورا في العراق.

٢ - يعني قادة الجمل، ولما رأت عائشة ما يفعل أنصار عثمان بن حنيف انحدرت وانحدر أهل الميمنة مفارقين لابن حنيف حتى وقفوا في موضع آخر، ومال بعض الذين كانوا مع ابن حنيف إلى عائشة وبقي بعضهم مع عثمان بن حنيف (الطبري: ٥:١٧٥).

٣ - ابن حنيف.

٤ - الغوغاء والبوغاء هم رعاع الناس وسِفْلتهم، والعبارة كناية عن الفوضى واختلاط الأمور واضطرابها.

وقدْ رُويَ أنَّ مَرْوانَ لما وقَعَتْ عينُه في الاصْطِفافِ على طلحةَ قال: لا نَطْلُبُ أَثَراً بَعْدَ عَيْنٍ، ورَماهُ بِسَهْمٍ فقَتَلَه[١]. ومنْ يَعلَمُ هذا إلا علّامُ الغُيوبِ، ولم يَنْقِلْه ثَبْتٌ. وقدْ رُويَ أنه أصابَه سَهْمٌ بأمرِ مروانَ، لا أنَّه رَماه.

وقدْ خَرَجَ كَعْبُ بنُ سَوْرٍ[٢] بمُصْحَفٍ مَنْشورٍ بِيَدِهِ يُناشِدُ الناسَ ألّا يُريقُوا دِماءَهم، فأَصابَه سَهْمٌ غَرْبٌ[٣] فقَتَلَه. ولعلَّ طَلْحةَ مِثْلُه[٤]. ومَعْلومٌ أنَّه عندَ الفتنةِ وفي مَلْحَمةِ القتالِ يَتَمَكَّنُ أُولُو الإحَنِ والحُقودِ مِنْ حَلِّ العُرَى ونَقْضِ العُهودِ. وكانت آجالاً حَضَرَتْ، ومواعيدَ انْتُجِزَتْ[٥].

فإنْ قيلَ: لِمَ خَرَجَتْ عائشةُ رَضِيَ اللهُ عنها وقدْ قالَ صَلَّى اللهُ عليهِ وَسَلَّمَ لَهُنَّ في حَجَّةِ الوَداعِ «هذه ثمَّ ظُهورَ الحُصْرِ[٦]». قلْنا: (حَدِّث حديثَيْنِ امْرَأةْ فإنْ

---

١ – لماذا يقتله وقد خرج كل منهما في طلب قتلة عثمان ومصلحتهما واحدة؟

٢ – كعب بن سور الأزدي أول قضاة المسلمين على البصرة، ولاه أمير المؤمنين عمر.

٣ – حادّ يصيب هدفه.

٤ – أصابه سهم غرب.

٥ – يعني أجل طلحة ومن مات مثله. وقد رأى علي بن أبي طالب طلحةَ مُلقى في بعض الأودية، فنزل فمسح التراب عن وجهه، ثم قال: "عزيز عليَّ أبا محمد أن أراك مجدلًا في الأودية وتحت نجوم السماء. وقال: "ليتني مت قبل هذا اليوم بعشرين سنة". وقال أبو حبيبة مولى طلحة: دخلت أنا وعمران بن طلحة على عليٍّ بعد الجمل، فرحب بعمران وأدناه وقال: "إني لأرجو أن يجعلني الله وإياك من الذين قال فيهم: {وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ إِخْوَاناً عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ} الحافظ ابن عساكر ٧:٨٦-٨٧

٦ – الحصر جمع حصير، ولما حج ﷺ بنسائه قال: "إنما هذه الحجة ثم الْزَمْنَ ظهور الحصر" أي الزمن بيوتكن. وقيل هذه إشارة نبوية إلى أنه ﷺ ينعي لهنَّ نفسَه، وأنَّ هذه آخر حجة له ﷺ وليس فيه أمر منه بألا يزايلن الحصر

أَبَتْ فأربعةْ)[١]. يا عقولَ النِّسْوانِ ألم أعهدْ إليكم ألا تَرْوُوا أحاديثَ البُهْتانْ، وقدَّمْنا لكم على صِحَّةِ خُروجِ عائشةَ البُرهانْ[٢]، فلِمَ تقولونَ ما لا تَعلَمونَ؟ وتُكرِّرونَ ما وقَعَ الانفصالُ عنه كأنَّكم لا تَفْهمُونَ[٣]؟ {إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لاَ يَعْقِلُونَ}.

وأمّا الذي ذَكَرْتُم مِنَ الشَّهادَةِ على ماءِ الحَوْأَبِ[٤]، فقدْ بُؤتُم في ذِكْرِها بأَعْظمِ حَوْبٍ[٥]. ما كان قَطُّ شيءٌ كما ذَكَرْتُم، ولا قال النبيُّ صَلَّى اللّهُ عليهِ وَسَلَّمَ

إلى حج أو مصلحة أو إصلاح بين الناس، فاستشهاد أعداء الصحابة بهذا الحديث على المنع مطلقًا عدَّه القاضي ابن العربي من البهتان؛ لأنه استشهاد به لغير ما أراده النبي ﷺ. رواه أحمد وأبو داود.

١ – هذا مثل عربي، قال أبو عبيد في كتاب الأمثال: ومن أمثالهم في سوء السمع والإجابة: (حدِّثْ حديثينِ امرأةً، فإن لم تفهم فأربعةً) وهذا على سبيل السخرية. وبهذا المعنى أورد ابن العربي هذا المثل ليسخر ممن يرْوون حديثاً ويفسرونه على غير المراد، إما عمداً وإما جهلاً، فقد استشهدوا بحديث «هذه ثم ظهور الحصر» وأوهموا أن المراد به الأمر بالمنع من الخروج مطلقًا. لذا فقد وصفهم ابن العربي بالنسوان، كهذه المرأة المذكورة في المثل ولا تفهم إذا كررتَ لها الكلام مرتين أو عشر مرات.

٢ – لما بعث علي بن أبي طالب عمار بن ياسر والحسن بن علي إلى الكوفة إذ خرجت أم المؤمنين إلى البصرة، فلما أتياها اجتمع إليهما الناس في المسجد، فخطبهم عمار، وذكر لهم خروج عائشة أم المؤمنين إلى البصرة ثم قال لهم: ((إني أقول لكم، ووالله إني لأعلم أنها زوجة رسول الله كما هي زوجته في الدنيا، ولكن الله ابتلاكم بها لتطيعوها أو لتطيعوه)) فقال له مسروق (ابن الأجدع الهمداني) أو أبو الأسود (الدؤلي): ((يا أبا اليقظان فنحن مع من شهدت له بالجنة دون من لم تشهد له)) فسكت عمار.

٣ – يعني لماذا تعودون إلى ما انتهينا منه ووضحناه بما فيه الكفاية؟

٤ – يعني ما رواه الخصوم من شهادة طلحة والزبير لعائشة بأن هذا ليس ماء الحوأب، لكي يجعلوها تكمل معهم. فهذه الشهادة لم يأت خبر صحيح بأنها كانت.

٥ – يعني رجعتم منها بذنب عظيم واستوجبتم غضب الله عليكم.

ذلكَ الحديثَ[١]، ولا جَرَى ذلكَ الكلامُ، ولا شِهِدَ أحدٌ بشهادَتِهِم، وقدْ كُتِبَتْ شهاداتُكم بهذا الباطلِ وسوفَ تُسألون[٢].

١ – بل هو حديث صحيح، فقد قال قَيْسُ بْنُ أَبِي حَازِمٍ: " لَمَّا بَلَغَتْ عَائِشَةُ بَعْضَ مِيَاهِ بَنِي عَامِرٍ لَيْلًا نَبَحَتِ الْكِلَابُ عَلَيْهَا، فَقَالَتْ: أَيُّ مَاءٍ هَذَا؟ قَالُوا: مَاءُ الْحَوْأَبِ، فَوَقَفَتْ فَقَالَتْ: مَا أَظُنُّنِي إِلَّا رَاجِعَةً، فَقَالَ لَهَا طَلْحَةُ وَالزُّبَيْرُ: مَهْلًا رَحِمَكِ اللَّهُ، بَلْ تَقْدَمِينَ، فَيَرَاكِ الْمُسْلِمُونَ، فَيُصْلِحُ اللَّهُ ذَاتَ بَيْنِهِمْ، قَالَتْ: مَا أَظُنُّنِي إِلَّا رَاجِعَةً، إِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ لَنَا ذَاتَ يَوْمٍ: (كَيْفَ بِإِحْدَاكُنَّ تَنْبَحُ عَلَيْهَا كِلَابُ الْحَوْأَبِ) ".
والحديث: صححه ابن كثير في "البداية والنهاية" (٢١٢/٦) على شرط الشيخين، وكذا صححه محققو المسند، والألباني في "الصحيحة" (٤٧٤) على شرط الشيخين. وصححه الذهبي في "السير" (٤٥٣/٣) والحافظ ابن حجر في "الفتح" (٥٥/١٣) وقال: "وسنده على شرط الصحيح" وقال الهيثمي في "المجمع" (٧/ ٢٣٤): "رَوَاهُ أَحْمَدُ، وَأَبُو يَعْلَى، وَالْبَزَّارُ، وَرِجَالُ أَحْمَدَ رِجَالُ الصَّحِيحِ". ورواه الضياء في "المختارة" (١٧٩) والبزار – كما في "البداية والنهاية" (٢١٢/٦) عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ وهو عند أزواجه: (لَيْتَ شِعْرِي، أَيَّتُكُنَّ صَاحِبَةُ الْجَمَلِ الْأَدْبَبِ، تَخْرُجُ فَيَنْبَحُهَا كِلَابُ حَوْأَبٍ، يُقْتَلُ عَنْ يَمِينِهَا وَعَنْ يَسَارِهَا قَتْلَى كَثِيرٌ، ثُمَّ تَنْجُو بَعْدَمَا كَادَتْ). وقال الحافظ في "الفتح" (٥٥/١٣): "رجاله ثقات"، وكذا قال الهيثمي في "المجمع" (٢٣٤/٧)، وصححه الألباني في "الصحيحة" (٨٥٣/١).

٢ – **تحقيق علمي لمسألة الحوأب**

كتب الأستاذ محب الدين الخطيب تحت العنوان السابق ما يأتي:

وبمناسبة الكلام على حديث الحوأب، لا بد لنا من التصريح بأن خروج عائشة رضي الله عنها كان اجتهادًا منها لتحقيق غاية طلحة والزبير، والتعاون مع عليٍّ رضي الله عنه من أجل إطفاء الفتنة والقضاء على المنافقين والمفسدين من قتلة عثمان رضي الله عنهم جميعًا. وقد جاء في كتاب التحفة الإثنى عشرية في رد المطاعن في حق أم المؤمنين وحبيبة حبيب رب العالمين عائشة الصديقة وزوج مفخرة العوالم على الحقيقة. منها أنها خرجت من المدينة إلى مكة، ومنها إلى البصرة، ومعها ما يزيد على ستة عشر ألف رجل من العسكر. وقد قال تعالى في الأزواج المطهرات: {وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الأُولَى} فأمرهن بالسكون في البيوت، ونهاهن عن الخروج من بيوتهن.
والجواب: أن الأمر باستقرارهن في البيوت والنهي عن الخروج منها ليس بمطلق، ولو كان مطلقًا لما أخرجهن رسول الله ﷺ بعد نزول الآية إلى الحج والعمرة والغزوات، ولا رخص بهن بزيارة الوالدين وعيادة المريض وتعزية أقاربهن.

والـلازم باطل، فكذا الملزوم. والمراد من هذا الأمر والنهي تأكيد التستر والحجاب، بأن لا يدرن ولا يتسكعن في الطرق كنساء العوام.

وما طعن به أعداء الله على أم المؤمنين رضي الله عنها وُجِد في فاطمة رضي الله عنها لِمَا ثبت في كتبهم بطريق التواتر أن الأمير – عليًّا – قد أركب فاطمة على مطية وطاف بها في محلات المدينة ومساكن الأنصار طالبًا منهم الإعانة على ما غصب من حقها في خلافة أبي بكر رضي الله عنه، وذلك بناء على رواية الخصوم.

ولما ظهر عليٌّ رضي الله عنه جاء إلى أم المؤمنين رضي الله عنها فقال: "غفر الله لك"، قالت: "ولك، ما أردت إلا الإصلاح".

ثم أنزلها دار عبد الله بن خلف، وهي أعظم دار في البصرة على سنية بنت الحارث أم طلحة الطلحات، وزارها ورحبت به وبايعته وجلس عندها.

فقال رجل: يا أمير المؤمنين إن بالباب رجلين ينالان من عائشة، فأمر القعقاع بن عمرو أن يجلد كل منهما مئة جلدة وأن يجردهما من ثيابهما ففعل. "الطبري: ٥:٢٢٣" ولما أرادت الخروج من البصرة بعث إليها بكل ما ينبغي من مركب وزاد ومتاع وأرسل معها أربعين امرأة وسير معها أخاها محمدًا.

ولما كان اليوم الذي ارتحلت فيه جاء عليٌّ رضي الله عنه فوقف على الباب وخرجت من الدار في الهودج، فودعت الناس ودعت لهم وقالت: "يا بَنِيَّ، لا يغتب بعضكم بعضًا، إنه والله ما كان بيني وبين علي بن أبي طالب رضي الله عنه في القديم إلا ما يكون بين المرأة وأحمائها، وإنه لمن الأخيار"، فقال عليٌّ رضي الله عنه:

"صدقت، والله ما كان بيني وبينها إلا ذلك، وإنها زوجة نبيكم صلى الله عليه وآله وسلم في الدنيا والآخرة، وسار معها مودعا أميالًا سرح بيته معها بقية ذلك اليوم.

أما خروج عائشة رضي الله عنها فهو اجتهاد منها لتحقيق غاية طلحة والزبير، والتعاون مع علي من أجل إطفاء الفتنة والقضاء على المنافقين من قتلة عثمان رضي الله عنهم جميعا. (التحفة: ص ٢٦٠-٢٦٨، ٢٧٥، ٢٧٦ باختصار). فأين هذه البراءة مما زعمه بعض المفترين بأن خروج عائشة رضي الله عنها يوم الجمل كان انتقامًا من عليٍّ رضي الله عنه من أنه حض الرسول ﷺ على طلاقها في حادثة الإفك لما رأى من حزنه من كلام بعض الناس. وقد قال غير واحد أنها اجتهدت، ولكنها أخطأت في الاجتهاد، ولا إثم على المجتهد المخطئ، بل له أجر على اجتهاده، وكونها رضي الله تعالى عنها من أهل الاجتهاد مما لا ريب فيه.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى:

إن عائشة لم تقاتل، ولم تخرج لقتال، وإنما خرجت بقصد الإصلاح بين المسلمين، وظنت أن في خروجها مصلحة للمسلمين، ثم تبين لها فيما بعد أن ترك الخروج كان أولى، فكانت كلما ذكرت تبكي حتى تبل خمارها، وهكذا

عامة السابقين ندموا على ما دخلوا فيه من القتال، فندم طلحة والزبير رضي الله عنهم أجمعين، ولم يكن لهؤلاء قصد في القتال، ولكن وقع القتال بغير اختيارهم. (المنتقى صـ ٢٢٣). انتهى كلام محب الدين الخطيب.

والحاصل:

أنه لما وقعت الفتنة بعد مقتل عثمان رضي الله عنه، واختلف الناس، خرجت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها للإصلاح بينهم، فلما وصلت إلى هذا المكان الذي يسمى "الحوأب" نبحتها الكلاب، فلما سألت عن اسم المكان فأخبروها تذكرت حديث رسول الله ﷺ الذي يخبر فيه عن إحدى زوجاته أنها تنبحها كلاب الحوأب، وأنه يقتل حولها قتلى كثير، وتنجو هي بعد أن كادت ألا تنجو، وفي هذا خبر عن حصول الفتنة ووقوع المقتلة بين المسلمين. فعزمت على الرجوع إذ لا يحسن بها أن تكون طرفا في الفتنة أو سببا في المقتلة من قريب أو بعيد، فألحوا عليها في مواصلة السير عسى الله أن يصلح بها بين الناس، فكان ما كان.

وقد ثبت عنها رضي الله عنها بعد ذلك أنها ندمت على هذا الخروج.

قال الذهبي رحمه الله:

" روى إِسْمَاعِيْلُ بنُ أَبِي خَالِدٍ، عَنْ قَيْسٍ قَالَ: قَالَتْ عَائِشَةُ وَكَانَتْ تُحَدِّثُ نَفْسَهَا أَنْ تُدْفَنَ فِي بَيْتِهَا، فَقَالَتْ: إِنِّي أَحْدَثْتُ بَعْدَ رَسُوْلِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَدَثاً، ادْفِنُوْنِي مَعَ أَزْوَاجِهِ فَدُفِنَتْ بِالبَقِيْعِ - رَضِيَ اللهُ عَنْهَا.

وهي تَعْنِي بِالحَدَثِ: مَسِيْرَهَا يَوْمَ الجَمَلِ؛ فَإِنَّهَا نَدِمَتْ نَدَامَةً كُلِّيَّةً وَتَابَتْ مِنْ ذَلِكَ، عَلَى أَنَّهَا مَا فَعَلَتْ ذَلِكَ إِلَّا مُتَأَوِّلَةً قَاصِدَةً لِلْخَيْرِ، كَمَا اجْتَهَدَ طَلْحَةُ بنُ عُبَيْدِ اللهِ وَالزُّبَيْرُ بنُ العَوَّامِ وَجَمَاعَةٌ مِنَ الكِبَارِ رَضِيَ اللهُ عَنِ الجَمِيْعِ". انتهى من "سير أعلام النبلاء" (٣/ ٤٦٢).

وقال الزيلعي رحمه الله: =

= "وَأَجْمَعُوا عَلَى أَنَّ عَلِيًّا كَانَ مُصِيبًا فِي قِتَالِ أَهْلِ الْجَمَلِ وَهُمْ: طَلْحَةُ وَالزُّبَيْرُ وَعَائِشَةُ وَمَنْ مَعَهُمْ، وَأَهْلُ صِفِّينَ، وَهُمْ: مُعَاوِيَةُ وَعَسْكَرُهُ، وَقَدْ أَظْهَرَتْ عَائِشَةُ النَّدَمَ، كَمَا أَخْرَجَهُ ابْنُ عَبْدِ الْبَرِّ فِي كِتَابِ الِاسْتِيعَابِ عَنْ ابْنِ أَبِي عَتِيقٍ، وَهُوَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ، قَالَ: قَالَتْ عَائِشَةُ لِابْنِ عُمَرَ: يَا أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ، مَا مَنَعَكَ أَنْ تَنْهَانِي عَنْ مَسِيرِي؟! قَالَ: رَأَيْت رَجُلًا غَلَبَ عَلَيْك - يَعْنِي ابْنَ الزُّبَيْرِ- فَقَالَتْ: أَمَا وَاَللَّهِ لَوْ نَهَيْتَنِي مَا خَرَجْت". انتهى من "نصب الراية" (٤/ ٦٩).

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله:

" وَأَمَّا الْحَدِيثُ الَّذِي رَوَاهُ وَهُوَ قَوْلُهُ لَهَا: (تُقَاتِلِينَ عَلِيًّا وَأَنْتِ ظَالِمَةٌ لَهُ) فَهَذَا لَا يُعْرَفُ فِي شَيْءٍ مِنْ كُتُبِ الْعِلْمِ الْمُعْتَمَدَةِ، وَلَا لَهُ إِسْنَادٌ مَعْرُوفٌ، وَهُوَ بِالْمَوْضُوعَاتِ الْمَكْذُوبَاتِ أَشْبَهُ مِنْهُ بِالْأَحَادِيثِ الصَّحِيحَةِ، بَلْ هُوَ كَذِبٌ قَطْعًا، فَإِنَّ عَائِشَةَ لَمْ تُقَاتِلْ وَلَمْ تَخْرُجْ لِقِتَالٍ، وَإِنَّمَا خَرَجَتْ لِقَصْدِ الْإِصْلَاحِ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ، وَظَنَّتْ أَنَّ فِي خُرُوجِهَا مَصْلَحَةً لِلْمُسْلِمِينَ، ثُمَّ تَبَيَّنَ لَهَا فِيمَا بَعْدُ أَنْ تَرْكَ الْخُرُوجِ كَانَ أَوْلَى، فَكَانَتْ إِذَا ذَكَرَتْ خُرُوجَهَا تَبْكِي حَتَّى تَبُلَّ

قاصمة (بالحرب بين عليٍّ ومُعاوِيَة)

ودارتِ الحَرْبُ بينَ أهلِ الشّامِ وأهلِ العراقِ[١]: هؤلاءِ يَدْعُونَ إلى عليٍّ بالبيعةِ وتأليفِ الكلمةِ على الإمامِ، وهؤلاءِ يَدْعُونَ إلى التَّمْكينِ عنْ قَتَلةِ عثمانَ ويَقولونَ: لا نُبايعُ مَنْ يُؤْوِي القَتَلَةَ[٢]. وعليٌّ يقولُ لا أُمَكِّنُ طالباً مِنْ مَطلوبٍ

خِمَارَهَا. وَهَكَذَا عَامَّةُ السَّابِقِينَ نَدِمُوا عَلَى مَا دَخَلُوا فِيهِ مِنَ الْقِتَالِ، فَنَدِمَ طَلْحَةُ وَالزُّبَيْرُ وَعَلِيٌّ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ - أَجْمَعِينَ، وَلَمْ يَكُنْ يَوْمَ الْجَمَلِ لِهَؤُلَاءِ قَصْدٌ فِي الِاقْتِتَالِ. وَلَكِنْ وَقَعَ الِاقْتِتَالُ بِغَيْرِ اخْتِيَارِهِمْ، فَإِنَّهُ لَمَّا تَرَاسَلَ عَلِيٌّ وَطَلْحَةُ وَالزُّبَيْرُ، وَقَصَدُوا الِاتِّفَاقَ عَلَى الْمَصْلَحَةِ، وَأَنَّهُمْ إِذَا تَمَكَّنُوا طَلَبُوا قَتَلَةَ عُثْمَانَ أَهْلَ الْفِتْنَةِ، وَكَانَ عَلِيٌّ غَيْرَ رَاضٍ بِقَتْلِ عُثْمَانَ وَلَا مُعِينًا عَلَيْه، كَمَا كَانَ يَحْلِفُ فَيَقُولُ: وَاللَّهِ مَا قَتَلْتُ عُثْمَانَ وَلَا مَالَأْتُ عَلَى قَتْلِهِ، وَهُوَ الصَّادِقُ الْبَارُّ فِي يَمِينِهِ، فَخَشِيَ الْقَتَلَةُ أَنْ يَتَّفِقَ عَلِيٌّ مَعَهُمْ عَلَى إِمْسَاكِ الْقَتَلَةِ، فَحَمَلُوا عَلَى عَسْكَرِ طَلْحَةَ وَالزُّبَيْرِ، فَظَنَّ طَلْحَةُ وَالزُّبَيْرُ أَنَّ عَلِيًّا حَمَلَ عَلَيْهِمْ، فَحَمَلُوا دَفْعًا عَنْ أَنْفُسِهِمْ، فَظَنَّ عَلِيٌّ أَنَّهُمْ حَمَلُوا عَلَيْهِ، فَحَمَلَ دَفْعًا عَنْ نَفْسِهِ، فَوَقَعَتِ الْفِتْنَةُ بِغَيْرِ اخْتِيَارِهِمْ، وَعَائِشَةُ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا - رَاكِبَةٌ: لَا قَاتَلَتْ، وَلَا أَمَرَتْ بِالْقِتَالِ، هَكَذَا ذَكَرَهُ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنْ أَهْلِ الْمَعْرِفَةِ بِالْأَخْبَارِ". انتهى من "منهاج السنة" (٣١٦/٤-٣١٧).

١ - عند (صفِّين) بقرب الرقة على شاطئ الفرات آخر تخوم العراق وأول أرض الشام.

٢ - لَمّا انتهى عليٌّ من حرب الجمل وسار من البصرة إلى الكوفة فدخلها يوم الاثنين ١٢ من رجب، أرسل جرير بن عبد الله البجلي إلى معاوية في دمشق يدعوه إلى طاعته. فجمع معاوية رؤوس الصحابة وقادة الجيوش وأعيان أهل الشام واستشارهم فيما يطلب علي، فقالوا: لا نبايعه حتى يقتل قتلة عثمان، أو يسلمهم إلينا. فرجع جرير إلى علي بذلك، فاستخلف علي على الكوفة أبا مسعود عقبة بن عامر وخرج منها فعسكر بالنخيلة أول طريق الشام من العراق، وقد أشار عليه ناس بأن يبقى في الكوفة ويبعث غيره إلى الشام فأبى. وبلغ معاوية أن عليا تجهز وخرج بنفسه لقتاله فأشار عليه رجاله أن يخرج هو أيضا بنفسه، فخرج الشاميون نحو الفرات من ناحية صفين، وتقدم علي بجيوشه إلى تلك الجهة. وكان جيش علي في مائة وعشرين ألفا وجيش معاوية في تسعين ألفا، وبدأ القتال في ذي الحجة سنة ٣٦ بمناوشات ومبارزات، ثم تهادنوا في المحرم سنة ٣٧ واستؤنف القتال بعده، وقتل في هذه الحرب سبعون ألفا، وكانت الوقائع ٩٠ وقعة في ١١٠ أيام، وامتازت هذه الحرب بنبل الشجاعة في القتال، ونبل التعامل والاتصال عند التهادن والراحة. ثم كتب التحكيم يوم ١٣ صفر سنة ٣٧ على أن يعلن الحكمان حكمهما في رمضان بدومة الجندل بمكان منها يسمى أذرح.

يُنَفِّذُ فيه مُرادَه بغيرِ حُكْمٍ ولا حاكمٍ. ومُعاوِيَةُ يقولُ: لا نُبايِعُ مُتَهَماً بقَتْلِه أو قاتِلاً له، وهو أَحَدُ مَنْ يُطْلَبُ فكيفَ نُحَكِّمُه أو نُبايِعُه، وهو خَليفَةُ عَدَاءٍ وتَسَوُّرٍ.

وذَكَروا في تَفاصيلِ ذلكَ كلماتٍ آلَتْ إلى اسْتِفعالِ رَسائلَ[1] واسْتِخراجِ أقوالٍ وإنشاءِ أَشْعارٍ وضَرْبِ أَمثالٍ تَخْرُجُ عنْ سيرةِ السَّلَفِ، يُقِرُّها الخَلْفُ ويَنْبُذُها الخَلَفُ[2].

عاصمة (بالحق مع عليّ)

أمّا وجودُ الحرْبِ بينَهم فمَعلومٌ قطْعاً، وأما كَونُه بهذا السببِ فمعلومٌ كذلكَ قطْعاً[3]، وأمّا الصَّوابُ فيه فمَعَ عليٍّ، لأنَّ الطالبَ للدَّمِ لا يَصِحُّ أنْ يُحَكَّمَ، وتُهْمَةُ الطالبِ للقاضِي لا توجِبُ عليه أنْ يَخْرُجَ عليه، بلْ يَطْلُبُ الحقَّ عندَه، فإنْ ظَهَرَ له قَضاءٌ وإلا سَكَتَ وَصبَرَ، فكمْ مِنْ حَقٍّ يَحْكُمُ اللهُ فيه. وإنْ لم يَكُنْ له دِينٌ فحينئذٍ يخرجُ عليه، فيقومُ له عُذرٌ في الدُّنيا[4].

---

١ – أي اختراعها زوراً وكذباً ولا أصل لها.

٢ – الخَلْف بفتح الخاء وسكون اللام: الفاسد الطالح. وفي التنزيل {فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الأَدْنَى}. والخَلَف بفتح الخاء واللام: اللاحق الصالح. ومنه الحديث "يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله، ينفون عنه تحريف الغالين، وانتحال المبطلين، وتأويل الجاهلين. وهم علماء الحديث محاربو المبتدعة

٣ – يعني المطالبة بقتلة عثمان.

٤ – قال الأستاذ محب الدين الخطيب رحمه الله: وجود قتلة عثمان في معسكر علي حقيقة لا يماري أحد فيه، بل إن الأشتر، وهو من رؤوس البغاة على عثمان كان أكبر مسعر للحرب بين أصحاب رسول الله ﷺ الذين في

ولئنِ اتُّهِم عليٌّ بقتلِ فليس في المدينةِ أحدٌ مِنَ أصحابِ النبيِّ صَلَّى اللهُ عليهِ وَسَلَّمَ إلا وهو مُتَّهَمٌ به، أو قُلْ مَعلومٌ قَطْعاً أنَّه قَتَلَه لأنَّ أَلْفَ رَجُلٍ جاءوا لقتلِ عثمانَ لا يَغْلِبون أربعينَ ألفاً[١].

معسكر علي والذين في معسكر معاوية، ولما طالب علي معاوية ومن معه من الصحابة والتابعين أن يبايعوه احتكموا إليه في قتلة عثمان، وطلبوا منه أن يقيم حد الله عليهم، أو أن يسلمهم إليهم، فيقيموا عليهم حد الله، وقد اعتذرنا عن أمير المؤمنين علي بأن قتلة عثمان لما صاروا مع علي في العراق صاروا في معقل قوتهم وعنجهية قبائلهم، فكان علي يرى – بينه وبين نفسه – أن قتلهم يفتح عليه بابًا لا يستطيع سده بعد ذلك. وقد انتبه لهذه الحقيقة الصحابي الجليل القعقاع بن عمرو التميمي، وتحدث بها مع أم المؤمنين عائشة وصاحبي رسول الله ﷺ طلحة والزبير، فأذعنوا لها وعذروا عليًّا، ووافقوا على التفاهم معه على ما يوصلهم إلى الخروج من هذه الفتنة، فما لبث قتلة عثمان أن أنشبوا الحرب بين الفريقين، فالمطالبون بإقامة حد الله على قتلة عثمان معذورون لأنهم يطالبون بحق، سواء كانوا من أصحاب الجمل، أو من أهل الشام. وتقصير علي في إقامة حد الله كان عن ضرورة قائمة ومعلومة، ولكن إذا كانت حرب البصرة ناشئة عن إنشاب قتلة عثمان الحرب بين الفريقين الأولين، فقد كان من مصلحة الإسلام ألا تنشب حرب صفّين بين الفريقين الآخرين، وكان سبط رسول الله ﷺ الحسن بن علي كارهًا خروج أبيه من المدينة إلى العراق لما يخشاه من نشوب الحرب مع أهل الشام، ولو أن عليًّا لم يتحرك من الكوفة استعدادًا لهذا القتال لما حرك معاوية فيه ساكنًا، قال شيخ الإسلام ابن تيمية في منهاج السنة ٢١٩:٢: "لم يكن معاوية ممن يختار الحرب ابتداء"، ومع ذلك فإن هذه الحرب المثالية هي الحرب الإنسانية الأولى في التاريخ التي جرى فيها المتحاربان معًا على مبادئ الفضائل التي يتمنى حكماء الغرب لو يعمل بها في حروبهم، ولو في القرن الحادي والعشرين، وأن كثيرًا من قواعد فقه الحرب في الإسلام لم تكن لتعلم وتدون لولا وقوع هذه الحرب، ولله في كل أمر حكمة.

١ – ليس في أهل السنة رجل واحد يتهم عليًّا بقتل عثمان، لا في زماننا ولا في زمانه، وقد مضى الكلام على ذلك في هذا الكتاب، وكل ما في الأمر وجود قتلة عثمان مع عليٍّ، وموقف عليٍّ منهم، وعذره بينه وبين الله في موقفه هذا. (الخطيب).

وهبْكَ أنَّ عَليّاً وطَلْحَةَ والزُّبَيْر تَضافَرُوا[١] على قتْلِ عثمانَ، فباقي الصَّحابةِ مِنَ المهاجِرينَ والأنْصارِ ومَنِ اعْتُدَّ فيهم وضَوَى إليهم ماذا صَنَعُوا بالقعودِ عن نُصْرتِهِ؟[٢]

فلا يَخْلو أنْ يكونَ لأنَّهم رَأَوا أولئكَ طَلَبوا حَقّاً وفَعَلوا حَقّاً، فهذه شَهادةٌ قائمةٌ على عثمانَ فلا كلامَ لأهلِ الشامِ.

وإنْ كانوا قَعَدُوا عنه استهزاءً بالدِّينِ، وأنَّهم لم يَكُنْ لهم رأيٌ[٣] في الحالِ، ولا مبالاةٌ عندَهم بالإسلامِ ولا فيما يَجْري فيه مِنَ اختلالٍ، فهي رِدَّةٌ وليستْ مَعصيةً؛ لأنَّ التَّهاوَنَ بحدودِ الدِّينِ، وإسلامَ حُرُماتِ الشَّريعةِ للتَّضْييعِ كُفْرٌ. وإنْ كانوا قَعَدُوا لأنَّهم لم يَرَوا أنْ يَتَعَدَّوا حَدَّ عثمانَ وإشارَتَه فأيُّ ذَنْبٍ لهم فيه؟ وأيُّ حُجَّةٍ لمروانَ؟ وعبدُ اللهِ بنُ الزُّبَيْر والحسنُ والحُسَيْن وابنُ عُمَر وأعيانُ العَشَرَةِ معه في دارِهِ يَدْخُلون إليه ويَخْرُجونَ عنه في الشِّكَّةِ والسِّلاحِ والمطالِبونَ يَنْظرونَ.

---

١ - اتفقوا.

٢ - بدءاً من هذا الموضع عند (عاصمة) هناك اضطراب في عبارات المؤلف يظهر في غموض المعنى، والدليل وجود اختلافات واضحة بين الطبعات وبخاصة بين طبعة الخطيب وطبعة دار الجيل. وسوف يستمر هذا الاضطراب خلال هذه الـ (عاصمة).

٣ - في طبعة دار الجيل (رأس مال) بدل (رأي).

ولو كانَ لهمْ بهمْ قُوَّةٌ أو أَوَوا إلى رُكنٍ شَديدٍ لَمَا مَكَّنُوا أحداً أنْ يَراه منهم ولا يَدخُلُه، وإنما كانوا نَظّارةً، فلو قامَ في وجوهِهمُ الحَسَنُ والحُسَيْنُ وعبدُ اللهِ بنُ عُمَرَ وعبدُ اللهِ بنُ الزُّبَيْر ما جَسَروا، ولو قَتَلُوهم ما بَقِيَ على الأرضِ منهم حيٌّ. ولكنَّ عثمانَ سَلَّمَ نَفْسَه، فتُرِكَ ورَأْيَه. وهي مسألةُ اجتهادٍ كما قدَّمنا.

وأيُّ كلامٍ كان يكونُ لعليٍّ - لَمّا تمَّتْ له البيعةُ[1] - لو حَضَرَ عندَه وَلِّيُّ عثمانَ وقالَ له: إنَّ الخليفةَ قدْ تمالَأَ[2] عليه ألفُ نَسَمَةٍ حتى قتلُوه، وهمْ مَعْلومونَ، ماذا كان يقولُ إلا: أَثْبِتْ وخُذْ، وفي يومٍ كان يُثبتْ إلا أنْ يُثْبِتوا همْ أنَّ عثمانَ كان مُسْتحِقّاً للقتلِ.

وباللهِ لَتَعْلَمُنَّ يا مَعْشَرَ المسلمينَ أنَّه ما كان يَثْبُتُ على عثمانَ ظُلْمٌ أبداً، وكان يكونُ الوقتُ أَمْكَنَ للطالبِ، وأَرْفَقَ في الحالِ، وأَيْسَرَ وصولاً إلى المطلوبِ.

والذي يَكْشِفُ الغِطاءَ في ذلكَ أنَّ مُعاوِيَةَ لَمّا صارَ إليه الأمرُ لم يُمْكِنْه أنْ يَقْتُلَ مِنْ قَتَلَةِ عثمانَ أَحَداً إلا بحُكْمٍ، إلا مَنْ قُتِلَ في حَرْبٍ بِتَأْويلٍ، أو دُسَّ

---

١ - في نسخة دار الجيل: لو كتبت عنده البيعة.

٢ - في نسخة دار الجيل: وقال الخليفة له: "يا أيها" وما تمالأ. وهي أيضاً غير مفهومة.

عليه فيما يقالُ. حتى انْتَهى الأمرُ إلى زمانِ الحَجّاجِ، وهمْ يَقْتُلونَ بالتُّهْمَةِ لا بالحقيقةِ. فتبَيَّنَ لكمْ أنَّهم ما كانوا في مُلْكِهِم يَفْعَلونَ ما أَضْحَوا له يَطْلُبونَ[1].

والذي تَثْلَجُ به صُدورُكم أنَّ النبيَّ صَلَّى اللهُ عليهِ وَسَلَّمَ ذَكَرَ في الفِتَنِ وأشارَ وبيَّنَ وأَنذَرَ بالخوارجِ[2] وقالَ «تَقْتُلُهم أَدْنى الطّائفَتينِ إلى الحقِّ»[3]. فبَيَّنَ أنَّ كلَّ طائفةٍ منهما تَتَعلَّقُ بالحقِّ، ولكنَّ طائفةَ عليٍّ أدْنى إليه. وقالَ تَعالى {وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ}.

فلم يُخْرِجْهم عنِ الإيمانِ بالبَغْيِ بالتأويلِ، ولا سَلَبَهم اسْمَ الأُخُوَّةِ بقولِه بعدَه {إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ}.

---

١ - يعني أن المطالبين بدم عثمان لما صار لهم الْمُلك والأمر لم يجدوا دليلاً يُدينون به أحداً من قتلة عثمان إلا الظن وإن الظن لا يغني من الحق شيئاً.

٢ - الخوارج جماعة خرجوا على علي بن أبي طالب وصحبه؛ لأنه قبل بالتحكيم قائلين: إن حكم الله واضح لا يحتاج إلى هذا التحكيم، وكان شعارهم: "لا حكم إلا لله"، ويسمون أيضًا بالحرورية نسبة إلى قرية في الكوفة تسمى "حروراء" خرجوا إليها، وقد حاربهم أمير المؤمنين علي رضي الله عنه في الوقعة الشهيرة بوقعة "النهروان" وهزمهم، وقتل منهم كثيرًا، ولكنه لم يستطع إبادتهم، حتى دبروا له مكيدة قتله على يد عبد الرحمن بن ملجم.

٣ - في صحيح مسلم (ك١٢ ح١٥٠ ج٣ ص ١١٣) من حديث أبي سعيد الخدري: "تمرق مارقة عند فرقة من المسلمين يقتلها أولى الطائفتين بالحق".

وقالَ صَلَّى اللهُ عليهِ وَسَلَّمَ في عَمّارٍ: «تَقْتُلُه الفئةُ الباغيةُ»[١]. وقالَ في الحَسَنِ «ابْني هذا سَيِّدٌ، ولعلَّ اللهَ أنْ يُصْلِحَ به بينَ فِئتَينِ عَظيمَتينِ مِنَ المسلمينَ»، فحَسُنَ له خَلْعُه نَفْسَه وإصلاحُه.

وكذلكَ يُرْوَى أنَّه أَذِنَ – في الرُّؤيا – لعثمانَ في أنْ يَسْتَسْلِمَ ويُفْطِرَ عندَه الليلةَ.

فهذه كلُّها أمورٌ جَرَتْ على رَسْمِ النِّزاعِ، ولم تَخْرُجْ عنْ طريقٍ مِنْ طُرُقِ الفِقْهِ، ولا عَدَتْ سبيلَ الاجتهادِ الذي يُؤجَرُ فيه الْمُصيبُ عَشَرةً والمخْطِئُ أَجْراً واحِداً، وما وَقَعَ مِنْ رواياتٍ في كُتُبِ التاريخِ – عدا ما ذَكَرْنا – فلا تَلْتَفِتوا إلى حَرْفٍ منها، فإنها كلُّها باطلةٌ.

قاصمة (أقوال كاذبة عن التحكيم)

وقدْ تَحَكَّمَ الناسُ في التحكيمِ فقالُوا فيه ما لا يَرْضاهُ اللهُ. وإذا لَحَظْتُمُوه بِعَيْنِ الْمُروءةِ – دُونَ الدِّيانةِ – رأيتمْ أنها سَخافةٌ حَمَلَ على سَطْرِها في الكُتُبِ في الأكثرِ عَدَمُ الدِّين، وفي الأقلِّ جَهْلٌ مَتِين.

---

١ – لما كانوا يبنون المسجد، فكان الناس ينقلون لبنة لبنة، وعمار ينقل لبنتين لبنتين، فقال النبي ﷺ فيه هذه الكلمة (كتاب الجهاد والسير من صحيح البخاري).

والذي يَصِحُّ مِنْ ذلكَ ما رَوَى الأئمَّةُ كخَليفةِ بنِ خياطٍ[١]، والدَّارقُطْني[٢]: أنه لما خَرَجَ الطائفةُ العراقيةُ في مائةِ ألفٍ والشاميةُ[٣] في سَبعينَ أو تِسعينَ ألفاً ونَزَلوا على الفُراتِ بصِفّينَ، اقْتَتَلُوا في أوَّلِ يومٍ وهو الثلاثاءُ على الماءِ[٤]، فغَلَبَ أهلُ العراقِ عليه.

ثم الْتَقَوا يومَ الأربعاءِ لسَبْعٍ خَلَوْنَ مِنْ صَفَرٍ سَنَةَ سَبْعٍ وثلاثينَ، ويومَ الخميسِ ويومَ الجُمُعةِ وليلةَ السبتِ.

ورُفِعَتِ المصاحِفُ مِنْ أهلِ الشامِ ودَعَوْا إلى الصُّلْحِ[٥].

---

١ - الإمام الحافظ أبو عمرو خليفة بن خياط العصفري البصري أحد أوعية العلم، ومن شيوخ الإمام البخاري. قال عنه ابن عدي: هو صدوق مستقيم الحديث من متيقظي رواة السنة.

٢ – الإمام الحافظ أبو الحسن علي بن عمر الدارقطني (٣٠٦ – ٣٨٥) كان مع جلالته في الحديث من أئمة فقهاء الشافعية، وله تقدم في الأدب ورواية الشعر. وجاء من بغداد إلى مصر ليساعد ابن خنزابة وزير كافور على تأليف مسنده فبالغ الوزير في إجلاله. قال الحافظ عبد الغني بن سعيد (أحسن الناس كلامًا على حديث رسول الله ثلاثة: عليّ بن المديني في وقته، وموسى بن هارون القيسي في وقته، والدارقطني في وقته).

٣ – العراقية عليّ وجيشه والشامية معاوية وجيشه.

٤ – يعني ماء الفرات، ولم تكن الحرب على الماء جدية؛ فقد قال عمرو بن العاص يومئذ "ليس من الإنصاف أن نكون ريانين وهم عطاش"، فلم تكن نية أحد منهم حرمان الآخر من الماء.

٥ – عندما تسلم الخليفة الرابع علي بن أبي طالب الحكم، امتنع معاوية بن أبي سفيان وأهل الشام عن مبايعته خليفة للمسلمين حتى يقتص من قتلة الخليفة الثالث عثمان بن عفان، فأرسل علي بن أبي طالب، جرير بن عبد الله البجلي إلى معاوية بن أبي سفيان يدعوه للمبايعة، وعندما قدم جرير إلى الشام، استشار معاوية عمرو بن العاص السهمي، فأشار إليه بجمع أهل الشام والخروج نحو العراق للمطالبة بالقصاص من قتلة عثمان بن عفان.

المعركة

اليوم الأول الأربعاء ١ صفر ٣٧ هـ:

أخرج علي بن أبي طالب في اليوم الأول الأشتر النخعي على رأس مجموعة كبيرة من الجيش، وأخرج معاوية بن أبي سفيان، حبيب بن مسلمة مع مجموعة كبيرة من جيشه، ودارت الحرب بين الفريقين بشدة منذ الصباح وحتى المغرب، وقُتل الكثير من الفريقين، وكان قتالا متكافئًا.

اليوم الثاني الخميس ٢ صفر ٣٧ هـ:

وفي اليوم التالي، أخرج علي بن أبي طالب هاشم بن عتبة بن أبي وقاص أحد المجاهدين الذين لمعت أسماءهم كثيرًا في فتوح فارس والروم، وأخرج معاوية بن أبي سفيان أبا الأعور السلمي، ودار قتال شديد بين الجيشين، فتساقط القتلى من الفريقين دون أن تكون الغلبة لأحدهما.

اليوم الثالث الجمعة ٣ صفر ٣٧ هـ:

في اليوم الثالث خرج على جيش العراق عمار بن ياسر، وكان حينذاك قد تجاوز التسعين من عمره، وعلى جيش الشام عمرو بن العاص، وتقاتل الفريقان من الصباح حتى المغرب، ولم يتم النصر لأحد الفريقين على الآخر.

اليوم الرابع السبت ٤ صفر ٣٧ هـ:

في اليوم الرابع خرج على فريق علي بن أبي طالب محمد بن علي بن أبي طالب المسمّى محمد بن الحنفية، وعلى جيش الشام عبيد الله بن عمر بن الخطاب، ودار القتال بين الفريقين من الصباح إلى المساء، وسقط القتلى من الطرفين ثم تحاجزا، ولم تتم الغلبة لأحد على الآخر.

اليوم الخامس الأحد ٥ صفر ٣٧ هـ:

خلال اليوم الخامس، كان على فريق علي بن أبي طالب عبد الله بن عباس، وعلى الفريق الآخر الوليد بن عقبة، وتقاتل الفريقان طوال اليوم دون أن يحرز أحدهما النصر.

اليوم السادس الإثنين ٦ صفر ٣٧ هـ:

في اليوم السادس ولي على فريق العراق قيس بن سعد، وعلى جيش الشام شرحبيل بن ذي الكلاع، وكان هو في جيش معاوية، وقد قُتل والده ذو الكلاع الحميري في هذه المعركة، ودار قتال شديد بين الفريقين من الصباح إلى المساء، تساقط خلاله القتلى وكثر الجرحى دون أن تكون الغلبة لأحد الفريقين.

اليوم السابع الثلاثاء ٧ صفر ٣٧ هـ:

وفي اليوم السابع خرج للمرة الثانية كل من الأشتر النخعي على مجموعة من جيش العراق، وحبيب بن مسلمة على جيش الشام فكلاهما قائدا الجيشين خلال اليوم الأول كذلك.

وفي مساء هذا اليوم، تبين أن استمرار هذا الأمر، من إخراج فرقة تتقاتل مع الفرقة الأخرى دون أن يكون النصر لأحد سيأتي على المسلمين بالهلاك، ولن يحقق المقصود، وهو إنهاء هذه الفتنة، وكان علي بن أبي طالب يفعل ذلك ليجنّب المسلمين خطر التقاء الجيشين الكبيرين، ولئلا تُراق دماء كثيرة، فكان يخرج مجموعة من الجيش لعلها

أن تهزم المجموعة الأخرى، فيعتبروا ويرجعوا عما هم عليه من الخروج عليه، وكذلك كان معاوية بن أبي سفيان يخرّج مجموعة من جيشه فقط دون الجيش كله ليمنع بذلك إراقة دماء المسلمين. فقرر علي بن أبي طالب أن يخرج بجيشه كله لقتال جيش الشام، وكذلك قرر معاوية بن أبي سفيان، وبقي الجيشان طوال هذه الليلة يقرؤون القرآن ويصلون ويدعون الله أن يمكنهم من رقاب الفريق الآخر جهادًا في سبيل الله، ويدوّي القرآن في أنحاء المعسكرين، وبايع جيش الشام معاوية على الموت، فليس عندهم تردد فيما وصلوا إليه باجتهادهم، ويستعدون للقاء الله تعالى على الشهادة في سبيله، ومع أنهم يعلمون أنهم يقاتلون فريقًا فيه كبار الصحابة: علي بن أبي طالب، وعبد الله بن عباس، وغيرهم، إلا أنه كان معهم أيضًا الكثير من الصحابة: معاوية بن أبي سفيان، وعمرو بن العاص، وعبد الله بن عمرو بن العاص، وهو من أفقه الصحابة، ولم يكن يرغب على الإطلاق أن يقاتل في صف معاوية ولا في صف علي ولم يشترك في هذه المعركة إلا لأن الرسول صلى الله عليه وسلم كان قد أوصاه بألا يخالف أباه، وقد أمره أبوه عمرو بن العاص أن يشارك في القتال، فاشترك في الحرب، غير أنه لم يقاتل ولم يرفع سيفًا في وجه أحد من المسلمين.

اليوم الثامن الأربعاء ٨ صفر ٣٧ هـ:

وفي اليوم الثامن خرج علي بن أبي طالب بنفسه على رأس جيشه، كما خرج معاوية بن أبي سفيان على رأس جيشه، ودار بين المسلمين من الطرفين قتال عنيف وشرس، لم يحدث مثله من قبل، فهؤلاء هم الأسود الشجعان الذين قهروا دولة الروم ودولة الفرس، وثبت الفريقان لبعضهما ولم يفرّ أحد، ودار القتال من الصباح حتى العشاء، وتحاجز الفريقان بعد سقوط الكثير من القتلى والجرحى.

اليوم التاسع الخميس ٩ صفر ٣٧ هـ:

وفي اليوم التاسع صلّي علي بن أبي طالب الصبح، وخرج مباشرة لساحة القتال مستأنفًا من جديد، كان على ميمنة علي بن أبي طالب عبد الله بن بديل، وعلى ميسرته عبد الله بن عباس، فهجم عبد الله بن بديل على ميسرة معاوية بن أبي سفيان وعليها حبيب بن مسلمة، وأجبرهم عبد الله بن بديل على التوجه إلى القلب، وبدأ جيش علي في إحراز بعض من النصر، ويرى ذلك معاوية، فيوجه جيشه لسد هذه الثغرة، وينجح جيشه بالفعل في سد الثغرة ويردّون عبد الله بن بديل عن ميسرتهم، وقُتل في هذا اليوم خلق كثير، وانكشف جيش علي بن أبي طالب حتى وصل الشاميون إلى علي، فقاتل بنفسه قتالًا شديدًا، وتقول بعض الروايات إنه قتل وحده في هذه الأيام خمسمائة من الفريق الآخر.

بدأ جيش علي بن أبي طالب في الانكسار بعد الهجمة التي شنها عليها جيش معاوية بن أبي سفيان، فأمر علي بن أبي طالب الأشتر النخعي لينقذ الجانب الأيمن من الجيش، واستطاع بقوة بأسه وكلمته على قومه أن ينقذ الموقف، وأظهر بأسه وقوته وشجاعته في هذا الموقف، ورد الأمر إلى نصابه، واستطاعت ميمنة الجيش من السيطرة

وتَفَرَّقُوا على أنْ تَجْعَلَ كلُّ طائفةٍ أَمْرَها إلى رَجُلٍ حتى يَكونَ الرَّجلانِ يَحْكُمانِ بينَ الدَّعْوَيينِ بالحقِّ.

مرةً أخرى على أماكنها التي كانت قد انسحبت منها. وقتل في هذا اليوم عبد الله بن بديل وتكاد الكرة تكون على جيش علي، لولا أن ولّى علي على الميمنة الأشتر النخعي.

نتائج المعركة

لما رأى معاوية بن أبي سفيان انتصارات جيش علي على جيشه، وقد قرب منه القائد مالك الأشتر مع مجموعته، دعا عمرو بن العاص إلى خطّة للوقوف أمام هذه الانتصارات.

فقام عمرو بن العاص بخدعة، حيث دعا جيش معاوية إلى رفع المصاحف على أسنّة الرماح، ومعنى ذلك أنّ القرآن حكم بينهم، ليدعوا جيش علي إلى التوقف عن القتال ويدعون علياً إلى حكم القرآن.

وفعلاً جاء زهاء عشرين ألف مقاتل من جيش عليٍّ حاملين سيوفهم على عواتقهم، وقد اسودّت جباههم من السجود، يتقدّمهم عصابة من القرّاء الذين صاروا خوارج فيما بعد، فنادوه باسمه لا بإمرة المؤمنين: "يا علي، أجب القوم إلى كتاب الله إذا دُعيت، وإلاّ قتلناك كما قتلنا ابن عفّان، فوالله لنفعلنّها إن لم تجبهم" وكان علي في هذا الموقف أمام خيارين: فإما المضي بالقتال، ومعنى ذلك أنّه سيقاتل ثلاثة أرباع جيشه وجيش أهل معاوية. وإما القبول بالتحكيم وهو أقلّ الشرّين خطراً. فقبل علي بن أبي طالب التحكيم وترك القتال. فتعاهدوا على ذلك، واتفقوا على ألا ينقض أحد عهده، وأنهم سوف يذهبون لقتلهم، أو يموتون، وتواعدوا أن يقتلوهم شهر رمضان، وكتموا الأمر عن الناس جميعًا إلا القليل، ومن هؤلاء القليل من تاب وحدّث بهذا الأمر. وتوقف القتال وأذن عليٌّ بالرحيل إلى الكوفة، وتحرك معاوية بجيشه نحو الشام، وأمر كل منهما بإطلاق أسرى الفريق الآخر وعاد كل إلى بلده.

قُتل من الطرفين خلال المعركة سبعون ألف شهيد، فمن أصحاب معاوية بن أبي سفيان قتل خمسة وأربعون ألفاً، ومن أصحاب علي بن أبي طالب خمسة وعشرون ألفاً.

التحكيم

ذهب كل من الحكمين إلى كل فريق على حدة، وأخذا منهما العهود والمواثيق أنهما أي الحكمان آمنان على أنفسهما، وعلى أهليهما، وأن الأمة كلها عونٌ لهما على ما يريان، وأن على الجميع أن يطيع على ما في هذه الصحيفة، فأعطاهم القوم العهود والمواثيق على ذلك، فجلسا سويًا، واتفقا على أنهما يجلسان للحكم في رمضان من نفس العام، وكان حينئذ في شهر صفر سنة ٣٧ هـ.

فكانَ مِنْ جِهَةِ عليٍّ أبو مُوسى، ومن جهةِ مُعاوِيَةَ عَمْرو بنُ العاصِ.

وكان أبو موسى رجلاً ثَقِفاً[١] فقيهاً عالماً حسبما بيَّناهُ في كتابِ "سِراج الْمُريدينَ"[٢]، أرسله النبيُّ صَلَّى اللهُ عليهِ وَسَلَّمَ إلى اليَمَنِ مع مُعاذٍ، وقدَّمَه عُمَرُ وأَثْنى عليه بالفَهْمِ. وزَعَمَتِ الطائفةُ التاريخيَّةُ الرَّكيكةُ[٣] أنَّه كان أَبْلَهَ ضعيفَ الرأيِ مَخْدوعاً في القولِ، وأنَّ ابنَ العاصِ كان ذا دَهاءٍ وأَرْبٍ[٤] حتى ضُرِبَتِ الأمثالُ بدَهائه تأكيداً لِمَا أرادتْ مِنَ الفَسادِ[٥].

وتَبِعَ في ذلك بعضُ الجُهّالِ بَعضاً وصَنَّفُوا فيه حكاياتٍ، وغيرُه مِنَ الصَّحابةِ كان أَحْذَقَ منه وأَدْهى، وإنما بَنَوا على أنَّ عَمْراً لما غَدَرَ أبا موسى في قِصَّةِ التَّحْكيمِ صار له الذِّكر في الدَّهاء والفِكرِ.

وقالوا[٦] إنهما لَمّا اجْتَمَعا بأَذْرُحَ[٧] مِنْ دُومَةِ الجَنْدَلِ وتَفاوَضا اتَّفَقا على أنْ يَخْلَعا الرَّجُلَينِ. فقال عَمْرٌو لأبي موسى: اسْبِقْ بالقولِ. فتَقَدَّم فقال: إني

---

١ – يعني حاذق فطِن ذكي.

٢ – من مؤلفات أبي بكر بن العربي وهو في الزهد والتصوف السُّني، وتوجد منه نسخة بدار الكتب المصرية.

٣ – الرافضة أعداء الصحابة.

٤ – الأَرْبُ: الدَّهاءُ والفطنةُ والبَصَرُ بالأُمور.

٥ – المقصود الرافضة الذين روجوا ذلك تأكيداً لِمَا أرادتْ مِنَ الفَسادِ.

٦ – سوف يكذِّب المؤلف هذه الأقوال كلها في (العاصمة) الآتية ويفندها واحدة واحدة كعادته.

٧ – منطقة بين الأردن والسعودية.

نَظْرتُ فخَلَعْتُ عليّاً عنِ الأمرِ، ويَنْظُرُ المسلمونَ لأنْفُسِهم، كما خَلَعْتُ سَيْفي هذا مِنْ عُنُقي - أو مِنْ عاتِقي - وأَخْرَجَه مِنْ عُنُقِه فوضَعَه في الأرضِ.

وقام عَمْرٌو فوَضَعَ سَيْفَه في الأرْضِ وقال: إني نَظْرتُ فأَثْبَتُّ مُعاوِيَةَ في الأمرِ كما أُثْبِتُ سَيْفي هذا في عاتِقي، وتَقَلَّدَه. فأَنْكَرَ أبو موسى[١]. فقال عَمْرٌو: كذلكَ اتَّفَقْنا.

وتَفَرَّقَ الجَمْعُ على ذلك مِنَ الاختلافِ[٢].

---

١ - يعني عابه واِحْتَجَّ عَلَيْهِ، واعْتَرَضَ بِشِدَّةٍ؛ فليس على هذا اتفقا.

٢ - كيف يتفق الرجلان على خلع عليّ ومعاوية، ومعاوية يومئذ لم يكن خليفة فيخلع. ولا هو ادعى الخلافة حتى يحتاج عمرو إلى خلعها عنه، بل إن أبا موسى وعَمْرًا اتفقا على أن يعهدا بأمر الخلافة على المسلمين إلى الموجودين على قيد الحياة من أعيان الصحابة الذين توفي رسول الله ﷺ وهو عنهم راضٍ، واتفاق الحكمين على ذلك لا يتناول معاوية؛ لأنه لم يكن خليفة، ولم يقاتل على الخلافة، وإنما كان يطالب بإقامة الحد الشرعي على الذين اشتركوا في قتل عثمان، فلما وقع التحكيم على إمامة المسلمين، واتفق الحكمان على ترك النظر فيها إلى كبار الصحابة وأعيانهم تناول التحكيم شيئًا واحدًا هو الإمامة، أما التصرف العملي في إدارة البلاد التي كانت تحت يد كل من الرجلين المتحاربين فبقي كما كان: عليٌّ متصرف في البلاد التي تحت حكمه، ومعاوية متصرف في البلاد التي تحت حكمه، فالتحكيم لم يقع فيه خداع ولا مكر، ولم تتخلله بلاهة ولا غفلة، وكان يكون محل للمكر أو الغفلة لو أن عَمْرًا أعلن في نتيجة التحكيم أنه ولّى معاوية إمارة المؤمنين وخلافة المسلمين، وهذا ما لم يعلنه عمرٌو، ولا ادعاه معاوية، ولم يقل به أحد في الثلاثةَ عشرَ قرنًا الماضية. وخلافة معاوية لم تبدأ إلا بعد الصلح مع الحسن بن علي، وقد تمت بمبايعة الحسن لمعاوية، ومن ذلك اليوم فقط سمي معاويةُ أمير المؤمنين، فعمرٌو لم يغالط أبا موسى ولم يخدعه، إنه لم يعطِ معاوية شيئًا جديًّا، ولم يقرر في التحكيم غير الذي قرره أبو موسى، ولم يخرج عما اتفقا عليه معًا، فبقيت العراق والحجاز وما يتبعهما تحت يد من كانت تحت يده من قبل، وبقيت الشام وما يتبعها تحت يد من كانت تحت يده من قبل، وتعلقت الإمامة بما سيكون من اتفاق أعيان الصحابة عليها، وأي ذنب لعمرو في

عاصمة (ببيان حقيقة التحكيم)

قالَ القاضِي أبو بَكرٍ رَضِيَ اللهُ عنه: هذا كلُّه كَذِبٌ صُراحٌ ما جَرَى منه حَرْفٌ قَطُّ. وإنَّما هو شيءٌ أَخْبَرَ عنه الْمُبتدِعةُ، ووضَعْتْه التاريخيةُ للملوكِ، فتَوارَثَه أهلُ الْمَجانَةِ والجَهارَةِ بمعاصِي اللهِ والبِدَعِ.

وإنما الذي رَوَى الأئمَّةُ الثِّقاتُ الأثْباتُ أنهما لما اجْتَمَعا للنَّظَرِ في الأمرِ – في عُصْبةٍ كريمةٍ مِنَ الناسِ منهم ابنُ عُمَرَ ونحُوُه – عَزَلَ عَمْرٌو مُعاوِيَةَ.

ذَكَرَ الدارَقُطْنيُّ بسَنَدِهِ إلى حُضينِ[1] بنِ الْمُنذِرِ: لَمّا عَزَلَ عَمْرٌو مُعاوِيَةَ جاءَ [أيْ حُضَينُ بنُ الْمُنذرُ] فضَرَبَ فُسْطاطَهُ[2] قريباً مِنْ فُسْطاطِ مُعاوِيَةَ، فبَلَغَ نَبَؤُه مُعاوِيَةَ، فأرْسَلَ إليه فقالَ: إنه بَلَغَني عنْ هذا [أيْ عنْ عَمْرٍو] كذا وكذا، فاذْهبْ فانظرْ ما هذا الذي بَلَغني عنه، فأَتَيْتُه فقلتُ: أَخْبِرْني عنِ الأمرِ الذي وَلِيتَ أنتَ وأبو موسى كيف صَنَعْتُما فيه؟ قال: قدْ قالَ الناسُ في ذلكَ ما قالُوا، واللهِ ما كان الأمرُ على ما قالُوا، ولكنْ قلتُ لأبي موسى: ما تَرَى في هذا الأمرِ؟ قالَ أَرَى أنَّه في النَّفَرِ الذين تُوُفِّيَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عليهِ وَسَلَّمَ وهو عنهم راضٍ. قلتُ: فأينَ تجْعَلُني أنا ومُعاوِيَةَ؟ فقالَ: إنْ يُسْتَعَنْ بِكُما

أي شيء مما وقع؟ إن البلاهة لم تكن من أبي موسى، ولكن ممن يريد أن يفهم الوقائع على غير ما وقعت عليه، فليفهمها كل من شاء كما يشاء. أما هي، فظاهرة واضحة لكل من يراها كما هي. (محب الدين الخطيب).

١ – في نسخة دار الجيل: حُصين، بالصاد المهملة.

٢ – خيمته.

ففيكُما مَعونَةٌ، وإنْ يُسْتَغْنَ عنكُما فطالما استَغْنى أمرُ اللهِ عنكُما. قالَ: فكانتْ هي التي قَتَلَ مُعاوِيَةُ منها نفْسَه. فأتيتُه فأخبرتُه [أيْ أتى حضينٌ مُعاوِيَةَ فأخبرَه] أنَّ الذي بَلَغَه عنه كما بَلَغَه. فأرْسَلَ إلى أَبي الأعورِ الذَّكْواني[١] فبَعَثَه في خَيْلِه، فخَرَجَ يُرْكِضُ فرسَه ويقولُ: أينَ عدُوُّ اللهِ أينَ هذا الفاسقُ؟

قال أبو يوسُفَ[٢]: أظنُّه قالَ "إنما يُريدُ حَوْباءَ نفْسِه". فخَرَجَ [عَمْرٌو] إلى فرسٍ عندَ فُسْطاطِهِ فجالَ في ظَهْرِه عُريانَ، فخَرَجَ يُرْكِضُه نحو فُسْطاطِ مُعاوِيَةَ وهو يقولُ "إنَّ الضَّجُورَ[٣] قدْ تَحْلِبُ العُلْبَةَ" يا مُعاوِيَةُ، إنَّ الضَّجُورَ قدْ تَحْلِبُ العُلْبَةَ. فقال مُعاوِيَةُ: أجلْ، وتُرْبِذُ الحالبَ فتَدَقُّ أنْفَه، وتَكْفَأُ إناءَه.

قالَ الدّارَقُطْنِيُّ - وذَكَرَ سَنَداً عَدْلاً وساقَ الحَديثَ: عنْ رِبْعيٍّ عنْ أبي موسى أنَّ عَمْرَو بنَ العاصِ قالَ: «واللهِ لَئنْ كانَ أبو بَكْرٍ وعُمَرُ تركا هذا المالَ وهو يَحِلُّ لهما منه شيءٌ لقد غُبِنّا ونَقُصَ رأيُهما. وايمُ اللهِ ما كانا مَغْبونَينِ ولا ناقِصَيِ الرأْيِ. ولَئنْ كانا امْرَأينِ يَحْرُمُ عليهما هذا المالُ الذي أَصَبْناه بعدَهما لقدْ هَلَكْنا. وايمُ اللهِ ما جاء الوَهْمُ إلا مِنْ قِبَلِنا»[٤].

---

١ - ذكوان قبيلة من سليم، واسمه عمرو بن سفيان، كان من كبار قواد معاوية، وفي حرب صفين طلب الأشتر أن يبارزه، فترفع عن ذلك؛ لأنه لم ير الأشتر من أنداده.

٢ - راوي هذا الخبر عن الأسود بن شيبان عن عبد الله بن مضارب عن حضين.

٣ - الضجور: الناقة التي ترغو وتعربد عند الحلب. و"قد تحلب الضجور العلبة" مَثَل، ومعناه: أن الناقة التي ترغو قد تحلب ما يملأ العلبة، يضربونه للسيئ الخُلق قد يكون منه الرفق واللين، وللبخيل قد يُستخرج منه المال.

٤ - أورد المؤلف هذا الخبر للدلالة على ورع عمرو ومحاسبته لنفسه وتذكيرها بسيرة السلف.

وجوب الأدب مع الصحابة

فهذا كانَ بَدْءُ الحديثِ ومُنْتهاهُ. فأَعْرِضوا عنِ الغاوِينَ وازْجُروا العاوِينَ وعَرِّجوا عنْ سبيلِ الناكِثينَ، إلى سَنَنِ المهتدِينَ. وأَمْسِكوا الأَلْسِنةَ عنِ السابقينَ إلى الدِّينِ. وإيّاكُمْ أنْ تَكونوا يومَ القيامةَ مِنَ الهالِكِينَ بخُصومَةِ أصحابِ رسولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عليهِ وَسَلَّمَ، فقدْ هَلَكَ مَنْ كان أصحابُ النبيِّ صَلَّى اللهُ عليهِ وَسَلَّمَ خَصْمَه. ودَعُوا ما مَضَى فقدْ قَضَى اللهُ ما قَضَى. وخُذُوا لأنفسِكُم الجِدَّ فيما يَلْزَمُكُم اعتقاداً وعَمَلاً. ولا تَسْتَرْسِلُوا بأَلْسِنَتِكم فيما لا يَعْنيكم مع كلِّ ناعِقٍ اتَّخَذَ الدِّينَ هَمَلاً، فإنَّ اللهَ لا يُضيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلاً.

ورَحِمَ اللهُ الربيعَ بنَ خثيمٍ[1] فإنه لَمّا قيلَ له: قُتِلَ الحُسَيْنُ! قال: أَقَتَلُوه؟ قالوا: نعمْ. فقالَ {قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ}. ولم يَزِدْ على هذا أبداً. فهذا العقلُ والدِّينُ، والكَفُّ عنْ أحوالِ المسلمينَ، والتَّسْليمُ لربِّ العالمينَ.

قاصمة (مزاعم النَّص على استخلاف عليٍّ)

فإنْ قيلَ: إنَّما يكونُ ذلكَ في المعاني التي تُشْكِلُ، وأمَّا هذه الأمورُ كلُّها فلا إشكالَ فيها، لأنَّ النبيَّ صَلَّى اللهُ عليهِ وَسَلَّمَ نَصَّ على استخلافِ عليٍّ بعدَه

---

١ – هو من تلاميذ عبد الله بن مسعود وأبي أيوب الأنصاري وعمرو بن ميمون، وأخذ عنه الإمام الشعبي وإبراهيم النخعي وأبو بردة. قال له ابن مسعود: لو رآك النبي لأحبك. توفي سنة ٦٤.

فقالَ «أنتَ مِنّي بمنزلةِ هارونَ مِنْ موسى، إلّا أنَّه لا نَبِيَّ بَعْدي»[١]، وقالَ: «اللهمَّ والِ مَنْ والاهُ وعادِ مَنْ عاداهُ، وانْصُرْ مَنْ نَصَرَه واخْذُلْ مَنْ خَذَلَه»[٢]، فلمْ يَبْقَ بعدَ هذا خلافٌ لمعانِدٍ.

فتَعَدَّى عليه أبو بكرٍ واقْتَعَدَ[٣] في غيرِ موضِعِه[٤].

ثُمَّ خَلَفَه في التَّعَدِّي عُمَرُ.

ثُمَّ رُجِيَ أنْ يُوَفَّقَ عُمَرُ للرجُّوعِ إلى الحقِّ، فأَبْهَمَ الحالَ، وجَعَلَها شُورَى قَصْراً للخلافِ، للذي سَمِعَ مِنَ النبيِّ صَلَّى اللهُ عليهِ وَسَلَّمَ[٥].

---

١ - يوم خرج الرسول ﷺ إلى غزوة تبوك واستخلف عليًا على المدينة فقال علي: أتخلِّفني في الصبيان والنساء؟ قال: (ألا ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه ليس نبي بعدي) صحيح البخاري - المغازي وفضائل الصحابة. ولو دل هذا على الاستخلاف، لاقتضى أن ابن أم مكتوم خليفة بعد النبي صلى الله عليه وآله وسلم؛ لأنه استخلفه على المدينة، واستخلف أيضًا غيره، فلماذا خُصَّ عليٌّ رضي الله عنه بالخلافة دون غيره، مع اشتراك الكل في الاستخلاف؟

٢ - أخرجه النسائي في "خصائص علي" وأحمد والحاكم، وقال: صحيح على شرط الشيخين، وله طرق أخرى كلها صحيحة، ولكن ليس في طريق من طرقها جميعها: "اللهم انصر من نصره واخذل من خذله".

٣ - يقصدون أنه اتخذ الخلافة مطية بغير حق. وفي المعجم: اِقْتَعَدَ الدَّابَّةَ: اِتَّخَذَهَا مَطِيَّةً، مَرْكَباً.

٤ - أورد المؤلف كل الأقوال المزعومة في النص على استخلاف عليّ وكتمان الصحابة لذلك ثم رد عليها كلها في العاصمة التالية.

٥ - يقصدون أن عمر رضي الله عنه تعمد إخفاء أمر الرسول ﷺ الذي سمعه منه في شأن استخلاف عليّ وسارع عند موته بجعل الأمر شورى بين ستة منهم علي، ليحرمه حقه في الخلافة في زعمهم.

ثُمَّ تَحَيَّلَ ابنُ عَوْفٍ حتّى ردَّها عنه إلى عُثمانَ[١].

ثم قُتِلَ عثمانُ لتَسَوّرِهِ على الخِلافةِ وعلى أحكامِ الشريعةِ[٢]، وصارَ الأمرُ إلى عليٍّ بالحقِّ الإلهيّ النبويِّ، فنازَعَه مَنْ عاقَدَه، وخالَفَ عليه مَنْ بايَعَه، ونَقَضَ عهْدَهُ مَنْ شَدَّهُ[٣].

وانْتُدِبَ أهلُ الشامِ إلى الفُسوقِ في الدِّينِ، بلِ الكفْرِ[٤].

وهذه حقيقةُ مَذْهَبِهم، وأنَّ الكلَّ عندَهم كَفَرَةٌ[٥]، لأنَّ مِنْ مَذْهَبِهم التكفيرَ بالذُّنوبِ. وكذلكَ تَقُولُ هذه الطائفةُ التي تُسَمّى بالإماميَّةِ[٦]: إنَّ كلَّ عاصٍ بكبيرةٍ كافرٌ على رَسْمِ القَدَرِيَّةِ، ولا أَعْصَى مِنَ الخُلَفاءِ المذْكورينَ[٧] ومَنْ

---

١ – أعداء الصحابة زعموا أن عبدالرحمن بن عوف جامل عثمان على حساب عليّ في أمر الخلافة إذ جعل عمر ترجيح الكفَّتين إذا تساوتا بعبد الرحمن بن عوف، وأنَّ علياً أحسَّ بأن الخلافة ذهبت منه؛ لأنَّ عبد الرحمن سيقدِّم عثمان للمصاهرة الّتي بينهما.

٢ – {كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ ۚ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا}.

٣ – شد العهد: أوثقه. ونقضه: حلّه وفكّه وأبطله.

٤ – يقصدون لما خرج معاوية وأهل الشام طالبين من عليٍّ القصاص من قتلة عثمان.

٥ – يستثنون منهم علياً وسلمان الفارسي وأبا ذر وعمار بن ياسر.

٦ – الإمامية: اسم يطلق على طوائف الشيعة التي تؤمن بأن إمامة المسلمين تأتي نصّاً لكل إمام من الإمام المعصوم من أئمة أهل البيت السابق له، فيخالفون بذلك طوائف أخرى مثل الزيدية التي لا تشترط أن يكون الإمام من البيت. ويسمون أيضا بالجعفرية لاتفاقهم على الأئمة الستة الأوائل ويفترقون من بعد الإمام السادس جعفر الصادق إلى فرق عديدة بسبب اختلافهم على الإمام التالي. ويسميهم بعض خصومهم بالرافضة.

٧ – الخلفاء المذكورون قال فيهم النبي ﷺ عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي.

ساعَدَهُم على أَمرِهِم، وأصحابُ محمَّدٍ صَلَّى اللهُ عليهِ وَسَلَّمَ أَحْرَصُ الناسِ على دُنيا، وأَقَلُّهم حَمِيَّةً على دِينٍ، وأَهْدَمُهُم لِقاعِدَةٍ وشَريعةٍ[١].

عاصمة (بتفنيد مزاعم النَّص على استخلاف عليٍّ)

قالَ القاضِي أبو بكرٍ رَضِيَ اللهُ عنه: يَكْفيكَ مِنْ شَرٍّ سَماعُه، فكيفَ التَّمَلْمُلُ به. خَمْسُمائةِ عامٍ عَدا إلى يومِ مَقالي هذا – لا نَنْقُصُ منها يوماً ولا نَزيدُ يوماً – وهو مُهَلُّ شَعْبانَ سَنَةَ ستٍّ وثلاثينَ وخمسمائةٍ وماذا يُرجى بعدَ التمامِ إلا النَّقْصُ؟

ما رَضِيَتِ النَّصارَى واليَهودُ في أَصْحابِ موسى وعيسى ما رَضِيَتِ الرَّوافضُ في أَصْحابِ محمدٍ صَلَّى اللهُ عليهِ وَسَلَّمَ[٢] حين حَكَمُوا عليهم بأنَّهم قدِ اتَّفَقُوا على الكُفرِ والباطلِ. فما يُرْجى مِنْ هؤلاءِ وما يُسْتَبْقى منهم؟ وقدْ قالَ اللهُ تَعالى ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا﴾، وهذا قولُ صِدْقٍ ووَعْدُ حَقٍّ. وقدِ انْقَرَضَ

---

١ – ليس القصد الطعن في الصحابة بقدر ما هو طعن فيمن رباهم وعلمهم وهو رسول الله ﷺ .

٢ - يعني لم يقل اليهود والنصارى – على ظلمهم – في أصحاب موسى وعيسى ما قاله أعداء الصحابة في الصحابة، فقد نسبوا إليهم ما لا يقبله عقل ولا ضمير حي.

عَصْرُهم ولا خِلْفَةَ فيهم ولا تَمْكِينَ ولا أمْنَ ولا سُكونَ إلا في ظُلْمٍ وتَعَدٍّ وغَصْبٍ وهَرْجٍ وتَشْتيتٍ وإثارةٍ ثائرةٍ.

وقدْ أَجْمَعَتِ الأمَّةُ على أنَّ النبيَّ صَلَّى اللهُ عليهِ وَسَلَّمَ ما نصَّ على أحدٍ يكونُ مِنْ بعدِه[١].

وقدْ قال العباسُ لعليٍّ – فيما رَوَى عنه عبدُ اللهِ ابنُه – قال عبدُ اللهِ بنُ عباسٍ: خَرَجَ عليٌّ بنُ أبي طالبٍ رَضِيَ اللهُ عنه مِنْ عندِ رسولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عليهِ وَسَلَّمَ في وَجَعِهِ الذي تُوُفِّيَ فيه، فقالَ الناسُ: يا أبا حَسَنٍ، كيف أَصْبحَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عليهِ وَسَلَّمَ؟ قال: أَصْبحَ بحَمْدِ اللهِ بارئاً. فأَخَذَ بِيَدِهِ عباسُ بنُ عبدِ المطَّلبِ فقالَ له: أنتَ واللهِ بعدَ ثلاثٍ عبدُ العَصا[٢]. وإني لأَرَى رسولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عليهِ وَسَلَّمَ يُتَوَفَّى مِنْ وَجَعِهِ هذا. إني لأَعْرِفُ وُجُوهَ بَنِي عبدِ المطَّلِبِ عندَ الموتِ. اذْهَبْ بنا إلى رسولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عليهِ وَسَلَّمَ فلْنَسأَلْه فيمَنْ يكونُ هذا الأمرُ بعدَه، فإنْ كانَ فينا عَلِمْنا ذلكَ، وإنْ كان في غيرِنا علِمْنا فأَوْصَى بِنا. فقالَ عليٌّ: إنّا واللهِ لَئِنْ سَأَلْناها رسولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عليهِ

---

١ – سئل الحسن المثنى بن الحسن السبط بن علي بن أبي طالب فقيل له: ألم يقل رسول الله (من كنت مولاه فعليٌّ مولاه)؟ فقال: (بلى: ولكن والله لم يعن رسول الله بذلك الإمارة والسلطان. ولو أراد ذلك لفصح لهم به، فإن رسول الله كان أنصح للمسلمين. ولو كان الأمر كما قيل لقال: يا أيها الناس هذا ولي أمركم والقائم عليكم من بعدي، فاسمعوا له وأطيعوا. والله لئن كان الله ورسوله اختار عليًا لهذا الأمر وجعله القائم للمسلمين من بعده ثم ترك عليٌّ أمر الله ورسوله، لكان عليٌّ أول من ترك أمر الله ورسوله) الحافظ ابن عساكر (٤ : ١٦٦).

٢ – يعني أنَّك ستكونُ تَابِعًا مَأْمُورًا، ولن تكونَ الخليفةَ للنبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم.

وَسَلَّمَ فمَنَعَناها لا يُعْطيناها الناسُ بعدَه، وإني واللهِ لا أَسْأَلُها رسولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عليهِ وَسَلَّمَ[١].

قالَ القاضِي أبو بكرٍ رَضِيَ اللهُ عنه: رَأْيُ العباسِ عِندي أَصَحُّ وأَقْرَبُ إلى الآخرةِ، والتصريحِ بالتحقيقِ. وهذا يُبْطِلُ قولَ مُدَّعي الإشارةِ باستخلافِ عليٍّ، فكيف أنْ يُدَّعى فيه نَصٌّ؟[٢]

الأحاديث في فضائل أبي بكر وعُمَر

فأمّا أبو بكرٍ[٣]، فقدْ جاءتِ امرأةٌ إلى النبيِّ ﷺ فأَمَرَها أنْ تَرْجِعَ إليه. قالتْ له: فإنْ لم أَجِدْكَ – كأنَّها تَعْني الموتَ – قالَ: تَجِدِينَ أبا بكرٍ[٤].

وقال النبيُّ صَلَّى اللهُ عليهِ وَسَلَّمَ لعُمَرَ وقدْ وَقَعَ بينَه [أيْ بينَ عُمَر] وبينَ أبي بكرٍ كلامٌ، فتَمَعَّرَ[٥] وجْهُ النبيِّ صَلَّى اللهُ عليهِ وَسَلَّمَ، حتى أَشْفَقَ مِنْ ذلكَ أبو بكرٍ، وقال النبيُّ صَلَّى اللهُ عليهِ وَسَلَّمَ «هلْ أنتمْ تارِكو لي صاحِبي (مرَّتين).

---

١ – رواه البخاري في كتاب المغازي من صحيحه (ك ٦٤ ب ٨٣ – ج ٥ ص ١٤٠ – ١٤١). ونقله ابن كثير في البداية والنهاية (٥ : ٢٢٧ و ٢٥١) من حديث الزهري عن عبد الله بن كعب بن مالك عن ابن عباس. ورواه الإمام أحمد في مسنده (١ : ٢٦٣ و ٣٢٥ و ٢٣٧٤ و ٢٩٩٩).

٢ – يعني لو كان هناك نص أو إشارة من رسول الله ﷺ لعليٍّ لما قال العباس لعليٍّ ذلك. فأين عقول الروافض؟

٣ – يعني أما الدليل على استخلاف أبي بكر.

٤ - صحيح البخاري - فضائل الصحابة (ك ٦٢ ب ٥ - ج ٤ ص ١٩١)

٥ – يعني تغير وظهر فيه الغضب.

إني بُعِثْتُ إليكمْ فقلْتُم: كَذَبْتَ، وقالَ أبو بكرٍ صَدَقْتَ. ألَا إني أَبْرَأُ إلى كلِ خَليلٍ مِنْ خَلَّتِه»[١].

وقالَ النبيُّ صَلَّى اللهُ عليهِ وَسَلَّمَ: «لو كنتُ مُتَّخِذاً في الإسلامِ خَليلاً لاتَّخذْتُ أبا بكرٍ خَليلاً. ولكنْ أخي وصاحِبي. وقدِ اتَّخَذَ اللهُ صاحبَكم خَليلاً. لا يَبْقَيَنَّ في المسجدِ خَوْخَةٌ[٢] إلا خَوْخَةُ أبي بكرٍ»[٣].

وقدْ قال النبيُّ صَلَّى اللهُ عليهِ وَسَلَّمَ: «بينما أنا نائمٌ رأيتُني على قَلِيبٍ عليها دَلْوٌ، فنَزَعْتُ منها ما شاءَ اللهُ، ثمَّ أَخَذَها ابنُ أبي قُحافةَ فنَزَعَ منها ذَنُوباً أو ذَنُوبيْنِ وفي نَزْعِهِ ضَعْفٌ واللهُ يَغْفِرُ له، ثمَّ استحالتْ غَرْباً، فأخَذَها ابنُ الخطّابِ، فلمْ أَرَ عَبْقرياً مِنَ الناسِ يَنزِعُ نَزْعَ عُمَرَ، حتى ضَرَبَ الناسُ بعطَنٍ»[٤].

---

١ – صحيح البخاري – مناقب الصحابة (ك ٦٢ ب ٥ – ج ٤ ص ١٩٢).

٢ – الخَوْخَة: البابُ الصغير، وكان بعضُ الصَّحابةِ فَتَحوا أبوابًا في دِيارِهم إلى المسجدِ، فأَمَر النبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم بسَدِّها كلِّها إلَّا خَوْخَةَ أبي بَكْرٍ رضِي اللهُ عنه؛ لِيَتميَّز بذلك فضلُه.

٣ - صحيح البخاري – مناقب الصحابة (ج ٤ ص ١٩١).

٤ – رأى النبي ﷺ في منامِه أنه على بِئْرٍ يَستقِي منها، فجاء أبو بَكْرٍ وعُمَرُ رضِي اللهُ عنهما، فقام أبو بَكْرٍ رضِي اللهُ عنه «فنَزَعَ ذَنُوبًا أو ذَنُوبَيْنِ»، أي: أَخْرَج من البِئر ذَنُوبًا من ماءٍ، وهو الدَّلْو، أو ذَنُوبَيْنِ، وفي إخراجِه للماءِ ونَزْعِه ضَعْفٌ، وليس في قوله «ضَعْف» حَطٌّ مِن قَدْرِه الرَّفيع، وإنما هو إشارةٌ إلى قِصَرِ مُدَّةِ خِلافتِه، ثُمَّ جاء عُمَرُ بنُ الخَطَّابِ رضِي اللهُ عنه فأَخَذ الذَّنُوبَ من يَدِ أَبِي بَكْرٍ، فتحوَّل في يَدِه غَرْبًا، وهو الدَّلْوُ الكبيرُ الذي يُسقَى به البَعِيرُ، وهو أكبرُ مِن الذَّنُوبِ، يقول النبيُّ ﷺ: «فلَمْ أَرَ عَبْقَرِيًّا في الناسِ يَفْرِي فَرْيَه»، والعَبْقَرِيُّ هو الحاذِق المتقِن لعملِه، والمعنى: لم أَرَ سَيِّدًا عظيمًا ورجلًا قويًّا، وإنسانًا حاذِقًا يَعمل عملَه ويَقطع قَطْعَه، «حتى ضَرَب الناسُ بعَطَنٍ»، والعَطَنُ: مَبْرَكُ الإبِلِ حولَ الماء، أي: ما زال يُخرِج للناسِ الماءَ حتى نَصَب الناسُ خِيامَهم، وأَقاموا إبلَهم

وقدْ ثَبَتَ أنَّ النبيَّ صَلَّى اللهُ عليهِ وَسَلَّمَ صَعِدَ أُحُداً وأبو بكرٍ وعُمَرُ وعثمانُ رَضِيَ اللهُ عنهم، فرَجَفَ بهمْ: فقالَ «اثْبُتْ أُحُدُ، فإنما عليكَ نَبِيٌّ وصِدِّيقٌ وشَهيدانِ»[١].

وقال صَلَّى اللهُ عليهِ وَسَلَّمَ: «لقدْ كان فيمَنْ كان قَبْلَكم مِنْ بَنِي إسرائيلَ رجالٌ يُكَلَّمُونَ[٢] مِنْ غيرِ أنْ يَكونوا أنبياءَ، فإنْ يَكُنْ في أُمَّتي منهم أَحَدٌ فعُمَرُ»[٣].

وقالَ النبيُّ صَلَّى اللهُ عليهِ وَسَلَّمَ لعائشةَ رَضِيَ اللهُ عنها في مَرَضِهِ: «ادْعِي لي أَبَا بَكْرٍ أَبَاكِ، وَأَخَاكِ، حتَّى أَكْتُبَ كِتَابًا، فإنِّي أَخَافُ أَنْ يَتَمَنَّى مُتَمَنٍّ ويقولَ قَائِلٌ: أَنَا أَوْلَى، وَيَأْبَى اللَّهُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَّا أَبَا بَكْرٍ»[٤].

حولَ الماءِ، وتأويلُ هذا: ما حَصَلَ مِن طُولِ خلافتِه رضِي اللهُ عنه، وما كان فيها من خَيْر. والحديث في صحيح البخاري (ج ٤ ص ١٩٣).

١ - صحيح البخاري - فضائل الصحابة (ك ٦٢ ب ٥ - ج ٤ ص ١٩٧).

٢ - يعني ملهمون، يَجري الصَّوابُ على أَلسنَتِهم أو يَخطُرُ ببالِهم الشَّيءُ فيَكونُ بفَضْلٍ منَ اللهِ تعالى وتَوفيقٍ، وقد وافَقَ عُمرُ رضِي اللهُ عنه الوَحيَ في حَوادث كَثيرةٍ.

٣ - صحيح البخاري - فضائل الصحابة (ك ٦٢ ب ٦ - ج ٤ ص ٢٠٠).

٤ - أي أَّه أراد أنْ يُرسِلَ إلى أبي بكرٍ رضِيَ اللهُ عنه ويُوصِيَ له بخِلافتِه؛ حتَّى لا يقولَ أحدٌ: إنَّه أحَقُّ بها، أو يَتمنَّى مُتمَنٍّ أنْ تكونَ الخِلافةُ له، فأُعَيِّنَهُ؛ قطْعًا للنِّزاعِ والأطماعِ، وقد أراد اللهُ ألَّا يَعهَدَ؛ لِيُؤْجَرَ المسلِمونَ على الاجتِهادِ، أو ترَكَ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ ذلك اعتِمادًا على ما عَلِمَه مِن تَقديرِ اللهِ تعالى، "ويأبى اللهُ عزَّ وجلَّ والمؤمنون إلَّا أبا بكرٍ"، أي: يأبى اللهُ إلَّا خِلافةَ أبي بكرٍ، ويَرفُضُ المسلمون خِلافةَ غيرِه. وإسناده صحيح على شرط الشيخين، وهو في صحيح البخاري ومسلم وأحمد والنسائي في (السنن الكبرى).

وقالَ ابنُ عباسٍ: إنَّ رَجُلًا أتى رَسولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ فَقالَ: إنِّي رَأَيْتُ اللَّيْلَةَ في المَنَامِ ظُلَّةً تَنْطُفُ السَّمْنَ والعَسَلَ، فأرَى النَّاسَ يَتَكَفَّفُونَ منها، فَالْمُسْتَكْثِرُ والمسْتَقِلُّ، وإذَا سَبَبٌ واصِلٌ مِنَ الأرْضِ إلى السَّمَاءِ، فأرَاكَ أخَذْتَ به فَعَلَوْتَ، ثُمَّ أخَذَ به رَجُلٌ آخَرُ فَعَلَا به، ثُمَّ أخَذَ به رَجُلٌ آخَرُ فَعَلَا به، ثُمَّ أَخَذَ به رَجُلٌ آخَرُ فَانْقَطَعَ ثُمَّ وُصِلَ (وذَكَرَ الحَديثَ).

ثم عَبَرَها أبو بكرٍ فقالَ: وأَمَّا السَّبَبُ الوَاصِلُ مِنَ السَّمَاءِ إلى الأرْضِ فَالحَقُّ الذي أنْتَ عليهِ، تَأْخُذُ به فيُعْلِيكَ اللَّهُ، ثُمَّ يَأْخُذُ به رَجُلٌ مِن بَعْدِكَ فَيَعْلُو به، ثُمَّ يَأْخُذُ به رَجُلٌ آخَرُ فَيَعْلُو به، ثُمَّ يَأْخُذُهُ رَجُلٌ آخَرُ فَيَنْقَطِعُ به، ثُمَّ يُوصَلُ له فَيَعْلُو به»[١].

[١] – أتَى رجلٌ رسولَ الله صلَّى الله عليه وسلَّم فقال: «إنِّي رأيتُ الليلةَ في المنامِ ظُلَّةً» أي: سَحَابَةً لها ظُلَّةٌ، وكلُّ ما أَظَلَّ مِن سَقِيفَةٍ ونحوِها يُسَمَّى ظُلَّةً «تَنْطُفُ»، أي: تَقطُرُ «السَّمْنَ والعَسَلَ، فأَرَى الناسَ يَتكفَّفون منها»، أي: يأخُذون بأَكُفِّهم، «فالمسْتَكثِرُ والمستَقِلُّ» في الأخذِ مِمَّا تَقطُرُ، «وإذا سَبَبٌ»، أي: حَبْلٌ «واصِلٌ مِن الأرض إلى السَّماءِ، فأَرَاكَ أخذتَ به فعَلَوْتَ، ثُمَّ أخَذ به رجلٌ آخَرُ فعَلَا به، ثُمَّ أخَذ به رجلٌ آخَرُ فعَلَا به، ثُمَّ أخَذَ به رجلٌ آخَرُ فانْقَطَع ثُمَّ وُصِل». فقال أبو بَكْرٍ: «يا رسولَ الله، بأَبِي أنتَ»، أي: أُفَدِّيكَ بأَبِي، «والله لَتَدَعَنِّي فأَعْبُرَها»، أي: أفسِّرها، فقال النبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم: «اعْبُرْها». قال: «أمَّا الظُّلَّةُ فالإسلامُ، وأمَّا الَّذِي يَنطُف مِن العَسَلِ والسَّمْنِ فالقُرْآنُ حَلاوَتُه تَنطُف، فالمستَكْثِرُ مِن القُرآنِ والمستَقِلُّ، وأمَّا السببُ الواصلُ مِنَ السَّماءِ إلى الأرضِ فالحقُّ الَّذِي أنتَ عليه، تأخُذ به فيُعليك الله، ثُمَّ يأخُذ به رجلٌ»، وهو أبو بَكْر رَضِيَ الله عنه «مِن بَعدِك فيَعْلُو به، ثُمَّ يأخُذ به رجلٌ آخَرُ» وهو عُمَرُ رَضِيَ الله عنه «فيَعْلُو به، ثُمَّ يأخُذُ به رجلٌ آخَرُ» وهو عُثْمَانُ رَضِيَ الله عنه «فيَنقَطِع به، ثُمَّ يُوصل له فيَعْلُو به»؛ إشارةً إلى أنَّ عُثمانَ كاد أن يَنقطِعَ به الحَبْلُ عن اللُّحُوقِ بصاحِبَيْهِ بسببِ ما وقَعَ له مِن تِلك القضايا الَّتِي أنكروها، فعُبِّر عنها بانقطاعِ الحَبْلِ، ثُمَّ وَقَعت له الشَّهادَةُ فاتَّصَل بهم، فعُبِّر عنه بأنَّ الحَبْلَ وُصِلَ له فاتَّصَل، فالْتَحق بهم، قال أبو بكر «فأخبِرني يا رسولَ الله، بأبِي أنتَ»، أي: أُفَدِّيكَ بأبي «أَصَبْتُ أم أخطأتُ؟» قال النبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم: «أَصَبْتَ بعضًا وأخطأتَ بعضًا». قال: فوالله لَتُحَدِّثَنِّي بالَّذِي أخطأتُ! قال: «لا تُقسِمْ». فلم يُخبِرْه صلَّى الله عليه وسلَّم. أخرجه البخاري، ومسلم.

وصَحَّ أنَّ النبيَّ صَلَّى اللهُ عليهِ وَسَلَّمَ قالَ ذاتَ يومٍ: «مَنْ رَأَى منكم رُؤيا؟» فقالَ رجلٌ: أنا رأيتُ كأنَّ ميزاناً نَزَلَ مِنَ السماءِ، فوُزِنْتَ أنتَ وأبو بكرٍ فرَجَحْتَ. ووُزِنَ أبو بكرٍ وعُمَر فرَجَحَ أبو بكرٍ. ووُزِنَ عُمَر وعثمانُ فرَجَحَ عُمَر. ثُمَّ رُفِعَ الميزانُ. فرَأَيْنا الكَراهِيةَ في وَجْهِ رسولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عليهِ وَسَلَّمَ[1].

وهذه الأَحاديثُ جِبالٌ في البَيانِ، وجِبالٌ في السَّبَبِ إلى الحقِّ لِمَنْ وفَّقَه اللهُ. ولو لم يَكُنْ معكم - أيُّها السُّنِّيَّةُ - إلا قولُه تعالى {إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ} فجعَلَها في نَصِيفٍ[2]، وجَعَلَ أبا بكرٍ في نَصِيفٍ آخَرَ وقامَ معه جميعُ الصحابةِ.

وإذا تَبَصَّرْتم هذه الحقائقَ فليس يَخْفى منها حالُ الخُلفاءِ في خِلالِهم وولايَتِهم وتَرْتيبِهم خصوصاً وعموماً. وقدْ قالَ اللهُ تَعالى {وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا}. وإذا لم يَنْفُذْ هذا الوَعْدُ في الخُلفاءِ فلِمَنْ يَنْفُذُ؟ وإذا لم يَكُنْ فيهم ففيمنْ يكونُ؟ والدليلُ عليه انعقادُ الإجماعِ أنه لم يَتَقَدَّمْهم في

---

١ - أي: رأَيْنا علاماتِ الحُزنِ والأسَفِ في وجْهِ النَّبيِّ ﷺ، وكأنَّه ساءَه ما سمِعَ من رفْعِ الميزان وذلك لما علم ﷺ من أن تأويل رفع الميزان ظهور الفتن بعد خلافة عمر رضي الله عنه. أخرجه أبو داود والترمذي والنسائي في (السنن الكبرى) وأحمد.

٢ - يعني الأمة.

الفَضيلةِ أَحَدٌ إلى يومِنا هذا. ومَنْ بعدُ مُخْتَلَفٌ فيه، وأولئكَ مَقْطوعٌ بهم، مُتَيَقَّنٌ إمامتُهم، ثابِتٌ نفوذُ وعدِ اللهِ لهم، فإنهم ذَبُّوا عنْ حَوْزَةِ المسلمينَ وقامُوا بسياسةِ الدِّينِ. قالَ عُلَماؤنا: ومَنْ بعدَهم تَبَعٌ لهمْ مِنَ الأئمةِ الذين همْ أركانُ الْمِلَّةِ، ودعائمُ الشريعةِ، الناصحونَ لعبادِ اللهِ، الهادُونَ مَنِ اسْتَرْشَدَ إلى اللهَ. فأمَّا مَنْ كان مِنَ الوُلاةِ الظَّلَمَةِ فضَرَرُه مَقْصورٌ على الدُّنيا وأَحْكامِها.

مراتب أئمة الدين

وأمّا حُفّاظُ الدِّينِ فهمُ الأئمةُ العلماءُ الناصِحونَ لدِينِ اللهِ، وهمْ أربعةُ أَصْنافٍ:

الصِّنْفُ الأوَّلُ: حَفِظُوا أخبارَ رسولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عليهِ وَسَلَّمَ، وهُمْ بمنزلةِ الخزّانِ لأقواتِ الْمَعاشِ.

الصِّنفُ الثاني: علماءُ الأُصولِ: ذَبُّوا عنْ دِينِ اللهِ أهلَ العِنادِ وأصحابَ البِدَعِ، فهُمْ شُجْعانُ الإسلامِ وأبطالُه المداعِسونَ[1] عنه في مَآزِقِ الضَّلالِ.

الصِّنْفُ الثالثُ: قومٌ ضَبَطُوا أصولَ العِباداتِ وقانونَ المعامَلاتِ، ومَيَّزوا الْمُحَلَّلاتِ مِنَ الْمُحَرَّماتِ، وأَحْكَمُوا الْخَراجَ والدِّياتِ وبَيَّنُوا مَعاني الأَيْمانِ

١ – المدافعون المقاتلون.

والنُّذورِ، وفَصَّلُوا الأَحْكامَ في الدَّعاوَى، فهمْ في الدِّينِ بمَنْزلةِ الوكلاءِ المتصَرِّفينَ في الأموالِ.

الصِّنْفُ الرابعُ: تجَرَّدُوا للخِدْمةِ ودَأَبُوا على العِبادَةِ واعْتَزَلوا الخَلْقَ. وهمْ في الآخرةِ كخَواصِّ الملِكِ في الدُّنيا.

وقد أوضحْنا في كتابِ سِراجِ المريدينَ[١] في القِسْمِ الرابعِ مِنْ علومِ القرآنِ أيُّ المنازلِ أفضلُ مِنْ هؤلاءِ الأصنافِ وترتيبَ دَرَجاتِهم.

قالَ القاضِي أبو بكرٍ رَضِيَ اللهُ عنه: وهذه كلُّها إشاراتٌ أو تَصْريحاتٌ أو دِلالاتٌ أو تَنْبيهاتٌ. ومجموعُ ذلكَ يَدُلُّ على صِحَّةِ ما جرَى وتحقيقِ ما كان مِنَ العُقَلاءِ.

حديث غدير خم

ونقولُ بعدَ هذا البيانِ على مقامٍ آخَرَ: لو كان هنالِكَ نَصٌّ على أبي بكرٍ أو على عليٍّ، لم يكنْ بدٌّ من احتجاجِ عليٍّ به[٢]، أو يَحْتَجُّ له به غيرُه مِنَ المهاجِرينَ والأنْصارِ.

---

١ - أحد كتب ابن العربي الشهيرة.

٢ - الجماعة لا تنقصهم الحيلة؛ فحينما قيل لهم ذلك تفننوا في وضع أحاديث على لسان عليّ يحتج فيها بحادثة غدير خم على استخلافه. زعموا.

فأمّا حديثُ غَديرِ خُمٍّ[١] فلا حُجَّةَ فيه، لأنه إنما اسْتَخْلَفَه في حياتِه على المدينةِ كما اسْتَخْلَفَ موسى هارونَ – في حياتِه عندَ سَفرِه للمُناجاةِ – على بَني إسْرائيلَ. وقد اتفقَ الكلُّ مِنْ إخوانِهم اليهودِ قاطبةً على أنَّ موسى ماتَ بعدَ هارونَ فأينَ الخلافةُ؟[٢]

وأما قوله «اللهمَّ والِ مَنْ والاهُ» فكلامٌ صحيحٌ ودعوةٌ مُجابَةٌ، وما يُعْلَمُ أحدٌ عاداهُ إلا الرافضةُ، فإنَّهم أنزلُوهُ في غيرِ منزلتِه، ونَسَبوا إليه ما لا يليقُ بدَرَجَتِهِ.

١ – أرسل النبي ﷺ قبْل حجة الوداع خالد بن الوليد رضي الله عنه إلى اليمن في قتال انتصر خالد فيه، وغنم غنائم، فأرسل إلى رسول الله ﷺ يخبره بذلك، ويطلب إرسال من يُخمِّس تلك الغنائم، فأرسل النبي ﷺ عليَّ بن أبي طالب رضي الله عنه لتلك المهمة، ثم أمره أن يدركه في الحج، وقسّم رضي الله عنه تلك الغنائم كما أمر الله: أربعةَ أخماس للمجاهدين، وخُمسًا لله والرسول وذوي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل. فأخذ عليٌّ خُمس ذوي القربى للنبي ﷺ فغضب بعض الصحابة كبُريدة بن الحصيب رضي الله عنه، فاشتكى بُريدة إليه. فلما قضى ﷺ حجّه خطب تنبيهًا على قدر عليٍّ، وردًّا على من تكلم فيه. يقول بريدة رضي الله عنه: «غزوت مع عليٍّ اليمن فرأيت منه جَفْوة، فلما قدمت على رسول الله ﷺ ذكرت عليًّا فتنقَّصته، فرأيت وجه رسول الله ﷺ يتغيَّر، فقال: «يا بريدة ألستُ أولى بالمؤمنين من أنفسهم؟» قلت: بلى يا رسول الله. قال: «من كنت مولاه فعَليٌّ مولاه». وقال زيد بن أرقم: لما رجع رسول الله ﷺ من حَجَّة الوداع ونزل غدير خُمٍّ، أمر بدوحات فقُمِمْن، فقال: «كأني قد دُعيت فأجبت، إني قد تركت فيكم الثقلين أحدهما أكبر من الآخر: كتاب الله تعالى، وعِتْرتي، فانظروا كيف تخلفوني فيهما، فإنهما لن يتفرقا حتى يَرِدا عليَّ الحوض». ثم قال: «إن الله عز وجل مولاي، وأنا مولى كل مؤمن». ثم أخذ بيد عليٍّ رضي الله عنه فقال: «من كنت مولاه فهذا وليّه، اللهم والِ من والاه، وعادِ من عاداه». (رواه النسائي في الكبرى والحاكم في المستدرك. ونقل ابن كثير عن الذهبي تصحيحه، كما في البداية والنهاية ٥/٢٢٩. وقال الألباني: وهو حديث صحيح.

٢ – مات هارون فدفنه موسى عليهما السلام.

والزيادةُ في الحدِّ نُقْصانٌ مِنَ المحدودِ. ولو تَعَدَّى عليها أبو بكرٍ ما كان المتَعَدِّيَ وحدَه، بل جميعُ الصحابةِ – كما قلْنا – لأنَّهم ساعَدُوه على الباطلِ.

ولا تَسْتَغْرِبوا هذا مِنْ قولِهم، فإنهم يقولون: إنَّ النبيَّ صَلَّى اللهُ عليهِ وَسَلَّمَ كان مُدارِياً لهم ومُمْتَحَناً بهم على نِفاقٍ وتَقِيَّةٍ[١].

وأين أنتَ مِنْ قولِ النبيِّ صَلَّى اللهُ عليهِ وَسَلَّمَ حينَ سَمِعَ قولَ عائشةَ رَضِيَ اللهُ عنها مُرُوا عُمَر فلْيُصَلِّ بالناسِ: «إنكُنَّ لأنتُنَّ صواحِبُ يوسُفَ، مُرُوا أبا بكرٍ فلْيُصَلِّ بالناسِ»[٢]. وما قدَّمْنا مِنْ تلكَ الأحاديثِ. لقدِ اقْتَحَمُوا عظيماً ولقدِ افْتَرَوا كبيراً.

---

١ – بل التقية دينهم هُم وليست دين رسول الله ﷺ، فقد قال الحسن المثنى بن الحسن السبط بن علي بن أبي طالب لرجل من الرافضة: (والله لئن أمكننا الله منكم لنقطعن أيديكم وأرجلكم، ثم لا نقبل منكم توبة). فقال له رجل: لم لا تقبل منهم توبة؟ قال: نحن أعلم بهؤلاء منكم. إن هؤلاء إن شاءوا صدَقوكم، وإن شاءوا كذَبوكم وزعموا أن ذلك يستقيم لهم في التقية. ويلك! إن التقية هي باب رخصة للمسلم، إذا اضطر إليها وخاف من ذي سلطان أعطاه غير ما في نفسه يدرأ عن ذمة الله، وليست باب فضل، إنما الفضل في القيام بأمر الله وقول الحق. وايم الله ما بلغ من التقية أن يجعل بها لعبد من عباد الله أن يضل عباد الله). أخرجه الحافظ ابن عساكر (٤ : ١٦٥).

٢ – قالت عائشة: لَمَّا ثَقُلَ رَسولُ اللَّهِ ﷺ جَاءَ بلَالٌ يُوذِنُهُ بالصَّلَاةِ، فَقالَ: مُرُوا أبَا بَكْرٍ أنْ يُصَلِّيَ بالنَّاسِ، فَقُلْتُ: يا رَسولَ اللَّهِ إنَّ أبَا بَكْرٍ رَجُلٌ أسِيفٌ وإنَّه مَتَى ما يَقُمْ مَقَامَكَ لا يُسْمِعُ النَّاسَ، فلوْ أمَرْتَ عُمَرَ، فَقالَ: مُرُوا أبَا بَكْرٍ يُصَلِّي بالنَّاسِ فَقُلتُ لِحَفْصَةَ: قُولِي له: إنَّ أبَا بَكْرٍ رَجُلٌ أسِيفٌ، وإنَّه مَتَى يَقُمْ مَقَامَكَ لا يُسْمِعُ النَّاسَ، فلوْ أمَرْتَ عُمَرَ، قالَ: إنَّكُنَّ لَأَنْتُنَّ صَوَاحِبُ يُوسُفَ، مُرُوا أبَا بَكْرٍ أنْ يُصَلِّيَ بالنَّاسِ فَلَمَّا دَخَلَ في الصَّلَاةِ وجَدَ رَسولُ اللَّهِ ﷺ في نَفْسِهِ خِفَّةً، فَقَامَ يُهَادَى بيْنَ رَجُلَيْنِ، ورِجْلَاهُ يَخُطَّانِ في الأرْضِ، حتَّى دَخَلَ المَسْجِدَ، فَلَمَّا سَمِعَ أبو بَكْرٍ حِسَّهُ، ذَهَبَ أبو بَكْرٍ يَتَأَخَّرُ، فأوْمَأَ إلَيْهِ رَسولُ اللَّهِ ﷺ، فَجَاءَ رَسولُ اللَّهِ ﷺ حتَّى جَلَسَ عن يَسَارِ أبِي

لماذا جعلها عُمَر شورى؟

وما جَعَلَها عُمَر شُورَى إلا اقتداءً بالنبيّ صَلَّى اللهُ عليهِ وَسَلَّمَ وبأبي بَكرٍ، إذْ قالَ: «إنْ أَسْتَخلِفْ فقدِ اسْتَخْلَفَ مَنْ هو خيرٌ منّي، وإنْ لم أَسْتَخلفْ فإنَّ رسولَ الله صَلَّى اللهُ عليهِ وَسَلَّمَ لم يَسْتَخْلِفْ»[1] فما رَدَّ هذه الكلماتِ أحدٌ. وقالَ: «أَجْعَلُها شُورَى في النَّفرِ الذينَ تُوُفِّيَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عليهِ وَسَلَّمَ وهو عنهم راضٍ»[2]. وقدْ رَضِيَ اللهُ عنْ أكثرَ منهم، ولكنهم كانوا خِيارَ الرِّضا، وشَهِدَ لهم بالأَهْلِيةِ للخِلافةِ.

وأمّا قولُهم تَحَيَّلَ ابنُ عوفٍ حتّى رَدَّها لعثمانَ، فلَئنْ كانتْ حيلةً ولم يكنْ سِواها فلِأنَّ الحَوْلَ ليس إليه[3]. وإذا كان عملُ العِبادِ حيلةً أو كان القضاءُ

بَكْرٍ، فَكانَ أبو بَكْرٍ يُصَلِّي قائِمًا، وكانَ رَسولُ اللَّهِ ﷺ يُصَلِّي قاعِدًا، يَقْتَدِي أبو بَكْرٍ بصَلَاةِ رَسولِ اللَّهِ ﷺ والنَّاسُ مُقْتَدُونَ بصَلَاةِ أَبِي بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عنْه. أخرجه البخاري ومسلم.

١ – لما أُصيبَ عمرُ بطَعْنةٍ أَبي لُؤْلؤةَ المجوسِيّ وتيقَّنَ الناسُ أنَّه سيموتُ بها، فحثُّوهُ وحضُّوهُ على أن يُسمِّي من يتولَّى أمورَ المسلمينَ من بعدِهِ، فقالَ: "إنْ أَسْتخْلِفْ، أي: إنَّ سَمَّيتُ لكم الخليفةَ؛ فقدْ اسْتَخْلَفَ مَنْ هوَ خَيرٌ منّي أبو بَكْرٍ"، أي: لا أتحمل مسؤولية من أستخلفه بعدي "وإنْ أَتْرُكْ، أي: وإنْ أَمْتَنِع عن اختيارِ الخليفةِ، فقدْ تَرَكَ مَنْ هُوَ خيرٌ منّي رسولُ اللهِ ﷺ"، أي: وذلك مِثْل رسولِ الله صلَّى الله عليه وسلَّم أنَّه لمْ يحدِّدْ بالاسمِ مَنْ يتوَلَّى المسؤوليَّةَ بعدَهُ تصْريحًا وإن كانَ أَلْمَحَ إلى ذلك باستِخْلافِ أبي بكرٍ على الصَّلاةِ. رواه البخاري وابن حبان

٢ – يورد ابن العربي هذه الروايات ليرد على ما زعموه أن عمر عند موته جعل الخلافة شورى في ستة فيهم عليٌّ ليحرم علياً حقه فيها ويقطع عليه الطريق. كبرت كلمة تخرج من أفواههم.

٣ – بل إلى الله. وأن الله هو الموفق لابن عوف وسائر إخوانه الصحابة حتى كانوا في ذلك الموقف على ما أراده الله لهم من صفاء النية وإخلاص القصد والعمل لله وحده، فكان اختيار خليفة عمر في أحاديث الشورى مثلاً أعلى للنفس الإنسانية عندما تكون في أعلى مراتب النبل، والتجرد عن جميع خواطر الهوى. (الخطيب).

بالحَوْلِ، فالحَوْلُ والقوةُ للهِ. وقدْ عَلِمَ كلُّ أحدٍ ألّا يَلِيَها إلا واحدٌ، فاستبدَّ عبدُ الرحمنِ بنُ عوفٍ بالأمرِ - بعدَ أنْ أخرجَ نفسَه - على أن يجتهدَ للمسلمين في الأَسَدِّ والأَشَدِّ، فكان كما فعَلَ، وولّاها مَنِ اسْتَحَقَّها، ولم يكنْ غيرُه أولى منه بها، حسْبَما بيَّنا في (مَراتبِ الخِلافة) مِنْ (أنوارِ الفَجْرِ)[١] وفي غيرِه مِنْ كُتبِ الحديثِ.

استخلاف عليٍّ

وقُتِلَ عثمانُ، فلمْ يَبْقَ على الأرضِ أَحَقُّ بها مَنْ عليٍّ. فجاءتْه على قَدَرٍ في وقتِها ومَحلِّها. وبيَّنَ اللهُ على يَديْه مِنَ الأحكامِ والعُلومِ ما شاء اللهُ أنْ يبيّنَ. وقدْ قالَ عُمَرُ «لولا عليٌّ لهلَكَ عُمَرُ»[٢].

وظَهَرَ مِنْ فِقْهِهِ وعِلْمِه في قتالِ أهلِ القِبلَةِ - مِنَ اسْتِدْعائِهم ومُناظَرَتِهم وتَرْكِ مُبادَرَتِهم، والتقدُّمِ إليهم قَبْلَ نَصْبِ الحَرْبِ معهم ونِدائِه: لا تَبْدَأوا بالحَرْبِ، ولا يُتْبَعْ مُوَلٍّ، ولا يُجْهَزْ على جَريحٍ، ولا تُهاجُ امرأةٌ[٣]، ولم يَغْنَمْ لهم مالاً. وأَمْرُه

---

١ - هو التفسير الكبير لابن العربي في ثمانين مجلداً. (الخطيب).

٢ - حديث لا يثبت. ولهذا شكك البيهقي في سنده قائلاً «وهذا إن ثبت» (سنن البيهقي٧/٤٤٣). بل الثابت الصحيح في حق عمر قول النبي ﷺ: "أول من يصافحه الحقُّ عمر" ، وقوله "إن الله وضع الحق على لسان عمر يقول به" وقوله "لو كان من بعدي نبي لكان عمر".

٣ - يعني لا تخوَّف.

بقَبولِ شَهادتِهم والصَّلاةِ خَلْفَهم، حتّى قالَ أهلُ العِلْمِ: لولا ما جَرَى ما عَرَفْنا حُكْمَ قتالِ أهلِ البَغْيِ[١].

وأمّا خُروجُ طَلْحةَ والزُّبَيْرِ فقدْ تَقَدَّم بيانُه[٢].

وأمّا تَكْفيرُهم للخَلْقِ، فهمُ الكُفّارُ، وقدْ بيَّنا أحوالَ أهلِ الذُّنوبِ التي ليس منهم عليها شَرٌّ في غيرِ ما كتابٍ، وشَرْحناها في كلِّ بابٍ.

اختصام العباس وعليّ عند عُمَر

فإنْ قيلَ: فقدْ قالَ العباسُ في عليٍّ ما رواهُ الأئمةُ[٣] أنَّ العباسَ وعَلياً اخْتَصَما عندَ عُمَرَ في شأنِ أوقافِ رسولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عليهِ وَسَلَّمَ[٤]، فقال العباسُ

---

١ – قال فيهم عليٌّ: إخواننا بغوا علينا. وقد أفرد الماوردي للمسلمين البغاة في كتابه الأحكام السلطانية باباً، ومما أورده فيه أنَّ أَحَدَهُمْ قال وَهُوَ يَخْطُبُ عَلَى مِنْبَرِهِ: لَا حُكْمَ إلَّا لِلَّهِ، فَقَالَ عَلِيٌّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: كَلِمَةُ حَقٍّ أُرِيدَ بِهَا بَاطِلٌ، لَكُمْ عَلَيْنَا ثَلَاثٌ: لَا نَمْنَعُكُمْ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَنْ تَذْكُرُوا فِيهَا اسْمَ اللَّهِ، وَلَا نَبْدَؤُكُمْ بِقِتَالٍ، وَلَا نَمْنَعُكُمْ الْفَيْءَ مَا دَامَتْ أَيْدِيكُمْ مَعَنَا. (الأحكام – الفصل الثاني: قتال أهل البغي).

٢ – بأنه كان خروجاً للتفاهم والتعاون على إقامة الحدود الشرعية في مقتل أمير المؤمنين عثمان.

٣ – ذكر الخصوم هذه القصة ليشيروا من طرف خفي إلى أن الصحابة كانوا يسيء بعضهم الظن في بعض، فهذا العباس وعليّ يستبان، وهما قد أساءا الظن في أبي بكر وعمر. وهدف الخصوم نزع الهيبة عن الصحابة ليتمكنوا بعد ذلك من القول فيهم بما شاءوا من تجريح. وقد تولى ابن العربي الرد على هذه الفرية أيضاً.

٤ – جاءا يختصمان في أموالِ بَني النَّضيرِ التي أفاءَها اللهُ على نَبيِّه، ومَن يَتَوَلَّى صرفها ورعايتها والقيام عليها.

لعُمَرَ: يا أميرَ المؤمنينَ، اقْضِ بيْني وبيْنَ هذا الظالِمِ الكاذِبِ الآثِمِ الجائرِ[١].
فقالَ الرَّهْطُ[٢] لِعُمَرَ: يا أميرَ المؤمنينَ، اقْضِ بينَهما وأَرِحْ أحدَهما مِنَ الآخِرِ.
فقالَ عُمَرُ: أَنْشُدُكُمُ اللهَ الذي بإذْنِه تَقُومُ السماءُ والأرضُ، هلْ تَعْلَمُونَ أنَّ رسولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عليهِ وَسَلَّمَ قال: «لا نُورَثُ، ما تَرَكْناه صَدَقَةٌ» يريدُ بذلكَ نفْسَه؟ قالوا: قدْ قالَ ذلكَ. فأقبلَ على العبّاسِ وعليٍّ فقالَ: أَنْشُدُكما اللهَ، هلْ تَعلمانِ أنَّ رسولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عليهِ وَسَلَّمَ قالَ ذلكَ؟ قالا: نعمْ. قالَ عُمَرُ: إنَّ اللهَ خَصَّ رسولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عليهِ وَسَلَّمَ في هذا الفَيْءِ بشيْءٍ لم يُعْطِهِ أحداً غيرَه[٣]، فعَمِلَ فيه رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عليهِ وَسَلَّمَ حياتَه[٤]، ثم تُوُفِّيَ، فقالَ أبو بكرٍ: أنا وليُّ رسولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عليهِ وَسَلَّمَ، فقَبَضَها سَنَتينِ في إمارتِه فعَمِلَ فيها بما عَمِلَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عليهِ وَسَلَّمَ. وأنتما تَزْعُمانِ أنَّ أبا بكرٍ كاذِبٌ غادِرٌ خائِنٌ، واللهُ يَعْلَمُ إنَّه لصادِقٌ بارٌّ راشِدٌ تابِعٌ للحَقِّ .... وذَكَرَ الحديثَ[٥].

---

[١] – قال الْمَازرِيّ إن هَذِه الألفاظَ ننزه الْقَائِلَ وَالْمقولَ فِيهِ عَنْهَا وننسبها إِلَى أَن بعض الروَاة وَهَمَ فِيهَا وأخطأ في نقلها، وَقد أزالها بعضُ الرواة من كتبهم تورعاً، وقيل إنها لو ثبتت لكان الْعَبَّاس قَالهَا إدلالاً عَلَى عليٍّ، لِأَنَّهُ بِمَنْزِلَة وَالِده وليس بالضرورة أن يكون صدر من عليٍّ مثل هذا الذي قاله العباس.

٢ – هم عُثمانُ، وعَبدُ الرَّحمنِ بنُ عَوفٍ، والزُّبَيرُ، وسَعدُ بنُ أبي وَقَّاصٍ. وكانوا عند عمر وشهدوا هذا التخاصم.

٣ – وذلك قوله تعالى: {وَمَا أَفَاء اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ}.

٤ – كان ينفقه ﷺ على نِسائِه، وما تَبَقَّى منه جَعَلَه في مالِ اللهِ في بَيتِ المالِ الخاصِّ بالمسلِمينَ.

[٥] – جاء ذكر هذا التقاضي بين العباس وعليّ عند أمير المؤمنين عمر من حديث مالك بن أوس بن الحدثان النصري في صحيح البخاري.

قلْنا: أمّا قولُ العباسِ لعليٍّ فقولُ الأبِ للابنِ، وذلكَ على الرأْيِ محمولٌ، وفي سبيلِ المغفرةِ مَبذولٌ، وبَيْنَ الكِبارِ والصِّغارِ - فكيفَ الآباءُ والأبناءُ - مغفورٌ موصولٌ[١].

وأما قولُ عُمَرَ إنهما اعْتَقَدا أنَّ أبا بكرٍ ظالمٌ خائنٌ غادِرٌ[٢] وكذلكَ اعْتَقَدا فيه فإنَّما ذلكَ خَبَرٌ عنْ الاختلافِ في نازلةٍ وقعَتْ مِنْ الأحكامِ، رَأَى فيها هذا

---

١ - اعتذار القاضي ابن العربي عما وقع بين العباس وعليّ هو في إطار حُسن الظن بالصحابة الذي نحن مأمورون به {وَالَّذِينَ جَاؤُوا مِن بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلّاً لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ} وهذا هو الفرق المسلمين المتبعين وبين الروافض الضالين في تنزيه الصحابة عما لا يليق بهم.

٢ - في صحيح البخاري عن عائِشةَ رضي الله عنها أنَّ فاطِمةَ رضي الله عنها بنتَ النَّبيِّ ﷺ أرْسَلَتْ إلى أبي بَكْر الصِّدِّيق رضي الله عنه تَسألُه عَن ميراثِها مِن أبيها رَسولِ اللهِ ﷺ مِمَّا أفاءَ اللهُ عليه، أي: مِمَّا أعْطاه اللهُ مِن مالِ الكُفَّار مِن غَيرِ حَرب وَلا جِهاد بالمدينةِ مثل أرضِ بَني النَّضيرِ حينَ أجْلاهم، وَفَدكٍ مِمَّا صالحَ أهلَها على نِصفِ أرضِها وَما بَقيَ مِن خُمُسِ خَيْبَرَ. وَهُنا رَفَضَ أبو بَكْر رضي الله عنه، وَذَكَرَ لَها قولَ النَّبيِّ ﷺ: إنَّا مَعاشرَ الأنبياءِ لا نورَثُ، ما تَرَكْنا صَدَقةٌ. وَإنِّي واللهِ لا أُغيِّر شيئًا مِن صَدَقةِ رَسولِ اللهِ ﷺ عَن حالِها الَّتي كانَت عليها في عَهْدِ رَسولِ اللهِ ﷺ، وَلأَعمَلَنَّ فيها بِما عَمِلَ بِه رَسولُ اللهِ ﷺ، فامتَنَعَ أبو بَكْر رضي الله عنه أن يَدفَعَ إلى فاطِمةَ رضي الله عنها مِنها شَيئًا، فَغَضِبَت فاطِمةُ رضي الله عنها على أبي بَكْر رضي الله عنه وَهَجَرَتْه وَلَمْ تُكَلِّمْه حَتَّى تُوُفِّيَتْ. وَعاشَت بَعدَ النَّبيِّ ﷺ سِتَّةَ أشْهُرٍ، فَلَمَّا تُوُفِّيَتْ دَفَنَها زَوجُها عَليٌّ رضي الله عنه لَيلًا وَلَمْ يُعلِم بِها أبا بَكْر رضي الله عنه؛ لأنَّه ظَنَّ أنَّ ذَلك لا يَخْفى عَنه، وَلَيْسَ فيه ما يَدُلُّ على أنَّه لَم يَعلَم بِمَوتِها ولا صَلَّى عليها، وصلَّى عليها عَليٌّ رضي الله عنه، وَكانَ النَّاس يَحتَرِمونه حَياةَ فاطِمةَ رضي الله عنها إكْرامًا لَها، فَلمَّا تُوُفِّيَتْ استَنكَرَ عَليٌّ وُجوهَ النَّاسِ؛ لأنَّهم قَصَروا عَن ذَلك الاحتِرامِ لاستِمرارِه على عَدَمِ مُبايَعتِه أبا بَكْر رضي الله عنه، وَكانوا يَعذِرونَه أيَّامَ حَياةِ فاطِمةَ رضي الله عنها عَن تَأَخُّرِه عَن ذَلك بِاشتِغالِه بِها وَتَسْلية خاطِرِها، فالْتَمَسَ عَليٌّ رضي الله عنه مُصالَحَةَ أبي بَكْر رضي الله عنه ومُبايَعتَه وَلَمْ يَكُن يُبايِع أبا بَكْر رضي الله عنه تِلْكَ الأشْهُر السِّتَّة، وَلَعَلَّ ذَلك إمَّا لاشْتِغالِه بِفاطِمةَ رضي الله عنها، أو اكْتِفاءً بِمَن بايَعَه، فَأرْسَلَ عَليٌّ رضي الله عنه إلى أبي بَكْر الصِّدِّيق رضي الله عنه أن ائْتِنا وَلا يَأْتِنا أحَدٌ معك كَراهيةً منه لمحْضَرِ عُمَرَ رضي الله عنه؛ وَذَلك لِمَا عَرَفوه مِن قُوَّةِ عُمَرَ رضي الله عنه وَصَلابَتِه

رأياً ورَأَى فيها أولئك رَأياً، فحَكَمَ أبو بكرٍ وعُمَرُ بما رَأَيا، ولم يَرَ العباسُ وعليٌّ ذلكَ. ولكنْ لَمّا حَكَما سَلَّما لحُكْمِهما كما يُسَلَّمُ لحُكْمِ القاضِي في المخْتَلَفِ فيه. وأمَّا المحكومُ عليه فرَأَى أنَّه قدْ وَهَمَ ولكنْ سَكَتَ وسَلَّمَ[١].

فإنْ قيلَ: إنَّما يَكُونُ ذلكَ في أَوَّلِ الحالِ والأمرُ لم يَظْهَرْ إذا كان الحُكْمُ باجتهادٍ، وإنَّما كان هذا الحُكْمُ على مَنْعِ فاطمةَ والعباسِ الميراثَ بقولِ النبيِّ صَلَّى اللهُ عليهِ وَسَلَّمَ «لا نُورَثُ ما تَرَكْناهُ صَدَقَةٌ» وعَلِمَه أزواجُ النبيِّ صَلَّى اللهُ عليهِ وَسَلَّمَ وأصحابُه العَشَرَةُ وشَهِدُوا به، فبَطَلَ ما قُلْتُمُوه.

في القَولِ والفِعلِ، فَقالَ عُمَرُ رضي الله عنه لَمَّا بَلَغَه ذَلك لأبي بَكْر: لا واللهِ لا تَدْخُل عليهم وَحدَك. وَلَكِن أبو بَكْر رضي الله عنه قالَ لَه: وَما عَسَيت أن يَفعَل بي عَلِيٌّ وَمَن مَعَه. واللهِ لآتيَنَّهم فَدَخَلَ عليهم أبو بَكر رضي الله عنه فَتَشهَّد عَليٌّ رضي الله عنه، فَقالَ: إنَّا قَد عَرَفنا فَضْلَك، وَما أعْطاك اللهُ وَلَمْ نَحْسُدك على الخِلافةِ، وَلَكِنَّك اسْتَبَدَدتَ علينا بِالأمرِ، وَلَمْ تُشاوِرنا في أمْر الخِلافةِ، وَكُنَّا نَرى لقَرابتِنا مِن رَسولِ الله ﷺ نَصيبًا مِن المشاوَرةِ. وَلَمْ يَزَلْ عَليٌّ رضي الله عنه يَذكُر لَه ذَلك حَتَّى فاضَت عَيْنا أبي بَكْر رضي الله عنه مِن الرِّقَّةِ. وَهُنا رَدَّ أبو بَكْر رضي الله عنه فَحَلَفَ أنَّ قَرابةَ النَّبيِّ ﷺ أحَبُّ مِن أن يَصِلَ رَحِمَه، وَأنَّ ما وَقَعَ مِن التَّنازُعِ في الأموالِ الَّتي تَرَكَها النَّبيُّ ﷺ فَلَم يُقَصِّر فيها وَلَمْ يَترُك أمرًا رَأى النَّبيَّ ﷺ يَصنَعه فيه إلَّا صَنَعَه. فاتَّفَقوا على البَيْعةِ بَعدَ الزَّوالِ، فَلَمَّا صَلَّى أبو بَكْر رضي الله عنه الظُّهْرَ عَلا المِنْبَرَ فَتَشهَّد وَذَكَر شَأْنَ عَليٍّ رضي الله عنه وَتَخَلُّفَه عَن البَيْعةِ، وَأنَّه قَبِلَ عُذْرَه بالَّذي اعْتَذَرَ إليه ثُمَّ استَغفَرَ. وَتَشَهَّدَ عَليٌّ رضي الله عنه فَعَظَّمَ حَقَّ أبي بَكْر رضي الله عنه وَذَكَرَ فَضلَه وَسابِقَته في الإسْلامِ، ثُمَّ مَضى إلى أبي بَكْر رضي الله عنه فَبايَعَه، وَحَدَّث أنَّه لَم يَحمِلْه على الَّذي صَنَعَ مِن التَّأخُّرِ حَسَدٌ وَلا إنْكارٌ للَّذي فَضَّلَه الله بِه، وَلَكِن كُنَّا نَرى لَنا في أمْر الخِلافةِ نَصيبًا فاسْتَبَدَّ علينا فَغَضِبنا في أنفُسِنا. فَسُرَّ بِذَلك المسلِمونَ وَقالوا: أصَبْتَ. وَكانَ وِدُّ المسلِمينَ إلى عَليٍّ رضي الله عنه قَريبًا حينَ راجَعَ الأمرَ بِالمعروفِ وَهوَ الدُّخولُ فيما دَخَلَ النَّاسُ فيه مِن المبايَعةِ.

١ – وكان خلافاً قديماً في واقعة بعينها، فلما تبين لهما الحق انقادا إليه وسلَّما له. وتذكير عمر لهما بهذا إنما هو من باب ذكر فضل الله عليهما بأن دلهما على الصواب.

تفسير (لا نورث، ما تركناه صدقة)

قُلْنا: يُحْتَمَلُ أنْ يكونَ ذلكَ في أوَّلِ الحالِ – والأمرُ لم يَظْهَرْ بَعْدُ[١] – فرَأَيا أنَّ خَبَرَ الواحدِ في مُعارضةِ القُرآنِ والأصولِ والحُكْمِ المشهورِ في الزمنِ لا يُعْملُ به حتّى يَتَقَرَّرَ الأمرُ، فلمّا تَقَرَّرَ سَلَّما وانْقادا، بدليلِ ما قدَّمنا مِنَ الحديثِ الصحيحِ إلى آخرِه، فليُنْظَرْ فيه.

وهذا أيضاً ليسَ بِنَصٍّ في المسألةِ لأنَّ قولَه «لا نُورَثُ، ما تَرَكْناهُ صَدَقَةٌ» يَحْتَمِلُ أنْ يكونَ: لا يَصِحُ ميراثُنا، ولا أنا أهلٌ له، لأنه ليس لي مُلْكٌ ولا تَلَبَّسْتُ بشيءٍ مِنَ الدُّنيا يَنْتَقِلُ إلى غَيْري عنّي.

ويحتمل (لا نُورَثُ) حُكْمٌ وقوله «ما تَرَكْناه صَدَقَةٌ» حُكْمٌ آخرُ مُعَيَّنٌ أَخْبَرَ به أنه قدْ أَنْفَذَ الصَّدَقَةَ فيما كان بِيَدِهِ مِنْ سَهْمِه الْمُتَصَيِّرِ إليه بتَسْويغِ اللهِ له وكان مِنْ ذلكَ مخصوصاً لَمّا لم يُوجِفِ المسلمونَ عليه بِخَيلٍ ولا رِكابٍ، وكانَ له سَهْمُه مَعَ المسلمينَ فيما غَنِمُوا بما أَخَذُوه عُنْوَةً.

ويَحْتَمِلُ أنْ يكونَ «صَدقَةً» منصوباً على أنْ يكونَ حالاً مِنَ المتروكِ.

إلى هذا أشارَ أصحابُ أبي حَنِيفةَ، وهو ضعيفٌ، وقد بيَّناه في موضِعِه.

---

١ – بل كان ذلك بالفعل في أوَّلِ الحالِ والأمرُ لم يَظْهَرْ بَعْدُ.

بَيْدَ أنَّه يَأْتيكَ مِنْ هذا أنَّ المسألةَ مَجْرى الخلافِ ومَحَلَّ الاجتهادِ[1]، أنها ليستْ بِنَصٍّ مِنَ النبيِّ صَلَّى اللهُ عليهِ وَسَلَّمَ فتَحْتَمِلُ التَّصويبَ والتَّخْطِئةَ مِنَ المجتهدِينَ واللهُ أعلمُ.

قاصمة (تنازُل الحسن)

ثم قُتِلَ عليٌّ. قالتِ الرافِضةُ: فعَهِدَ إلى الحَسَنِ، فسَلَّمَها الحَسَنُ إلى مُعاوِيَةَ، فقيلَ له «مُسَوِّدُ وجوهِ المؤمنينَ»[2] وفَسَّقَتْه جماعةٌ مِنَ الرافضةِ، وكَفَّرَتْه طائفةٌ لأجلِ ذلكَ.

١ – ولعل فاطمة وعلياً والعباس رضي الله عنهم أخذوا بهذا الاجتهاد، فهم مأجورون على كل حال. ولاشك أن علياً إذا كان أخذ به، فقد رجع عنه لأنه لم ينفذه في خلافته.

٢ – من عناصر إيمان الرافضة – بل العنصر الأول في إيمانهم – اعتقادهم بعصمة الحسن وأبيه وأخيه، وتسعة من ذرية أخيه. ومن مقتضى عصمتهم – وفي طليعتهم الحسن بعد أبيه – أنهم لا يخطئون، وأن كل ما صدر عنهم فهو حق، والحق لا يتناقض. وأهم ما صدر عن الحسن بن علي بيعته لأمير المؤمنين معاوية، وكان ينبغي لهم أن يدخلوا في هذه البيعة، وأن يؤمنوا بأنها الحق لأنها من عمل المعصوم عندهم. لكن المشاهد من حالهم أنهم كافرون بها. ومخالفون فيها لإمامهم المعصوم. ولا يخلو هذا من أحد وجهين: فإما أنهم كاذبون في دعوى العصمة لأئمتهم الاثني عشر فينهار دينهم من أساسه، لأن عقيدة العصمة لهم هي أساسه، ولا أساس له غيرها. وإما أن يكونوا معتقدين عصمة الحسن، وأن بيعته لمعاوية هي من عمل المعصوم، لكنهم خارجون على الدين، ومخالفون للمعصوم فيما جنح إليه وأراد أن يلقى الله به. ويتواصون بهذا الخروج على الدين جيلا بعد جيل وطبقة بعد طبقة، ليكون ثباتهم على مخالفة الإمام المعصوم عن إصرار وعناد ومكابرة وكفر. ولا ندري أي الوجهين يطوح بهم في مهاوي الهلكة أكثر مما يطوح بهم الوجه الآخر، ولا ثالث لهما. فالذين قالوا منهم إن الحسن "مسود وجوه المؤمنين" لا يحمل كلامهم إلا على أنه "مسود وجوه المؤمنين بالطاغوت" أما المؤمنون بنبوة جد الحسن فيرون صلحه مع معاوية وبيعته له من أعلام النبوة، لأنها حققت ما تنبأ به في سبطه سيد شباب أهل الجنة من أنه سيصلح الله به بين فئتين

عاصمة (ببيان الحقيقة)

قال القاضِي أبو بَكرٍ رَضِيَ اللهُ عنه: أمّا قولُ الرافضةِ إنه عَهِدَ إلى الحَسَنِ فباطلٌ. ما عَهِدَ إلى أحدٍ[١]. ولكنَّ البيعةَ للحسَنِ مُنْعَقَدَةٌ[٢]، وهو أَحَقُّ مِنْ مُعاوِيَةَ ومِنْ كَثيرٍ غيرِه[٣]، وكان خروجُه لمثلِ ما خَرَجَ إليه أبوه مِنْ دُعاءِ الفئةِ الباغيةِ إلى الانقيادِ للحقِّ والدخولِ في الطاعةِ، فآلتِ الوساطةُ إلى أنْ تَخَلّى عنِ الأمرِ صِيانةً لحَقْنِ دِماءِ الأُمةِ وتَصديقاً لقولِ نبيِّ الرحمةِ حيثُ قال على المنبرِ: «ابْني هذا سَيِّدٌ، ولعلَّ اللهَ أنْ يُصْلِحَ به بينَ فئتينِ عظيمتينِ مِنَ المسلمينَ»[٤].

عظيمتين من المسلمين كما سيأتي بيانه. وكل الذين استبشروا بهذه النبوة وبهذا الصلح يعدون الحسن "مبيض وجوه المؤمنين". (محب الدين الخطيب).

١ – لما أيقن عليٌّ أنه ميت بعد أن طعنه ابن ملجم شل الله يده (قالوا له: ألا تستخلف علينا. قال: لا، ولكن أترككم إلى ما ترككم إليه رسول الله. قالوا: فما تقول لربك إذا أتيته؟ قال: أقول: اللهم تركتني فيهم ما بدا لك، ثم قبضتني إليك وأنت فيهم، فإن شئت أصلحتهم، وإن شئت أفسدتهم). رواه أحمد.

٢ – اختاره الصحابة ولم ينصَّ عليه أبوه. وهذا يبطل قول الإمامية إن الإمام ينص عليه من كان قبله. فهذا الحسن لم ينص عليه عليٌّ بل اختاره المسلمون.

٣ – كان الحسن رضي الله عنه تقياً ورعاً وشجاعاً صبوراً، أدى به ورعه وفضله إلى ترك الملك والدنيا رغبة فيما عند الله، وكان رضي الله عنه يشبه جده رسول الله ﷺ من رأسه إلى سرته. وكان عاقلاً حكيماً، محباً للخير فصيحاً، من أحسن الناس منطقاً وبديهة. كما كان جواداً ممدَّحاً، قاسَمَ اللهَ مالَه ثلاثَ مرات، أي تصدق بنصف ماله، وخرج من ماله كله مرتين، وكان يكثر زيارة بيت الله الحرام، ويروى أنه حج خمساً وعشرين حجة ماشياً وإن الإبل لتقاد معه، وكان يقول إني لأستحي من ربي أن ألقاه ولم أمش إلى بيته.

٤ – اسْتَقْبَلَ الحَسَنُ بنُ عَلِيٍّ مُعَاوِيَةَ بكَتَائِبَ أمْثَالِ الجِبَالِ، فَقالَ عَمْرُو بنُ العَاصِ: إنِّي لَأَرَى كَتَائِبَ لا تُوَلِّي حتَّى تَقْتُلَ أقْرَانَهَا، فَقالَ له مُعَاوِيَةُ: أيْ عَمْرُو، إنْ قَتَلَ هَؤُلَاءِ هَؤُلَاءِ وهَؤُلَاءِ هَؤُلَاءِ، مَن لي بأُمُورِ النَّاسِ؟ مَن لي بنِسَائِهِمْ؟

فنَفَذَ الميعادُ، وصَحَّتِ البَيْعةُ لِمُعاوِيَةَ، وذلكَ لتحقيقِ رجاءِ النبيِّ صَلَّى اللهُ عليهِ وَسَلَّمَ، فمُعاوِيَةُ خَليفةٌ، وليس بمَلِكٍ.

فإنْ قيلَ: فقدْ رُويَ عنْ سَفينةَ أنَّ النبيَّ صَلَّى اللهُ عليهِ وَسَلَّمَ قالَ «الخلافةُ ثلاثونَ سنةً، ثم تَعودُ مُلْكاً» فإذا عدَدْنا مِنْ وِلايةِ أبي بكرٍ إلى تسليمِ الحسنِ كانتْ ثلاثينَ سنةً لا تَزيدُ ولا تَنْقُصُ يوماً، قلْنا:

خذْ ما تراهُ ودَعْ شيئاً سمعْتَ به في طَلْعةِ البدْرِ ما يُغنيكَ عنْ زُحَلِ[1]

مَن لي بضَيْعَتِهِمْ؟ فَبَعَثَ إلَيْهِ رَجُلَيْنِ مِن قُرَيْشٍ مِن بَنِي عبدِ شَمْسٍ: عَبْدَ الرَّحْمَنِ بنَ سَمُرَةَ، وعَبْدَ اللَّهِ بنَ عَامِرِ بنِ كُرَيْزٍ، فَقالَ: اذْهَبَا إلى هذا الرَّجُلِ، فَاعْرِضَا عليه، وقُولَا له: واطْلُبَا إلَيْهِ. فأتَيَاهُ، فَتَكَلَّمَا وطَلَبَا إلَيْهِ، وقالَا: فإنَّه يَعْرِضُ عَلَيْكَ كَذَا وكَذَا، ويَطْلُبُ إلَيْكَ ويَسْأَلُكَ قالَ: فمَن لي بهذا؟ قالَا: نَحْنُ لكَ به، فَما سَأَلَهُما شيئًا إلَّا قالَا: نَحْنُ لكَ به، فَصَالَحَهُ. فَقالَ الحَسَنُ: ولقَدْ سَمِعْتُ أبَا بَكْرَةَ يقولُ: رَأَيْتُ رَسولَ اللَّهِ ﷺ علَى المِنْبَرِ والحَسَنُ بنُ عَلِيٍّ إلى جَنْبِهِ، وهو يُقْبِلُ علَى النَّاسِ مَرَّةً وعليه أُخْرَى، ويقولُ: إنَّ ابْنِي هذا سَيِّدٌ، ولَعَلَّ اللَّهَ أنْ يُصْلِحَ به بيْنَ فِئَتَيْنِ عَظِيمَتَيْنِ مِنَ المُسْلِمِينَ. رواه البخاري في صحيحه.

١ – البيت للمتنبي، قال العكبري في شرحه: وهذا من قول الحكيم: العيان شاهدٌ لنفسه، والإخبارُ يدخل عليه الزيادة والنقصان، فأولى ما أخذ ما كان دليلًا على نفسه. وقد استشهد به ابن العربي تأكيداً على أهمية الأخذ بما صح وطرح ما سواه.

هذا الحديثُ[١] في ذِكْرِ الحَسَنِ بالبِشارةِ له والثَّناءِ عليه لجَرَيانِ الصُّلحِ بينَ يَدَيهِ، وتسليمُ الأمرِ لِمُعاوِيَةَ عَقْدٌ منه له[٢]. وهذا حديثٌ لا يَصِحُّ[٣]. ولو صَحَّ فهو مُعارِضٌ لهذا الصُّلحِ المتَّفَقِ عليه، فوَجَبَ الرجوعُ إليه.

فإنْ قيلَ: ألم يكنْ في الصحابةِ أَقْعَدُ[٤] بالأمرِ مِنْ مُعاوِيَةَ؟

قلنا: كثير[٥].

---

١ - يعني حديث "إن ابني هذا".

٢ - أي عقد بيعة من الحسن لمعاوية. وكان ذلك في موضع يقال له مسكن على نهر دجيل سنة إحدى وأربعين. فسمي ذلك العام عام الجماعة لاجتماع المسلمين بعد الفرقة، وتفرغهم للحروب الخارجية والفتوح ونشر دعوة الإسلام بعد أن عطل قتلة عثمان سيوف المسلمين عن هذه المهمة نحو خمس سنوات كان يستطيع المسلمون أن يسجلوا فيها أمجادا لا يستطيع غيرهم مثلها في خمس قرون. ولله في كل شيء حكمة. الخطيب.

٣ - يعني حديث «الخلافةُ ثلاثونَ سنةً ثم تَعود مُلكاً» وهذا الحديث صححه أحمد، لكن الصواب أن الحديث لم يصح. ومدار الحديث على سعيد بن جهمان، وهو ضعيف عند أكثر العلماء. وسفينة لا تصح صحبته فهو مولى فارسي، اسمه مجهول ادعى أنه كان خادم النبي ﷺ. وليس من دليل على صحبته إلا ادعاءه هذا. ولو كان خادم النبي ﷺ لكان له ذكر بين الصحابة، فأين هم عنه؟

٤ - يعني أقرب إلى الخلافة يقوم بأمرها ويكفي المسلمين شؤونها.

٥ - مثل سعد بن أبي وقاص المجاهد الفاتح أحد العشرة المبشرين بالجنة، وعبد الله بن عمر بن الخطاب عالم الصحابة الثابت على قدم المصطفى في جليل الأمور ودقيقها، وغيرهما من هذه الطبقة وقريب منها، وهؤلاء هم الذين ترك لهم الحَكَمان - أبو موسى وعمرو - أمر الإمامة بعد حرب صفين ليروا فيها رأيهم، فلما رأوا اجتماع الأمة كلها على معاوية دخلوا كلهم في إمامته وبايعوه. بعد أن كانوا معتزلين الفتنة من بعد عثمان (انظر فتح الباري ١٣ : ٥٠). ومعاوية نفسه يعرف للناس أقدارهم؛ فقد جاء في البداية والنهاية (٨ : ١٣٤) أن معاوية خطب فقال: "يا أيها الناس، ما أنا بخيركم، وإنَّ منكم لمن هو خير مني: عبد الله بن عمر، وعبد الله بن عمرو وغيرهما من الأفاضل. ولكن عسى أن أكون أنفعكم ولاية، وأنكاكم في عدوكم، وأدرّكم حلباً". (الخطيب).

فضائل مُعاوِيَة

ولكنَّ مُعاوِيَة اجتَمَعَتْ فيه خِصالٌ: وهي أنَّ عُمَرَ جَمَعَ له الشامَاتِ كلَّها وأَفْرَدَه بها، لِمَا رَأَى مِنْ حُسْنِ سِيرتِهِ وقيامِهِ بحمايةِ البَيْضةِ وسّدِ الثغورِ[١] وإصلاحِ الجُندِ والظُّهورِ على العَدُوِّ[٢] وسياسةِ الخَلْقِ[٣].

---

١ – وقد بلغ من همته وعظيم عنايته بذلك أن أرسل يهدد ملك الروم – وهو في معمعة القتال مع علي في صفّين – وقد بلغه أن ملك الروم اقترب من الحدود في جنود عظيمة، فكتب إليه يقول "والله لئن لم تنته وترجع إلى بلادك، لأصطلحن أنا وابن عمي عليك، ولأخرجنك مع جميع بلادك، ولأضيقن عليك الأرض بما رحبت". فخاف ملك الروم وانكف. البداية والنهاية ٨:١١٩. (الخطيب).

٢ - في البر والبحر، فكانت رايات الإسلام تخترق الآفاق بأيدي جنده ممثلة العزة التي أرادها الله لدينه ورسالة رسوله وللمؤمنين بها. وكما أن فتح مصر ودخولها في الإسلام والعروبة من عمل عمرو بن العاص وحده فإن تأسيس الأسطول الإسلامي والفتوح البحرية الأولى من عمل معاوية وحده. ومما ينبغي للمشتغل بتاريخ العروبة والإسلام أن يعلمه أن معاوية مفطور على سجية السيادة والقيادة وصناعة الحكم، أخرج ابن كثير في التاريخ (٨ : ١٣٥) أن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: "ما رأيت أحداً أسود من معاوية" – يعني جدير بالسيادة والقيادة – قال جبلة بن سحيم قلت ولا عمر؟ قال "كان عمر خيرا منه، وكان معاوية أسود منه". وتقدم قول عبد الله بن العباس "ما رأيت رجلا كان أخلق بالمُلْك من معاوية". (الخطيب).

٣ – قال شيخ الإسلام ابن تيمية في (منهاج السنة ٣ : ١٨٥): لم يكن من ملوك الإسلام ملِك خيرا من معاوية، ولا كان الناس في زمان ملِك من الملوك خيرا منهم في زمن معاوية، إذا نسبت أيامه إلى من بعده. وإذا نسبت إلى أيام أبي بكر وعمر ظهر التفاضل. وقد روى أبو بكر الأثرم عن قتادة قال: لو أصبحتم في مثل عمل معاوية لقال أكثركم: هذا المهدي. وقال: كنا عند الأعمش فذكروا عمر بن عبد العزيز وعدله، فقال الأعمش: فكيف لو أدركتم معاوية؟ قالوا: في حلمه؟ قال: لا والله بل في عدله. وروى عبد الله بن أحمد بن حنبل عن أبي إسحاق السبيعي أنه ذكر معاوية فقال: لو أدركتموه أو أدركتم أيامه لقلتم: كان المهدي. وهذه الشهادة من هؤلاء الأئمة الأعلام لأمير المؤمنين معاوية صدى استجابة الله دعاء نبيه لهذا الخليفة الصالح يوم قال "اللهم اجعله هادياً مهديا واهد به" وهو من أعلام النبوة. (الخطيب)

وقد شُهِدَ له في صَحيحِ الحديثِ بالفِقْهِ[١]. وشُهِدَ بخِلافتِهِ في حديثِ أُمِّ حَرامٍ[٢] أنَّ ناساً مِنْ أُمَّتِهِ يَرْكبونَ ثَبَجَ البحرِ الأخضرِ مُلوكاً على الأَسِرَّةِ أو مِثْلَ الملوكِ على الأَسِرَّةِ، وكانَ ذلكَ في وِلايتِه[٣].

ويُحْتَمَلُ أنْ تكونَ مراتبُ في الولايةِ: خلافةٌ، ثم مُلْكٌ. فتكونُ ولايةُ الخلافةِ للأربعةِ[٤]، وتكونُ ولايةُ الْمُلكِ لابتداءِ مُعاوِيَةَ. وقدْ قالَ اللهُ في داودَ وهو خيرٌ مِنْ كلِّ مُعاوِيَةٍ: {وَآتَاهُ اللهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ} فجَعَلَ النُّبُوَّةَ مُلْكاً. فلا تَلْتَفِتوا إلى أحاديث ضَعُفَ سَنَدُها ومعناها[٥].

١ – في كتاب مناقب الصحابة من صحيح البخاري أن ابن عباس قيل له: "هل لك في أمير المؤمنين معاوية، فإنه ما أوتر إلا بواحدة. فقال: إنه فقيه". وكان لأهل الشام كالإمام مالك لأهل المدينة، فعن ربيعة بن يزيد الإيادي أحد الأئمة الأعلام عن عبد الرحمن بن أبي عميرة أن النبي قال لمعاوية: "اللهم علمه الكتاب والحساب وَقِهِ العذاب". (الخطيب).

٢ – أم حرام بنت ملحان صحابية من الأنصار من أهل قباء، كان النبي ﷺ إذا ذهب إلى قباء استراح عندها، وهي خالة خادمه أنس بن مالك.

٣ – في صحيح البخاري: دَخَلَ رَسول اللهِ ﷺ علَى أم حرام ابْنَةِ مِلْحَانَ، فَاتَّكَأَ عِنْدَهَا، ثُمَّ ضَحِكَ فَقالَتْ: لِمَ تَضْحَكُ يا رَسولَ اللَّهِ؟ فَقالَ: نَاسٌ مِن أُمَّتي يَرْكَبُونَ البَحْرَ الأخْضَرَ في سَبيلِ اللَّهِ، مَثَلُهُمْ مَثَلُ المُلُوكِ علَى الأسِرَّةِ، فَقالَتْ: يا رَسولَ اللَّهِ ادْعُ اللَّهَ أنْ يَجْعَلَنِي منهمْ، قالَ: اللَّهُمَّ اجْعَلْهَا منهمْ، ثُمَّ عَادَ فَضَحِكَ، فَقالَتْ له مِثْلَ – أوْ مِمَّ – ذلكَ، فَقالَ لَهَا مِثْلَ ذلكَ، فَقالَتْ: ادْعُ اللَّهَ أنْ يَجْعَلَنِي منهمْ، قالَ: أنْتِ مِنَ الأوَّلِينَ ولَسْتِ مِنَ الآخِرِينَ، قالَ: قالَ أنَسٌ: فَتَزَوَّجَتْ عُبَادَةَ بنَ الصَّامِتِ فَرَكِبَتِ البَحْرَ مع بنْتِ قَرَظَةَ، فَلَمَّا قَفَلَتْ: رَكِبَتْ دَابَّتَهَا، فَوَقَصَتْ بهَا، فَسَقَطَتْ عَنْهَا، فَمَاتَتْ. وكان ذلك في عهد معاوية رضي الله عنه.

٤ – أبو بكر وعمر وعثمان وعليّ.

٥ – يشير إلى حديث سفينة «الخلافةُ ثلاثونَ سنةً ثم تَعود مُلكاً» الذي يُخرج معاوية من الخلافة.

ولو اقْتَضَتِ الحالُ النَّظَرَ في الأُمورِ لكانَ – واللهُ أعلمُ – رأيٌ آخَرُ للجُمهورِ، ولكنِ انْعَقدَتِ البَيْعةُ لِمُعاوِيَةَ بالصِّفَةِ التي شاءها اللهُ، على الوجْهِ الذي وَعَدَ به رسولُ الله صَلَّى اللهُ عليهِ وَسَلَّمَ مادِحاً له راضِياً عنه راجِياً هُدْنةَ الحالِ فيه[1]، لقولِ النبيِّ صَلَّى اللهُ عليهِ وَسَلَّمَ «ابْني هذا سَيِّدٌ، ولعلَّ اللهَ أنْ يُصْلِحَ به بينَ فِئتيْنِ عظيمتيْنِ مِنَ المسلِمينَ».

وقدْ تَكَلَّمَ العُلماءُ في إمامَةِ المفْضولِ مع وجودِ مَنْ هو أفضلُ منه[2]، فليستِ المسألةُ في الحدِّ الذي تَجْعَلُه فيه العامةُ، وقدْ بيَّنَّاها في مَوْضِعِها.

قصة قتل مُعاوِيَة لحُجر بن عدي

فإنْ قيلَ: قَتَلَ حُجْرَ بنَ عَدِيٍّ[3] – وهو مِنَ الصحابةِ مَشْهورٌ بالخيرِ – صَبْراً أسيراً بقولِ زيادٍ، وبعثتْ إليه عائشةُ في أمرِهِ فوجدَتْه قدْ فاتَ بقتلِه. قلْنا: قدْ

---

١ – يعني في الحسن بن عليّ رضي الله عنهما.

٢ – تجوز إمامة المفضول وتصح بيعته، ولا يكون وجود الأفضل مانعاً من إمامة المفضول إذا لم يكن مقصرًا عن شروط الإمامة، كما يجوز – في ولاية القضاء – تقليد المفضول مع وجود الأفضل لأن زيادة الفضل مبالغة في الاختيار وليست معتبرة في شروط الاستحقاق. (الخطيب).

٣ – حجر بن عدي الكندي عدَّه البخاري وآخرون من التابعين. وعده البعض الآخر من الصحابة. وكان من شيعة عليّ في الجمل وصفّين. وروى ابن سيرين أن زياداً – وهو أمير الكوفة – خطب خطبة أطال فيها، فنادى حجر بن عدي "الصلاةَ" فمضى زياد في خطبته، فحَصَبَه حُجْرٌ وحصبه آخرون معه. فكتب زياد إلى معاوية يشكو بغي حجر على أميره في بيت الله، وعدَّ ذلك من الفساد في الأرض. فكتب معاوية إلى زياد أن سرّح به إليَّ. فلما جيء به إلى معاوية أمر بقتله. فالذين يريدون أن معاوية قتله بحق يقولون: ما من حكومة في الدنيا تعاقب بأقل من ذلك من يحصب أميره وهو قائم يخطب على المنبر في المسجد الجامع، مندفعاً بعاطفة الحزبية

عَلِمْنا قتْلَ حُجْرٍ كلُّنا واختلفْنا: فقائلٌ يقولُ قَتَلَه ظُلْماً وقائلٌ يقولُ قَتَلَه حَقاً. فإنْ قيلَ: الأصلُ قَتْلُه ظُلماً إلا إذا ثَبَتَ عليه ما يوجِبُ قَتْلَه، قلْنا: الأصلُ أنَّ قَتْلَ الإمامِ بالحقِّ، فمَنِ ادَّعى أنه بالظُّلم فعَلَيه الدليلُ، ولو كان ظُلماً مَحْضاً[1] لَمَا بَقِيَ بيتٌ إلا لُعِنَ فيه مُعاوِيَةُ.

وهذه مَدينةُ السَّلامِ[2] دارُ خِلافةِ بَني العَبّاسِ – وبينَهم وبينَ بَني أُمَيَّةَ ما لا يَخْفى على الناسِ – مكتوبٌ على أبوابِ مساجِدِها: «خيرُ الناسِ بعدَ رسولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عليهِ وَسَلَّمَ أبو بكرٍ، ثم عُمَرُ، ثم عُثْمانُ، ثم عَلِيٌّ، ثم مُعاوِيَةُ خالُ المؤمنينَ رضِيَ اللهُ عنْهم»[3].

والتشيع. والذين يعارضونهم يذكرون فضائل حجر ويقولون: كان ينبغي لمعاوية ألا يخرج عن سجيته من الحِلم وسعة الصدر لمخالفيه. ويجيبهم الآخرون بأن معاوية يملك الحلم وسعة الصدر عند البغي عليه في شخصه، فأما البغي على الجماعة في شخص حاكمها وهو على منبر المسجد فهو ما لا يملك معاوية أن يتسامح فيه، ولاسيما في مثل الكوفة التي أخرجت العدد الأكبر من أهل الفتنة الذين بغوا على عثمان بسبب مثل هذا التسامح، فكبدوا الأمة من دمائها وسمعتها... تضحياتٍ غالية كانت في غنى عنها لو أن هيبة الدولة حفظت بتأديب عدد قليل من أهل الرعونة والطيش في الوقت المناسب. وكما كانت عائشة تود لو أن معاوية شمل حجراً بسعة صدره، فإن عبد الله بن عمر كان يتمنى مثل ذلك. والواقع أن معاوية كان فيه من حلم عثمان وسجاياه، إلا أنه في مواقف الحكم كان يتبصر في عاقبة عثمان وما جر إليه تمادي الذين اجترؤوا عليه. (الخطيب).

١ – محض: خالص لا شك فيه.

٢ – بغداد.

٣ – معاوية خال المؤمنين لأنه أخو أم المؤمنين رملة بنت أبي سفيان المشتهرة بكنيتها أم حبيبة.

ولكنَّ حُجْراً – فيما يُقالُ – رَأَى مِنْ زِيادٍ أموراً مُنْكَرةٌ، فحَصَبَه[1] وخَلَعَه، وأرادَ أنْ يُقيمَ الخَلْقَ للفتنةِ، فجَعَلَه مُعاوِيَة ممنْ سَعَى في الأرضِ فَساداً.

وقدْ كَلَّمتْه عائشةُ في أمرِه حينَ حَجَّ، فقالَ لها: دَعِيني وحُجْراً حتى نَلْتَقِيَ عندَ اللهِ. وأنتمْ مَعْشَرَ المسلمينَ أوْلى أنْ تَدَعوهما حتّى يَقِفا بينَ يَدَيِ اللهِ مع صاحِبِهما العَدْلِ الأَمينِ المصْطَفى الْمَكينِ، وما أنتمْ ودُخُولَكم حيثُ لا تَشْعرونَ، فما لَكُم لا تَسْمعونَ؟

زعم أن مُعاوِيَة سمَّ الحَسَن

فإنْ قيلَ: قدْ دَسَّ على الحَسَنِ مَنْ سَمَّه[2].

قلْنا: هذا محالٌ مِنْ وَجْهينِ: أحدُهما أنَّه ما كانَ لِيَتَّقِيَ مِنَ الحَسَنِ بَأْساً وقدْ سَلَّمَ الأمرَ. الثاني أنَّه أَمْرٌ مُغَيَّبٌ لا يَعْلَمُه إلا اللهُ فكيفَ تَحْمِلونَه بغيرِ بَيِّنَةٍ على أَحَدٍ مِنْ خَلْقِه في زمانٍ مُتَباعِدٍ لم نَثِقْ فيه بنَقْلِ ناقلٍ، بيْنَ أَيْدِي قومٍ ذَوِي أهواءٍ، وفي حالِ فِتْنةٍ وعَصَبيةٍ، يَنْسِبُ كلُّ واحدٍ إلى صاحبِه ما لا يَنْبَغي، فلا يُقْبَلُ منها إلا الصّافي، ولا يُسْمَعُ فيها إلا مِنَ العدْلِ الصَّميمِ.

---

١ – رماه بالحصباء (صغار الحصى والحجارة).

٢ – نُقِل أن الحسن – رضي الله عنه – مات مسموماً، واختلفوا في من سمّه؛ فقيل معاوية – رضي الله عنه – وقيل يزيد بن معاوية، وقيل زوجته، ولا يثبت شيء من ذلك. قال ابن تيمية – رحمه الله – في منهاج السنة: وَأَمَّا قَوْلُهُ: إِنَّ مُعَاوِيَةَ سَمَّ الْحَسَنَ فَهَذَا مِمَّا ذَكَرَهُ بَعْضُ النَّاسِ، وَلَمْ يَثْبُتْ ذَلِكَ بِبَيِّنَةٍ شَرْعِيَّةٍ، أَوْ إِقْرَارٍ مُعْتَبَرٍ، وَلَا نَقْلٍ يُجْزَمُ بِهِ. وَهَذَا مِمَّا لَا يُمْكِنُ الْعِلْمُ بِهِ، فَالْقَوْلُ بِهِ قَوْلٌ بِلَا عِلْمٍ.

تمهيد مُعاوِيَة لولاية يزيد

فإنْ قيلَ: فقدْ عَهِدَ إلى يزيدَ وليسَ بأهْلٍ. وجَرَى بينَه وبينَ عبدِ اللهِ بنِ عُمَرَ وابنِ الزُّبَيْرِ والحَسَنِ ما نصُّه عنْ وَهْبِ بنِ جَرِيرِ بنِ حازمٍ[1] عنْ أبيه وعنْ غيرِه: لَمّا أَجْمَعَ مُعاوِيَةُ أنْ يُبايعَ لابنِه يزيدَ حَجَّ، فقَدِمَ مَكَّةَ في نحوِ ألفِ رجلٍ. فلمّا دَنا مِنَ المدينةِ خَرَجَ ابنُ عُمَرَ وابنُ الزُّبَيْرِ وعبدُ الرحمنِ بنُ أبي بكرٍ، فلما قَدِمَ مُعاوِيَةُ المدينةَ صَعِدَ المنبرَ فحَمِدَ اللهَ وأَثْنى عليه، ثمَّ ذَكَرَ ابنَه يَزيدَ فقالَ: مَنْ أحقُّ بهذا الأَمرِ منه؟[2]

ثمَّ ارْتَحَلَ، فقَدِمَ مَكَّةَ فقَضَى طَوافَه، ودَخَلَ منزلَه، فبَعَثَ إلى ابنِ عُمَرَ، فتَشَهَّدَ وقالَ: «أمّا بعدُ يابنَ عُمَرَ، فقدْ كنتَ تُحَدِّثُني أنَّكَ لا تُحِبُّ أنْ تَبيتَ ليلةً

---

١ – وهب بن جرير بن حازم بن زيد بن عبد الله بن شجاع، حافظ صدوق إمام ثقة. ولد بعد الثلاثين ومائة. وهو من رواة الحديث. وسوف يروي عنه ابن العربي ثلاثة أخبار منسوبة إليه في شأن تولية معاوية لابنه يزيد. ثم يقوم ابن العربي بالرد عليها من خلال الروايات الصحيحة التي تعارضها. وواضح أن هناك من وضعها ونسبها إليه كي تروج وتنجح في تشويه صورة معاوية والصحابة الذين حضروا هذه الواقعة.

٢ – اعتذر الأستاذ محب الدين الخطيب عن تولية معاوية لابنه يزيد بقوله إن مبدأ الشورى في انتخاب الخليفة أفضل بكثير من مبدأ ولاية العهد لكن معاوية كان يعلم بينه وبين نفسه أن فتح باب الشورى في انتخاب من يخلفه سيحدث في الأمة الإسلامية مجزرة لا ترقأ فيها الدماء إلا بفناء كل ذي أهلية في قريش لولاية شيء من أمور هذه الأمة. وهذا هو أيضاً رأي ابن خلدون في مقدمته. وهناك غيرهما قال إن معاوية قد أخطأ بتولية الخلافة لابنه يزيد، فقد كان في المسلمين من هو أحق بها وأصلح للأمة منه، وأنه بذلك قد عطل مبدأ عظيماً من مبادئ الإسلام وهو مبدأ الشورى الذي وضعه الله للمسلمين {وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ}.

سَوداءَ ليسَ عليكَ أميرٌ. وإني أُحَذِّرُكَ أنْ تَشُقَّ عصا المسلمينَ، وأنْ تَسْعى في فسادِ ذاتِ بينِهم».

فلمّا سَكَتَ تَكَلَّمَ ابنُ عُمَرَ فحَمِدَ اللهَ وأَثْنى عليه ثمَّ قالَ: «أمّا بعدُ فإنه قدْ كانتْ قَبْلَكَ خُلَفاءُ لهم أبناءٌ ليس ابنُك بخيرٍ منهم، فلمْ يَرَوا في أَبنائِهم ما رأيتَ في ابنِكَ، ولكنَّهم اختارُوا للمسلمينَ حيثُ عَلِموا الخِيارَ. وإنَّكَ تُحَذِّرُني أنْ أَشُقَّ عَصا المسلمينَ، ولم أكُنْ لأَفْعَلَ، وإنَّما أنا رَجُلٌ مِنَ المسلمينَ، فإذا اجْتَمَعوا على أَمرٍ فإنَّما أنا واحِدٌ منهم». فخَرَجَ ابنُ عُمَرَ[1].

وأرسلَ إلى عبدِ الرحمنِ بنِ أبي بكرٍ، فتَشَهَّدَ ثمَّ أَخَذَ في الكلامِ فقَطَعَ عليه كلامَه، فقالَ: «إنَّكَ واللهِ لوَدِدْتَ أنّا وَكَلْناكَ في أمرِ ابنِكَ إلى اللهِ. وإنّا واللهِ لا نَفْعَلُ. واللهِ لَتَرُدَّنَّ هذا الأمرَ شُورَى في المسلمينَ أو لَتَفِرَنَّها عليكَ جَذَعَةً[2]» ثم وَثَبَ فَقامَ. فقالَ مُعاوِيَةُ «اللهمَّ اكْفِنيه بما شِئتَ». ثم قالَ: «على رِسْلِكَ[3] أيُّها الرجلُ، لا تُشْرِفَنَّ[4] لأهلِ الشامِ، فإني أخافُ أنْ يَسْبقوني

---

١ – عن ابن عمر أن أخته أم المؤمنين حفصة نصحت له بأن يسرع بالذهاب للبيعة وقالت: اِلْحَقْ، فإنهم ينتظرونك، وأخشى أن يكون في احتباسك عنهم فرقة. (البخاري – المغازي).

٢ – لتفرنها عليك جذعة: عبارة يقصد منها أن الفتنة تنكشف عليك في أشد حالاتها.

٣ – يعني تمهل ولا تعجل في أمرك.

٤ – لا تظهر لهم.

بنفسِك[١]، حتى أُخْبِرَ العَشِيَّةَ أنَّكَ قدْ بايَعْتَ، ثمَّ كنْ بعدَ ذلكَ على ما بدا لكَ مِنْ أمرِكَ».

ثمَّ أَرْسلَ إلى ابنِ الزُّبَيْرِ فقالَ: «يابْنَ الزُّبَيْرِ، إنما أنتَ ثَعْلبٌ رَوَّاغٌ[٢] كلَّما خَرَجَ مِنْ جُحْرٍ دَخَلَ في آخَرَ، وإنَّكَ عَمَدْتَ إلى هذينِ الرَّجُلينِ[٣] فنَفَخْتَ في مَناخِرِهما[٤]». فقالَ ابنُ الزُّبَيْرِ: «إنْ كنتَ قدْ مَلَلتَ الإمارةَ فاعتزِلْها، وهَلُمَّ ابنَكَ فلْنُبايعْه. أرأيتَ إذا بايعت ابنَك معَكَ لأيِّكما نَسمعُ، لأيِّكما نُطيعُ؟ لا تَجْتمعُ البَيْعةُ لكما أَبَداً[٥]». ثمَّ قامَ. فخَرَجَ مُعاوِيَة فصَعِدَ المنْبَرَ فقالَ: إنّا وجَدْنا أحاديثَ الناسِ ذاتَ عَوارٍ، وزَعَمُوا أنَّ ابنَ عُمَرَ وابنَ الزُّبَيْرِ وابنَ أبي بكرٍ لم يُبايِعُوا ليَزيدَ وهمْ قدْ سَمِعوا وأطاعُوا وبايَعُوا له. فقالَ أهلُ الشامِ: لا واللهِ: لا نَرْضَى حتّى يُبايِعوا على رءوسِ الأشهادِ، وإلا ضَرَبْنا أعناقَهم[٦]. فَقالَ: «مَهْ، سبحانَ اللهِ، وما أَسْرَعَ الناسَ إلى قُرَيشٍ بالشَّرِّ، لا أَسمعْ هذه

---

١ – خاف عليه إن هو أظهر لأهل الشام رأيه هذا أن يقتلوه.

٢ – كَثيرُ الخِداعِ والْمَكْرِ.

٣ – ابن عمر وابن أبي بكر.

٤ – يعني شجعتهما على العصيان.

٥ – بيعة الخلافة وبيعة ولاية العهد معاً. وهو أمر لم يحدث من قبل. ثم صار واقعاً حتى إنهم كانوا يعقدون بيعتين لولاية العهد كما فعل عبدالملك بن مروان حينما عقد البيعة لولديه الوليد وسليمان معاً في وقت واحد.

٦ – وهو خبر يدل على مقدار القوة والسلطة التي وصل إليها أهل الشام في ذلك الوقت.

المقالةَ مِنْ أَحَدٍ بَعْدَ اليومِ»[١] ثمَّ نَزَلَ. فقالَ النَّاسُ: بايَعوا. ويَقُولونَ هِمْ: لم نُبايِعْ. ويقولُ الناسُ: قدْ بايَعْتُم.

الرواية الثانية المنسوبة لوهب

ورَوَى وَهْبٌ مِنْ طريقٍ آخَرَ قالَ: خَطَبَ مُعاوِيَة فذَكَرَ ابنَ عُمَرَ فقالَ: «واللهِ ليُبايِعَنَّ أو لأَقْتُلَنَّه»[٢] فخَرَجَ عبدُ اللهِ بنُ عبدِ اللهِ بنِ عُمَرَ إلى أَبيه وسارَ إلى مَكَّةَ ثلاثاً وأخْبَرَه، فبَكَى ابنُ عُمَرَ. فبَلَغَ الخبرُ إلى عبدِ اللهِ بنِ صفوانَ[٣]، فدَخَلَ على ابنِ عُمَر فقالَ: أَخَطَبَ هذا بِكَذا؟ قالَ: نعمْ. قالَ فما تريدُ أتريدُ قتالَه؟ قالَ: يابْنَ صفوانَ، الصبرُ خيرٌ مِنْ ذلكَ. فقالَ ابنُ صفوانَ: واللهِ لو أرادَ ذلكَ لأقاتِلَنَّه. فقَدِمَ مُعاوِيَةُ مَكَّةَ فنزَلَ ذا طُوَى[٤]، وخَرَجَ إليه عبدُ اللهِ

---

١ – وهذا من عزم معاوية رضي الله عنه وحزمه.

٢ – يرى المرحوم محب الدين الخطيب أن هذه الأخبار المنسوبة لوهب بن جرير بن حازم هناك من اخترعها وأضافها إليه يكذبون كذباً مفضوحاً، حتى قال عن واحد من هذه الأخبار: وأظنه مصنوعاً في المصنع الذي خرج منه الخبران السابقان. وأنها أخبار مكذوبة على معاوية من خصومه.

٣ – عبد الله بن صفوان تابعي من رواة الحديث النبوي وأحد كبار أنصار عبد الله بن الزبير، اسمه عبد الله بن صفوان بن أمية بن خلف الجمحي المكي ابن الصحابي صفوان بن أمية بن خلف، كان أكبر ولد أبيه، ولد في حياة النبي ﷺ لكنه لم يدركه، روى الحديث عن أبيه وعمر بن الخطاب وأبي الدرداء وحفصة. وكان سيداً شريفاً مطاعاً بين قومه، حليماً يحتمل الأذى. قتل مع عبدالله بن الزبير سنة ٧٣.

٤ – ذو طوى وادٍ شمال المسجد الحرام بمكة المكرمة، يُعرف الآن معظمه بالزاهر وهو موضع مبيت النبي ﷺ قبل الدخول إلى مكة، حيث ثبت أن النبي ﷺ عند ذهابه إلى مكة يبيت في وادي ذي طوى حتى إذا أصبح اغتسل من بئرها ودخل مكة.

بنُ صفوانَ فقالَ: أنتَ تَزْعُمُ أَنَّكَ تَقْتُلُ ابنَ عُمَرَ إنْ لم يُبايعْ لابنِكَ؟ قالَ: أنا أقتلُ ابنَ عُمَر؟ إني واللهِ لا أقتلُه.

الرواية الثالثة المنسوبة لوهب

ورَوَى وهبٌ مِنْ طريقٍ ثالثٍ قالَ: إنَّ مُعاوِيَةَ لَمّا راحَ عنْ بَطْنِ مُرٍّ[١] قاصداً إلى مَكَّةَ قالِ لصاحِبِ حَرَسِه: لا تَدَعْ أَحَداً يَسيرُ معي إلا مَنْ حَمَلْتَه. فخَرَجَ يَسيرُ وَحْدَه حتّى إذا كان وَسْطَ الأراكِ لَقِيَه الحُسَيْنُ بنُ عليٍّ، فوَقَفَ وقالَ: مَرْحباً وأَهْلاً بابنِ بنتِ رسولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عليهِ وَسَلَّمَ سَيّدِ شَبابِ المسلمينَ. دابَّةً لأبي عبدِ اللهِ يركبُها. فأُتِيَ ببِرْذَوْنٍ[٢] فتَحوَّلَ عليه. ثم طَلَعَ عبدُ الرحمنِ بنُ أبي بكرٍ[٣]، فقالَ: مَرْحباً بابنِ شيخِ قريشٍ وسيّدِهم وابنِ صِدِّيقِ هذه الأمَّةِ. دابَّةً لأبي محمدٍ يركبُها. فأُتِيَ ببِرْذَوْنٍ فركِبَه. ثم طَلَعَ ابنُ عُمَر فقالَ: مَرْحباً وأهلاً بصاحبِ رسولِ اللهِ وابنِ الفاروقِ وسيِّدِ المسلمينَ، ودعا له بدابَّةٍ فرَكِبَها. ثم طَلَعَ ابنُ الزُّبَيْر فقالَ: مرحباً وأهلاً بابنِ حَوارِيّ رسولِ اللهِ وابنِ

١ – وادي فاطمة يسمى قديماً بـ (بطن مرّ) و (مرّ الظهران) وادٍ كبير من أودية تهامة يقع في منطقة مكة المكرمة، ويجري الوادي من الشرق إلى الغرب، وهو واد خصب وفير الماء وبه العديد من القرى أهمها الجموم.

٢ – البرذون نوع من الدواب يختص بالأحمال الثقيلة. وهو ينتج عن تزاوج الحمار بالفرس، على عكس البغل وهو ينتج عن تزاوج الحصان بالأتان وهي أنثى الحمار.

٣ – شكك الأستاذ محب الدين الخطيب في هذا فقال نحن نعلم من الخبر الأول عن وهب أن عبد الرحمن بن أبي بكر كان في المدينة، وكان مع الذين استقبلوا معاوية عند وصوله إليها من دمشق، فما الذي طار به إلى مكة حتى صار في مستقبليه عند وصوله إليها؟ حقاً إن الذين يكذبون على معاوية أغبياء لا يجيدون صناعة الكذب.

الصِّديقِ[١] وابنِ عمَّةِ رسولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عليهِ وَسَلَّمَ، ودَعا له بدابَّةٍ فركِبَها، ثمَّ أقبلَ يَسيرُ بينَهم لا يُسايِرُه غيرُهم حتّى دَخَلَ مكةَ[٢].

ثمَّ كانوا أوَّلَ داخلٍ وآخِرَ خارجٍ ليسَ في الأرْضِ صَباحٌ إلا لهم فيه حِباءٌ وكَرامةٌ[٣]، ولا يَعْرِضُ لهمْ بذكْرِ شيءٍ مما هو فيه حتّى قَضَى نُسُكَه وتَرَحَّلَتْ أثقالُه وقُرُبَ مَسيرُه إلى الشامِ وأُنيخَتْ رَواحِلُه، فأَقْبَلَ بعضُ القومِ على بعضٍ فقالُوا: أيُّها القومُ لا تُخدَعُوا إنَّه واللهِ ما صَنَعَ هذا لحُبِّكم ولا لكَرامتِكم ولا صَنَعَه إلا لِمَا يريدُ، فأَعِدّوا له جَواباً. وأَقْبَلُوا على الحُسَيْنِ فقالوا: أنتَ يا أبا عبدِ اللهِ؟ قال: وفيكُم شيخُ قريشٍ وسيِّدُها وهو أحقُّ بالكلامِ؟ فقالوا: أنتَ يا أبا محمدٍ؟ - لعبدِ الرحمنِ بنِ أبي بكرٍ - فقالَ: لستُ هُناكُم[٤] وفيكُم صاحبُ رسولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عليهِ وَسَلَّمَ وابنُ سيِّدِ المسلمينَ - يَعْني ابنَ عُمَرَ - فقالوا لابنِ عُمَر: أنتَ! فقالَ: لستُ بصاحِبِكم، ولكنْ وَلُّوا الكلامَ ابنَ الزُّبَيْرِ يَكْفِكُم. قالوا: أنتَ يابْنَ الزُّبَيْرِ؟ قالَ: نعمْ، إنْ أَعْطَيْتُموني عَهْدَكم ومَواثيقَكم ألّا تُخالِفوني كَفَيْتُكم الرَّجُلَ. فقالوا: فلَكَ ذلكَ. فخَرَجَ الآذِنُ فأذِنَ

---

١ - لأن أمه أسماء هي بنت أبي بكر الصدّيق.

٢ - هذا الترتيب في خروج كل واحد من هؤلاء الأربعة الكرام وترحيب معاوية به على هذا النحو وأمره بدابة تحمله يجعلنا كأننا أمام ترتيب من صنع الخيال، يخرجون واحداً واحداً وهم المطلوبون دون غيرهم. فمن أين خرجوا؟ ولماذا على هذا النحو؟ لذا يحق للأستاذ الخطيب أن يشكك في هذه الرواية برغم أنها عند ابن خياط.

٣ - يعني أجمل ترحيب وإكرام.

٤ - يعني لست أهلاً لهذه المنزلة.

لهم[١]. فدَخَلُوا فتَكَلَّمَ مُعاوِيَةُ فحَمِدَ اللهَ وأَثْنى عليه ثمَّ قالَ: لقدْ عَلِمتُم سِيرَتي فيكُم، وصِلَتي لأَرْحامِكُم، وصَفْحي عنكُم، وحَمْلي لِمَا يكونُ منكُم، ويَزيدُ ابنُ أميرِ المؤمنينَ أخوكُم وابنُ عمّكم وأحسنُ الناسِ لكُم رَأْياً. وإنما أَرَدْتُ أنْ تُقَدِّموه باسمِ الخلافةِ وتكُونوا أنتم الذين تَنْزِعونَ وتُؤَمِّرونَ وتَجْبونَ وتَقْسِمونَ[٢] لا يُدْخَلُ عليكُم في شيءٍ مِنْ ذلكَ.

فسَكَتَ القومُ. فقالَ: أَلَا تُجِيبوني؟ فسَكَتَ القومُ. فقالَ: أَلَا تُجِيبوني؟ فسَكَتُوا: فأقبلَ على ابنِ الزُّبَيْرِ فقالَ: هاتِ يابْنَ الزُّبَيْرِ، فإنكَ لَعَمْري صاحبُ خُطْبَةِ القومِ، فقالَ: نعمْ يا أميرَ المؤمنينَ أُخَيِّرُكَ بينَ ثَلاثِ خِصالٍ أيَّها أَخَذْتَ فهي لكَ رَغْبَةً: قالَ: للهِ أبوكَ، اعْرِضْهُنَّ: قالَ: إنْ شِئْتَ صَنَعْتَ ما صَنَعَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عليهِ وَسَلَّمَ، وإنْ شِئْتَ صَنَعْتَ ما صَنَعَ أبو بكرٍ فهو خيرُ هذه الأمةِ بعدَ رسولِ الله صَلَّى اللهُ عليهِ وَسَلَّمَ، وإنْ شِئْتَ صَنَعْتَ ما صَنَعَ عُمَرُ فهو خيرُ هذه الأمةِ بعدَ أبي بَكْرٍ. قالَ: للهِ أبوكَ، ما صَنَعُوا؟ قالَ: قُبِضَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عليهِ وَسَلَّمَ فلمْ يَسْتَخْلِفْ أَحَداً، فارْتَضَى المسلمونَ أبا بكرٍ، فإنْ شِئْتَ أنْ تَدَعَ أمرَ هذه الأمةِ حتّى يَقْضِيَ اللهُ فيه قَضاءه فيَخْتارَ المسلمونَ لأنْفِسِهم. فقالَ: إيهِ ليسَ فيكُمُ اليومَ مثلُ أبي بكرٍ، وإنّي لا آمَنُ عليكُمْ الاخْتِلافَ. قالَ: فاصْنَعْ كما صَنَعَ أبو بكرٍ، عَهِدَ إلى رَجلٍ مِنْ قاصِيَةِ

١ - يعني سمح لهم الحاجب بالدخول على معاوية. وفي نسخة الخطيب (جاء الإذن).

٢ - يعني تكون لكم صلاحية تعيين الولاة وعزلهم وجمع المال وتقسيمه.

قُرَيشٍ[١] ليس مِنْ بَني أبيه فاسْتَخْلَفَه[٢]. قالَ: للهِ أبوكَ الثالثةَ؟ قالَ: تَصْنعُ ما صَنَعَ عُمَرُ، جَعَلَ الأمرَ شُورى في سِتَّةِ نَفَرٍ مِنْ قُرَيشٍ ليس أحدٌ منهم مِنْ وَلَدَ أَبيه. قالَ: عندَكَ غيرُ هذا؟ قالَ: لا. قال: فأنتُم؟ قالوا: ونحنُ أيضاً. قال: أمّا لا، فإني أَحْببتُ أن أتقدَّمَ إليكُم، إنَّه قدْ أَعْذرَ مَنْ أَنْذَرَ، وإنْ كان يقومُ القائمُ منكُم إليَّ فيُكَذِّبُني على رءوسِ الأَشْهادِ فأَحْتَمِلُ له ذلكَ. وإنّي قائمٌ بمقالةٍ، فإنْ صَدَقتُ فلِي صِدْقي وإنْ كَذَبْتُ فعليَّ كَذِبي. وإنّي أُقْسِمُ باللهِ لكمْ لئنْ رَدَّ عليَّ إنسانٌ منكُم لا تَرْجِعُ إليه كلمتُه حتى يُسْبَقَ إلى رأسِه[٣]. ثم دعا بصاحبِ حَرَسِه فقالَ: أَقِمْ على كلِّ رَجُلٍ مِنْ هؤلاءِ رَجُلينِ مِنْ حَرَسِكَ فإنْ ذَهَبَ رَجُلٌ يَرُدُّ على كلمةٍ بصِدْقٍ أو كَذِبٍ فلْيَضْرِباه بسيفِهما[٤].

ثم خَرَجَ وخَرَجُوا مَعَه، حتى رَقِيَ المنبرَ فحَمِدَ اللهَ وأَثْنى عليه ثمَّ قالَ: إنَّ هؤلاءِ الرَّهطَ سادةُ المسلمين وخيارُهم، لا نَسْتَبِدُّ بأمرٍ دونَهم، ولا نَقْضي أمراً إلا عنْ مَشورَتِهم. وإنَّهم ارْتَضَوا وبايَعُوا ليزيدَ ابنِ أميرِ المؤمنينَ مِنْ بعدِه، فبايِعوا باسمِ اللهِ. فضَرَبوا على يدِه، ثم جَلَسَ على راحِلَتِه وانْصَرَفَ. فلَقِيَهم الناسُ فقالُوا: زَعَمْتُم وزَعَمْتُم، فلمّا أُرْضِيتُم فَعَلْتم! قالوا: إنّا واللهِ ما فَعَلْنا. قالوا:

---

١ – ليس من أقربائه.

٢ – يعني عمر عندما استخلفه أبو بكر.

٣ – يعني يُقتل.

٤ – أورد ابن العربي هذا الكلام ليرد عليه بعد ذلك ويكشف عواره.

فما مَنَعَكم أنْ تَرُدّوا على الرجلِ إذْ كَذَبَ؟ ثمَّ بايَعَ أهلُ المدينةِ والناسُ، ثمَّ خَرَجَ إلى الشامِ[١].

رأي ابن العربي في تولية مُعاوِيَة يزيد

قالَ القاضِي أبو بكرٍ رَضِيَ اللهُ عنه: لسْنا نُنْكِرُ ولا تَبْلُغُ بنا الجَهالةُ ولا لنا في الحقّ حَمِيَّةٌ جاهِليَّةٌ ولا نَنْطَوِي على غِلٍّ لأَحَدٍ مِنْ أَصْحابِ محمدٍ صَلَّى اللهُ عليهِ وَسَلَّمَ، بلْ نقولُ {رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ}. إلا أنّا نقولُ إنَّ مُعاوِيَة تَرَكَ الأَفْضَلَ في أنْ يَجْعَلَها شُورى، وألّا يَخُصَّ بها أحداً مِنْ قَرابَتِه فكيف ولداً، وأنْ يَقْتدِيَ بما أشارَ به عبدُ اللهِ بنُ الزُّبَيْرِ في التَّرْكِ أو الفِعْلِ فعَدَلَ إلى ولايةِ ابنِه وعَقَدَ له البَيْعةَ وبايَعَه الناسُ، وتَخَلَّفَ عنها مَنْ تَخَلَّفَ، فانْعَقَدَتِ البَيْعةُ شَرْعاً، لأنَّها تَنْعَقِدُ بواحدٍ وقيلَ باثْنَينِ.

فإنْ قيلَ: لمنْ فيه شَروطُ الإمامةِ[٢]، قلْنا: ليسَ السِّنُّ مِنْ شُروطِها ولم يَثْبُتْ أنَّه يُقَصِّرُ بيزيدَ عنها.

---

١ – علق الأستاذ محب الدين الخطيب على هذا الخبر بأنه مصنوع في المصنع الذي خرج منه الخبران السابقان المنسوبان إلى وهب بن جرير.

٢ – يعني فإن قيل (تنعقد البيعة لمن فيه شروط الإمامة ومنها السن) على تقدير كلام محذوف.

فإنْ قيلَ: كان منها العَدالةُ والعِلْمُ، ولم يكنْ يزيدُ عَدْلاً ولا عالِماً. قلْنا: وبأيِّ شيءٍ نَعْلَمُ عَدَمَ عِلْمِهِ أو عَدَمَ عَدالَتِه؟ ولو كان مَسْلوبَهما لذَكَرَ ذلكَ الثلاثةُ الفُضَلاءُ[١] الذينَ أَشارُوا عليه بألّا يَفْعَلَ، وإنَّما رَمَوْا إلى الأمرِ بِعَيْبِ التحكُّمِ، وأرادوا أنْ تَكونَ شُورَى.

فإنْ قيلَ كانَ هنالِكَ مَنْ هو أحقُّ منه عَدالةً وعِلماً، منهم مائةٌ وربما ألفٌ. قلْنا: إمامةُ المفْضولِ - كما قدَّمنا - مسألةُ خِلافٍ بينَ العلماءِ، كما ذَكَرَ العلماءُ في موضِعِه.

رواية البخاري في مبايعة ابن عُمَر

وقدْ حَسَمَ البُخاريُّ الباب، ونَهَجَ جادَّةَ الصَّواب، فرَوَى في صَحيحِه ما يُبْطِلُ جميعَ هذا المتَقَدِّمِ[٢]، وهو أنَّ مُعاوِيَة خَطَبَ وابنُ عُمَرَ حاضِرٌ في خُطْبَتِه، فيما رَوَى البُخاريُّ عنْ عِكْرِمةِ بنِ خالدٍ[٣] أنَّ ابنَ عُمَرَ قالَ: دَخَلْتُ على حَفْصةَ[٤] ونُوساتُها تَنْطِفُ[٥]. قلتُ: قدْ كانَ في الأمرِ ما تَرِينَ، فلمْ يُجْعلْ لي مِنَ الأمرِ شيءٌ. فقالت: «اِلْحَقْ بهم، فإنَّهم يَنْتظِرونَكَ وأَخْشى أنْ يكونَ في احتباسِكَ

---

١ - ابن عمر وابن الزبير وابن أبي بكر.

٢ - بدأ ابن العربي في نقد الأخبار الثلاثة الملفقة على وهب بن جرير في تمهيد معاوية لولاية يزيد.

٣ - عِكْرِمَة بن خَالِد بن الْعَاصِ بن هِشَام بن الْمُغيرَة الْمَكِّيّ ثِقَة روى له البخاري.

٤ - أخته، أم المؤمنين، زوجة نبينا الكريم ﷺ .

٥ - أي وضفائرها تقطر ماءً، سمّى الضفائر "نوسات" لأنها تنوس، أي تتحرك وتتدلى. وقيل لبعض ملوك حِمْيَر: ذو نُواس لضَفِيرَتَيْن كانتا تَنوسان على عاتِقَيْه. ومن ذلك تسمية الشاعر الشهير أبي نُوَاسٍ.

عنهم فُرْقةٌ». فلمْ تَدَعْه حتى ذَهَبَ. فلمّا تَفرَّقَ الناسُ خَطَبَ مُعاوِيَةُ فقالَ: مَنْ كان يُرِيدُ أنْ يَتَكَلَّمَ في هذا الأمرِ فلْيُطْلِعْ لنا قَرْنَه، فلَنَحْنُ أحقُّ به منه ومِنْ أبيه. قال حَبيبُ بنُ مَسْلَمة[١] فهلّا أَجَبْتَه؟ قالَ عبدُ اللهِ[٢]: فحَلَلْتُ حُبْوَتي[٣]، وهَمَمتُ أنْ أقولَ: أَحَقُّ بهذا الأمرِ منكَ مَنْ قاتَلَكَ وأَباكَ على الإسلامِ[٤]، فخَشِيتُ أنْ أقولَ كَلِمةً تُفرّقُ بينَ الجَمْعِ وتَسْفِكُ الدَّمَ ويُحمَلُ عنّي غيرُ ذلكَ[٥]، فذَكَرْتُ ما أَعَدَّ اللهُ في الجِنانِ. فقالَ له حَبيبٌ: حُفِظْتَ وعُصِمَتَ[٦].

ورَوَى البخاريُّ أنَّ أهلَ المدينةِ لَمّا خَلَعُوا يزيدَ بنَ مُعاوِيَة جَمَعَ ابنُ عُمَرَ حَشَمَه ووَلَدَه وقالَ: إنّي سمعتُ رسولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عليهِ وَسَلَّمَ يقولُ: «يُنْصَبُ لكلِّ غادِرٍ لواءً يومَ القيامةِ» وإنّا قدْ بايَعْنا هذا الرجلَ على بَيْعِ اللهِ ورسولِه، وإنّي لا أَعْلَمُ غَدْراً أعظمَ مِنْ أنْ نُبايِعَ رَجُلاً على بَيْعِ اللهِ ورسولِه ثم نَنْصِبُ له

---

١ – حبيب بن مسلمة الفهري القرشي ويقال له قاهر الروم لكثرة دخوله إليهم ونيله منهم. له صحبة ورواية يسيرة جاهد في خلافة أبي بكر وشهد اليرموك أميرًا وسكن دمشق. كان في غزوة تبوك ابن إحدى عشرة سنة. ولاه معاوية بن أبي سفيان أرمينية فمات بها سنة اثنتين وأربعين وله نكاية قوية في العدو.

٢ – ابن عمر.

٣ – الحُبوة: ما يُحْتَبَى به من ثوبٍ وغيره. وحَلَّ عبدالله حُبْوَتَه لِيَتكلَّمَ ويَرُدَّ على مُعَاوِيَةَ رضِي اللهُ عنه.

٤ – قيل: يَقصِد عَلِيَّ بنَ أبي طَالِبٍ والمهاجِرينَ الذين حاربوا قريشاً وأبا سفيان والد معاوية.

٥ – خاف ابنُ عُمَرَ رضِي اللهُ عنهما أنَّه إذا تكلَّم ثَارَتِ الفِتنةُ وتَفرَّقت الجماعةُ، وسُفِكَ الدَّم، وحُمِلَ عنه غيرُ مَا يُرِيدُه مِن الكلامِ، فذَكَر ثوابَ اللهِ تعالى في الآخِرَة وما أعَدَّه في الجِنانِ، فسَكَت. فهلّا تعلَّمنا ذلك منه.

٦ – فقال حَبِيبُ بنُ مَسْلَمَةَ لابن عمر: حُفِظْتَ وعُصِمْتَ، أي: حَفِظَكَ اللهُ تعالى وحَمَاكَ مِن الفِتنَةِ وإثارَتِها.

القِتالَ، وإنّي لا أَعْلَمُ أَحَداً منكم خَلَعَه ولا بايَعَ في هذا الأمرِ[١] إلا كانتِ الفَيْصَلَ بيْني وبينَه[٢].

نصيحة المؤلف بعدم الخوض في أعراض الصحابة

فانْظُروا مَعْشَرَ المسْلمينَ إلى ما رَوَى البخاريُّ في الصَّحيحِ، وإلى ما سَبَقَ أنْ ذَكَرْنا له في رِوايَةِ بعضِهم أنَّ عبدَ اللهِ بنَ عُمَرَ لم يُبايِعْ، وأنَّ مُعاوِيَةَ كَذَبَ وقالَ قدْ بايَعَ وتَقَدَّمَ إلى حَرَسِه بأمرِه بِضَرْبِ عُنِقِه إنْ كذَّبه[٣]. وهو قدْ قالَ في رِوايَةِ البُخارِيّ: «وقدْ بايَعْناهُ على بَيْعِ اللهِ ورَسُولِه»، وما بَيْنَهما مِنَ التَّعارُضِ[٤].

---

١ - يعني أمر نقض بيعة يزيد.

٢ - يفهم من كلام ابن عمر وجوب طاعة الإمام الذي انعقدت له البيعة والمنع من الخروج عليه ولو جار وأنه لا ينخلع بالفسق. حتى إنه هدد أولاده وحشمه وذلك خوفاً من وقوع الفتنة، وهو ما حدث بعد ذلك عندما بلغ يزيد أن أهل المدينة خلعوه فجهّز لهم جيشًا مع مسلم بن عقبة وأمره أن يدعوهم ثلاثًا فإن رجعوا وإلا فيقاتلهم ويستبيح المدينة للجيش ثلاثًا ثم يكف عنهم فتوجه إليهم فحاربوه وانهزم أهل المدينة، وأباح مسلم بن عقبة المدينة ثلاثًا فقتل جماعة من بقايا المهاجرين والأنصار وخيار التابعين، وقتل من الناس عشرة آلاف سوى النساء والصبيان، وجالت الخيل في مسجد رسول الله ﷺ وبايع الباقين كرهًا على أنهم خدم ليزيد.

٣ - يقصد المؤلف الأخبار الثلاثة الملفقة على وهب بن جرير في تمهيد معاوية لولاية يزيد.

٤ - قال الأستاذ محب الدين الخطيب: وهذا الخبر المنير الذي يرويه البخاري في صحيحه يفضح الذين زوروا على وهب بن جرير تلك الأخبار المتناقضة بأن ابن عمر وغيره لم يبايعوا ليزيد، وأن معاوية أقام على رءوسهم من يقطعها إذا كذبوه فيما افتراه عليهم من أنهم بايعوا لابنه. فتبين الآن أنه لم يفتر عليهم، وهذا ابن عمر يعلن في أحرج المواقف - أي في ثورة أهل المدينة على يزيد بتحريض ابن الزبير وداعيته ابن مطيع - أن في عنقه ما في أعناقهم بيعة شرعية لإمامهم على بيع الله ورسوله، وأن من أعظم الغدر أن تبايع الأمة إمامها ثم تنصب له القتال. ولم يكتف ابن عمر

وخُذُوا لأنْفُسِكِم بالأَرْجَحِ في طَلَبِ السَّلامةِ، والخَلاصِ بينَ الصَّحابةِ والتَّابِعينَ. فلا تَكُونُوا - ولم تُشاهِدُوهم وقدْ عَصَمَكم اللهُ مِنْ فِتْنَتِهم - ممَّنْ دَخَلَ بلِسانِه في دِمائِهم، فيَلِغَ فيها وُلوغَ الكَلْبِ بَقِيَّةَ الدَّمِ على الأرْضِ بعدَ رَفْعِ الفَريسَةِ بلَحْمِها، لم يَلْحقِ الكلْبُ منها إلا بَقِيَّةَ دَمٍ سَقَطَ على الأرْضِ[١].

ورَوَى الثَّبْتُ العَدْلُ عنْ عبدِ الرحمنِ بنِ مَهْدِيٍّ[٢]، عنْ سُفيانَ[٣] عنْ محمدِ بنِ المنكدر[٤] قال: قال ابنُ عُمَر حينَ بُويِعَ يزيدُ: «إنْ كان خَيراً رَضِينا، وإنْ كان شَراً صَبَرْنا»[٥].

بذلك في تلك الثورة على يزيد بل روى مسلم في كتاب الإمارة أن ابن عمر جاء إلى ابن مطيع داعية ابن الزبير ومثير هذه الثورة فقال ابن مطيع: اطرحوا لأبي عبد الرحمن وسادة. فقال ابن عمر: إني لم آتك لأجلس، أتيتك لأحدثك حديثا سمعت رسول الله يقوله: "من خلع يدا من طاعة لقي الله يوم القيامة لا حجة له، ومن مات وليس في عنقه بيعة مات ميتة جاهلية". وكان لمحمد بن علي بن أبي طالب المعروف بابن الحنفية مثل هذا الموقف من داعية الثورة ابن مطيع.

١ - ما أبلغه من تشبيه يجسِّد المعنى المطلوب بالتنفير من الخوض في أعراض الصحابة وما وقع بينهم، فلهم ما كسبوا ولنا ما كسبنا ولا نُسأل عن عملهم.

٢ - عبد الرحمن بن مهدي، الإمام الناقد المجود، سيد الحفاظ ولد سنة خمس وثلاثين ومائة وكان حجة قدوة في العلم والعمل. قال الشافعي: لا أعرف له نظيراً في هذا الشأن.

٣ - سفيان بن عيينة إمام ومحدِّث شهير عُرف بالزهد والورع (١٠٧ - ١٩٨) أجمع الناس على صحة حديثه.

٤ - محمد بن المنكدر القرشي التيمي، المدني، ولد سنة بضع وثلاثين من الهجرة. من التابعين، وروى له: البخاري - مسلم - أبو داود- الترمذي - النسائي - محمد بن ماجة.

٥ - رواه ابن أبي الزمنين في أصول السنة، والداني في السنن، وابن أبي شيبة في المصنف.

وثَبَتَ عنْ حُمَيدِ بنِ عبدِ الرحمنِ[١] قالَ: دَخَلْنا على رجلٍ مِنْ أصحابِ رسولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عليهِ وَسَلَّمَ حينَ استُخْلِفَ يزيدُ بنُ مُعاوِيَة فقالَ: تَقُولونَ إنَّ يَزيدَ بنَ مُعاوِيَةَ ليس بِخَيْرِ أمَّةِ محمدٍ، لا أفقهُها فيها فِقْهاً ولا أعظمُها فيها شَرَفاً، وأنا أقولُ ذلكَ. ولكنْ واللهِ لَأَنْ تجتمعَ أمةُ محمدٍ أحبُّ إليَّ مِنْ أنْ تفترقَ. أرأيتمْ باباً دَخَلَ فيه أمةُ محمدٍ ووَسِعَهم، أكانَ يَعْجِزُ عنْ رجلٍ واحدٍ لو كان دَخَلَ فيه؟ قلْنا: لا. قالَ: أرأيتُم لو أنَّ أمةَ محمدٍ قالَ كلُّ رجلٍ منهم لا أُريقُ دَمَ أخي ولا آخُذُ مالَه، أكانَ هذا يَسَعُهم؟ قلْنا: نعمْ. قالَ: فذلكَ ما أقولُ لكمْ. ثمَّ قالَ: قالَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عليهِ وَسَلَّمَ «لا يأتيكَ من الحياءِ إلا خيرٌ»[٢].

فهذه الأخبارُ الصِّحاحُ كلُّها تُعطيكَ أنَّ ابنَ عُمَرَ كان مُسلِّماً في أمرِ يزيدَ، وأنه بايَعَ وعَقَدَ له والتَزَمَ ما التَزَمَ الناسُ، ودَخَلَ فيما دَخَلَ فيه المسلمونَ، وحَرَّمَ على نفسِه ومَنْ إليه بعدَ ذلكَ أنْ يَخْرجَ على هذا أو يَنْقُضَه.

وظَهَرَ لكَ أنَّ مَنْ قالَ إنَّ مُعاوِيَةَ كَذَبَ في قولَه «بايَعَ ابنُ عُمَرَ» ولم يُبايِعْ، وأنَّ ابنَ عُمَرَ وأصحابَه سُئِلُوا فقالُوا «لم نُبايِعْ» فقدْ كَذَبَ. وقدْ صَدَّقَ

---

١ – هناك اثنان من التابعين بهذا الاسم، أحدهما حميد بن عبد الرحمن بن عوف (٢٢- ٩٥هـ) ابن الصحابي عبد الرحمن بن عوف أحد العشرة المبشرين بالجنة. والآخر حميد ابن عبد الرحمن الحميري البصري، وكلاهما روى عن عبدالله بن عمر. ولم أستطع تحديد مَنْ منها صاحب الرواية السابقة.

٢ – في البخاري ومسلم عن عمران بن الحصين وبشير بن كعب. ومعناه أن الحياء يكف صاحبه عن الإثم.

البُخاريُّ في روايتِه قولَ مُعاوِيَةَ في المنبرِ «إنَّ ابنَ عُمَرَ قدْ بايَعَ» بإقرارِ بنِ عُمَرَ بذلكَ وتَسْليمِه له وتَمادِيه عليه.

فأيُّ الفَريقينِ أَحقُّ بالصِّدْقِ إنْ كنتُم تَعْلمونَ؟ الفريقُ الذي فيه البخاريُّ أَمِ الذي فيه غيرُه؟ فخُذوا لأنفسِكُم بالأَحْزمِ والأَصَحِّ، أوِ اسْكُتوا عنِ الكُلِّ واللهُ يَتولى تَوفيقَكُم وحِفْظَكُم.

والصَّاحِبُ الذي كَنَّى عنه حُمَيدُ بنُ عبدِ الرحمنِ هو ابنُ عُمَرَ واللهُ أعلمُ. وإنْ كان غيرَه فقدْ أَجْمعَ رَجُلانِ عَظيمانِ على هذه المقالةِ، وهي تُعَضِدُ ما أَصَّلْناه لَكُمْ مِنْ أنَّ وِلايةَ المفضولِ نافذةٌ وإنْ كان هنالِكَ مَنْ هو أفضلُ منه إذْ عُقِدَتْ له. ولِمَا في حَلِّها أو طَلَبِ الأَفْضلِ مِنَ استباحةِ ما لا يُباحُ، وتَشْتيتِ الكلمةِ، وتفريقِ أمرِ الأمةِ.[1]

١ – سار ابن العربي في مسألة استخلاف يزيد على منهجه الذي سار عليه في الكتاب كله من ذكر الأقوال التي ترددت على الألسنة ثم يرد عليها ويبين حقيقتها وهو ما فعله هنا مع الأقوال الثلاثة المنسوبة إلى وهب في حق معاوية وأثبت زيفها برواية البخاري الصحيحة.

زعْم أن يزيد كان خماراً

فإنْ قيلَ كان يزيدُ خَمّاراً[١]. قلْنا: لا يَحِلُّ إلا بِشاهِدَيْن، فمَنْ شَهِدَ بذلكَ عليه؟ بلْ شَهِدَ العدْلُ بعدالتِه؛ فرَوَى يَحْيي بنُ بكيرٍ[٢] عنِ اللَيْثِ بنِ سَعْدٍ[٣]، قالَ اللَيْثُ: «تُوُفِّيَ أميرُ المؤمنينَ يزيدُ في تاريخِ كَذا» فسَمّاه الليثُ «أميرَ المؤمنينَ» بعدَ ذَهابِ مُلْكِهم وانْقِراضِ دَوْلتِهم[٤]، ولولا كونُه عندَه كذلكَ ما قالَ إلا «تُوُفِّيَ يزيدُ».

قتْلُ يزيد للحسين

فإنْ قيلَ: ولو لم يكنْ ليزيدَ إلا قَتْلُه للحُسَينِ بنِ عليٍّ؟ قلْنا: يا أَسَفا على المصائبِ مَرَّةً، ويا أَسَفا على مُصيبَةِ الحُسَيْنِ ألفَ مَرَّةٍ. وإنَّ بَوْلَه يَجرِي على صدْرِ النبِيّ صَلَّى اللهُ عليهِ وَسَلَّمَ ودمه يراق على البوغاء[٥] ولا يُحْقَنُ، يا لَلَّهِ لِلْمسلِمينَ[٦].

---

١ – الخمّار: من يشرب الخمر، وأيضاً من يصنعها ويبيعها. والمقصود هنا المعنى الأول.

٢ – يحيي بن عبد الله بن بكير المخزومي المصري (١٥٤ هـ – ٢٣١ هـ). أحد العلماء ورواة الحديث عند أهل السنة والجماعة. وكان فقيه القضاء بمصر في زمانه.

٣ – شَيْخُ الإِسْلاَمِ الإِمَامُ الحَافِظُ العَالِمُ أَبُو الحَارِثِ اللَّيْثُ بنُ سَعْدِ بنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ الفَهْمِيُّ القَلْقَشَنْدَي (٩٤ هـ/٧١٣ م – ١٧٥ هـ/٧٩١ م) فقيه ومحدث وإمام أهل مصر في زمانه، وصاحب أحد المذاهب الإسلامية المندثرة. وُلد في قرية قلقشندة من أسفل أعمال مصر، وأسرته أصلها فارسي من أصبهان.

٤ – بنو أمية.

٥ – الأرض ذات التراب.

٦ – في الطبعات الأخرى (يا لله ويا للمسلمين) والتركيب الصحيح ما أثبتناه في المستغاث به والمستغاث له.

وإنَّ أَمْثَلَ ما رُويَ فيه أنَّ يَزيدَ كَتَبَ إلى الوليدِ بنِ عُتبةَ[1] يَنْعي له مُعاوِيَةَ ويأمرُه أنْ يَأْخذَ له البَيْعةَ على أهلِ المدينةِ – وقدْ كانتْ تَقَدَّمتْ[2] – فدَعا مَرْوانَ فأخْبرَه فقالَ له: أَرْسلْ إلى الحُسَيْنِ بنِ عليٍّ وابنِ الزُّبَيْرِ، فإنْ بايَعوا وإلا فاضْرِبْ أعناقَهم. قالَ: سُبْحانَ اللهِ! تقتلُ الحُسَيْنَ بنَ عليٍّ وابنَ الزُّبَيْرِ؟ قال: هو ما أقولُه لكَ. فأرسَلَ إليهما، فأتاه ابنُ الزُّبَيْرِ، فنَعَى إليه مُعاوِيَةَ وسَأَلَه البَيْعةَ، فقالَ: ومِثْلِي يُبايِعُ هنا؟ ارْقَ الْمِنبرَ، وأنا أبايِعُ معَ الناسِ عَلانيةً. فوَثَبَ مَرْوانُ وقالَ: اضْرِبْ عُنُقَه؛ فإنَّه صاحِبُ فِتْنةٍ وشَرٍّ. فقالَ ابنُ الزُّبَيْرِ: فإنَّكَ لهنالكَ يا ابنَ الزَّرْقاءِ؟[3] (واسْتَبّا). فقالَ الوليدُ: اخْرُجا عنّي، وأَرْسَلَ إلى الحُسَيْنِ ولم يُكَلِمْه بكلمةٍ في شيءٍ، وخَرَجا مِنْ عندِه. وجَعَلَ الوليدُ عليهِما الرَّصَدَ[4]. فلمَّا دَنا الصُّبْحُ خَرَجا مُسْرِعَيْنِ[5] إلى مَكَّةَ فالْتَقَيا بها فقالَ له ابنُ الزُّبَيْرِ: ما يَمْنَعُكَ مِنْ شِيعَتِكَ وشِيعةِ أبيكَ؟ فواللهِ لو أنَّ لِيَ مثلَهم لذَهَبْتُ إليْهِم. فهذا ما صَحَّ.

---

١ – الوليد بن عتبة بن أبي سفيان ابن حرب تولى إمارة المدينة المنورة من قبل عمه معاوية. وكان ذا جود وحلم وسؤدد وديانة. وولي الموسم مرات. ولما جاءه نعي معاوية وبيعة يزيد لم يشدد على الحسين وابن الزبير، فلامه مروان، فقال: ما كنت لأقتلهما ولا أقطع رحمهما.

٢ – سبق أن أخذها له معاوية، فلما مات أراد يزيد أن يؤكدها.

٣ – في نهج البلاغة: وما أنت وذاك يا ابن الزرقاء؟ يعني ما شأنك بهذا. والزرقاء اسم كان يعير به مروان.

٤ – العيون والمخبرين.

٥ – يعني الحسين وعبدالله بن الزبير.

وذَكَرَ المؤرِّخونَ أنَّ كُتُبَ أهلِ الكُوفةِ وَرَدَتْ على الحُسَيْنِ[١]، وأنَّه أَرْسَلَ مُسْلِمَ بنَ عَقيلٍ[٢] - ابنَ عمِّه - إليْهِم ليَأْخُذَ عليهم البَيْعَةَ ويَنْظُرَ هو في أَتْباعِه، فنَهاهُ ابنُ عَباسٍ[٣] وأَعْلَمَه أنَّهم خَذَلُوا أَباهُ وأَخاهُ. وأَشَارَ عليهِ ابنُ الزُّبَيْرِ بالخُروجِ فخَرَجَ، فلمْ يَبْلِغِ الكُوفةَ إلا ومُسْلِمُ ابنُ عَقيلٍ قدْ قُتِلَ وأَسْلَمَه مَنْ كان اسْتَدْعاه[٤]. ويَكْفيكَ بهذا عِظَةً لمنِ اتَّعظَ. فتَمادَى واسْتَمَرَّ غَضَباً للدِّينِ وقِياماً

---

١ - قالوا له إنهم أنهم لا يجتمعون مع أميرهم النعمان بن بشير في جمعة ، ويدعون الحسين إليهم حتى إذا أقبل طردوا أميرهم وألحقوه بالشام ، ويقولون في بعضها : "أينعت الثمار، فإذا شئت فاقدم على جند لك مجند" فأرسل الحسين إليهم ابن عمه مسلم بن عقيل بن أبي طالب ليرى إن كانوا مستوثقين مجتمعين ليقدم هو عليهم بعد ذلك.

٢ - مسلم بن عقيل بن أبي طالب الهاشمي ابن عم الحسين بن علي. وقد أرسله إلى أهل الكوفة لأخذ البيعة منهم، وهو أوّل من استشهد من أصحاب الحسين بن علي في الكوفة. وقد عُرف فيما بعد بأنّه سفير الحسين.

٣ - عبد الله بن عباس بن عبد المطلب الهاشمي، حبر الأمة وترجمان القرآن، وابن عم النبي ﷺ، وأحد المكثرين لرواية الحديث، وكان مستشارًا لعمر بن الخطاب في خلافته على صغر سنة، وكان يُلقبه بـ فتى الكهول، وشهد مع علي بن أبي طالب موقعة الجمل ووقعة صفين، وكان أميرًا على الميسرة، ثم شهد مع علي قتال الخوارج في النهروان، وأرسله عليّ إلى ستة آلاف من الحرورية فحاورهم ابن عباس، فرجع منهم ألفان. وولاه عليٌّ على البصرة.

٤ - استقبل الكوفيون مسلم بن عقيل بكثير من الحفاوة، وتلا ابن عقيل عليهم كتاب الحسين فخنقتهم العبرات وتعالت نداء المناصرة للحسين. وتروي المصادر أن عدد المبايعين في ذلك اليوم كان ١٨ ألفاً. فأرسل مسلم برسالة للحسين يطلب منه القدوم إلى الكوفة. ووصل الخبر ليزيد فعزل واليه على الكوفة وعين مكانه ابن زياد الذي لم يضيع فرصة فبحث عن مسلم وفرق الناس عنه، حتى صار مسلم وحيداً مختبئاً في أحد البيوت، ورأى أحد أنصار الأمويين مسلم في البيت وعرف أوصافه فأسرع لإبلاغ الشرطة بذلك. ولم يمر وقت طويل قبل أن يحاصر منزل ابن عقيل فخرج يقاتل الجنود حتى لم يقدروا عليه على كثرة عددهم، فعرض عليه محمد بن الأشعث الأمان مقابل أن يرمي سلاحه فقبل ابن عقيل ذلك. ودمعت عيناه عند اعتقاله فهوّن ابن الأشعث عليه فقال له: "إني والله ما لنفسي أبكي، ولا لها من القتل أرثي، وإن كنت لم أحب لها طرفة عين تلفًا، ولكن أبكي لأهلي المقبلين إليَّ، أبكي لحسين وآل حسين". واقتادوا ابن عقيل إلى قصر الإمارة حيث عبيد الله بن زياد الذي لم يكترث للأمان الذي وُعِدَ به ابن عقيل فأمر بقتله ورموه من فوق القصر.

بالحقّ. ولكنَّه رَضِيَ اللهُ عنْه لم يَقْبَلْ نَصيحَةَ أَعْلَمِ أهْلِ زمانِه ابنِ عَباسٍ، وعَدَلَ عنْ رأْيِ شَيْخِ الصَّحابةِ ابنِ عُمَرَ، وطَلَبَ الابْتِداءَ في الانْتهاءِ، والاسْتِقامةَ مِنْ أَهْلِ الاعْوجاجِ، ونَضارَةَ الشَّبيبةِ في هَشِيمِ الْمَشْيَخةِ، ليسَ حَوْلَه مِثْلُه، ولا له مِنَ الأنصارِ مَنْ يَرْعى حقَّه، ولا مَنْ يَبْذُلُ نَفْسَه دُونَه، فأَرَدْنا أنْ نُطَهِّرَ الأَرْضَ مِنْ خَمْرِ يزيدَ[1] فأَرَقْنا دَمَ الحُسَيْنِ[2]، فجاءتْنا مُصيبةٌ لا يَجْبُرُها سُرورُ الدَّهْرِ[3].

إخبار النبي ﷺ بهذه الفتن

وما خَرَجَ إليه أَحَدٌ إلا بتأويلٍ، ولا قاتَلُوه إلا بما سَمِعوا مِنْ جَدِّه الْمُهَيْمِنِ على الرُّسُلِ، الْمُخْبِرِ بِفسادِ الحالِ، المحَذِّرِ عنِ الدُّخولِ في الفِتَنِ. وأقوالُه في ذلك كثيرةٌ: منها ما رَوى مُسْلِمٌ عنْ زيادِ بنِ عِلاقةَ[4] عنْ عَرْفَجَةَ بنِ شُريحٍ[5] قولَه صَلَّى اللهُ عليهِ وَسَلَّمَ «إِنَّهَا سَتَكُونُ هَنَاتٌ وَهَنَاتٌ[6]، فَمَنْ أَرَادَ أَنْ يُفَرِّقَ أُمَّةَ مُحَمَّدٍ وَهُمْ جَمِيعٌ، فَاضْرِبُوهُ بِالسَّيْفِ كَائنًا مَنْ كَانَ». فما خَرَجَ النّاسُ إلا بهذا وأمثالِه. ولو أنَّ عَظِيمَها وابنَ عَظِيمِها وشَرِيفَها وابنَ شَرِيفِها الحُسَيْنَ يَسَعُه

---

١ - في زعم مثيري الفتنة الذين يشهدون بغير ما علموا.

٢ – فماذا سيقولون لجدِّه إذا سألهم عن ذلك في الآخرة؟

٣ – مصيبة قتل ابن النبي الذي قال فيه: حُسينٌ منّي وأنا من حسين، أحبَّ اللهُ مَن أحبَّ حُسينًا.

٤ – زياد بن عِلاقة الغَطَفَانِيُّ الكوفيُّ التَّابعيُّ، من الثقات المعمرين، يقال إنه أدرك ابن مسعود.

٥ – صحابي عاش في البصرة.

٦ – أي: شُرورٌ ومَفَاسِدُ مُتتابِعَةٌ خارِجةٌ عن السُّنةِ والجماعةِ.

بَيْتُه أو ضَيْعتُه أو إِبِلُه، ولو جاء الخَلْقُ يَطلبونَه ليَقُومَ بالحقِّ - وفي جُمْلَتِهمُ ابنُ عباسٍ وابنُ عُمَرَ - لم يلتفتْ إليهم، وحَضَرَه ما أَنْذَرَ به النبيُّ صَلَّى اللهُ عليهِ وَسَلَّمَ وما قالَ في أَخيه[1]، ورَأَى أنَّها قدْ خَرَجَتْ عنْ أَخيه ومعه جُيوشُ الأرضِ وكبارُ الخَلْقِ يَطْلُبونَه، فكيفَ تَرْجِعُ إليه بأَوْباشِ الكُوفةِ وكِبارُ الصَّحابةِ يَنْهَوْنَه ويَنْأَوْن عنه؟[2]

وما أَدْري في هذا إلا التَّسْليمَ لقَضاءِ اللهِ والحُزْنَ على ابنِ بِنْتِ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عليهِ وَسَلَّمَ بَقِيَّةَ الدَّهْرِ. ولولا مَعْرِفةُ أَشْياخِ وأَعْيانِ الأُمَّةِ بأنَّه أمرٌ صَرَفَه اللهُ عنْ أهلِ البيتِ وحالٌ مِنَ الفِتْنةِ لا يَنْبَغي لأَحَدٍ أنْ يَدْخُلَها ما أَسْلَمُوه أَبَداً[3].

ما ورد في منزلة يزيد

وهذا أحمدُ بنُ حَنْبلٍ - على تَقَشُّفِه وعَظيمِ مَنْزلتِه في الدِّينِ ووَرَعِه - قدْ أَدْخَلَ عنْ يزيدَ بنِ مُعاوِيَةَ في كتابِ الزُّهدِ أنَّه كان يقولُ في خُطْبَتِه: «إذا مَرِضَ أَحَدُكم مَرَضاً فأَشْفى[4] ثم تَماثَلَ[5] فلْيَنظرْ إلى أفضلِ عملٍ عندَه فلْيَلزمْه

---

١ - قال في الحسن: ابني هذا سيد ولعل الله أن يصلح به بين فئتين عظيمتين من المسلمين.

٢ - عبارة القاضي ابن العربي غير مكتملة، فهي مبنية على فعل الشرط الذي لم يذكر جوابه. ولو رحنا نقدر جواباً لهذا الشرط فلن نجد أمامنا إلا أن نقول: لو أدرك الحسين كل ذلك لما وقع له ما وقع. فهل قصد ذلك؟

٣ - ما أسلمه إلا الذين دعَوْه إليهم من أوباش الكوفة.

٤ - أَشْرَفَ على الْمَوْتِ، اِقْتَرَبَ مِنْهُ.

٥ - تَمَاثَلَ الْمَريضُ مِنْ مَرَضِهِ: قارَبَ الشِّفاءَ ودخل في طَوْرِ النَّقاهَةِ.

ولْيَنظرْ إلى أَسْوَأِ عملٍ عندَه فلْيَدعْه. وهذا يَدُلُّ على عَظيمِ مَنْزلتِه عندَه حتى يُدْخِلَه في جُملةِ الزُّهادِ مِنَ الصَّحابةِ والتَّابعينَ الذين يُقتدَى بقَوْلِهم ويُرْعَوَى مِنْ وَعْظِهم. ونَعَمْ، ما أَدْخَلَه إلا في جُملةِ الصَّحابةِ، قَبْلَ أنْ يَخْرَجَ إلى ذِكْرِ التابعينَ.

فأينَ هذا مِنْ ذِكْرِ المؤرِّخينَ له في الخَمْرِ وأنواعِ الفُجورِ، ألا تَسْتَحيونَ؟ وإذا سَلَبَهم اللّهُ الْمُروءةَ والحياءَ، ألا ترعَوُونَ أنتم وتَزْدَجِرونَ وتَقْتَدُونَ بالأَحْبارِ والرُّهبانِ مْنْ فُضلاءِ الأُمَّةِ، وتَرْفُضونَ الْمَلاحِدةَ والْمُجَّانَ مِنَ المنتمينَ إلى الْمِلَّةِ {هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ} والحمدُ للّهِ رَبِّ العالَمينَ.

وانْظُروا إلى ابنِ الزُّبَيْرِ بعدَ ذلكَ وما دَخَلَ فيه مِنَ البَيْعةِ له بمكَّةَ، والأرضُ كلُّها عليه[١].

١ – عبد الله بن الزبير بن العوام القرشي (١ هـ – ٧٣ هـ) صحابي من صغار الصحابة، وابن الصحابي الزبير بن العوام، وأمه أسماء بنت أبي بكر الصديق، وهو أول مولود للمسلمين في المدينة المنورة بعد هجرة النبي محمد إليها، وفارس قريش في زمانه والمكنّى بأبي بكر. كان أحد الوجوه البارزة التي دافعت عن الخليفة الثالث عثمان بن عفان حين حاصره الثائرون أثناء فتنة مقتله، كما شارك في قيادة بعض معارك الفتوحات الإسلامية. رفض ابن الزبير مبايعة يزيد بن معاوية خليفة للمسلمين بعد وفاة معاوية بن أبي سفيان، فأخذه يزيد بالشدة، مما جعل ابن الزبير يعوذ بالبيت الحرام. ولم يمنع ذلك يزيد أن يرسل إليه جيشًا حاصره في مكة، ولم يُرفع الحصار إلا بوفاة يزيد نفسه سنة ٦٤ هـ. بوفاة يزيد أعلن ابن الزبير نفسه خليفة للمسلمين واتخذ من مكة عاصمة لحكمه، وبايعته الولايات كلها إلا بعض مناطق في الشام، والتي دعمت الأمويين وساعدتهم على استعادة زمام أمورهم. لم تصمد دولة ابن الزبير طويلاً بسبب الثورات الداخلية على حكمه وأبرزها ثورة المختار الثقفي في العراق، إضافة إلى اجتماع الأمويين

وانْظُروا إلى ابنِ عَباسٍ وعَقْلِه وإقبالِه على نَفْسِه. وانْظُروا إلى ابنِ عُمَرَ وسِنِّه وتَسْليمِه للدُّنيا ونَبْذِه لها. ولو كانَ للقيامِ وجهٌ لكانَ أوْلى بذلكَ ابنُ عباسٍ، فإنَّ ولَدَيْ أَخيه عُبَيْدِ اللهِ قدْ ذُكِرَ أنهما قُتَلا ظُلْماً[١]. ولكنْ رَأَى بعَقْلِه أنَّ دَمَ عثمانَ لم يُخلَصْ إليه، فكيف بِدَمِ ولَدَيْ عُبَيْدِ اللهِ؟ وإنَّ الأمرَ راهَقَ[٢]، وقدْ خَرَجا عنه حِفْظاً للأصلِ[٣]، وهو اجتماعُ أمرِ الأمةِ وحَقْنُ دِمائها وائتلافُ كَلِمتِها.

ودَعُوا الأمرَ يَتَوَلّاهُ أَسْوَدُ مُجَدَّعٌ حَسْبَما أَمَرَ به صاحِبُ الشَّرْعِ صَلَواتُ اللهِ عليه وسلامُه[٤]، فكلٌّ منهم[٥] عَظيمُ القَدْرِ مجتهدٌ، وفيما دَخَلَ فيه مُصِيبٌ مأجورٌ، ولله فيه حُكْمٌ قدْ أَنْفَذَه، وحُكْمٌ في الآخرةِ قدْ أَحْكَمَه وفَرَغَ منه. فاقْدُروا هذه الأمةَ مَقاديرَها، وانْظُروا بما قابَلَها ابنُ عباسٍ وابنُ عُمَرَ فقابِلُوها به، ولا تَكُونوا مِنَ السُّفَهاءِ الذينَ يُرْسِلونَ أَلْسِنَتَهم وأَقْلامَهم بما لا فائدَةَ لهم

حول مروان بن الحكم ومن بعده ولده عبد الملك في الشام، مما مكّنهم من استعادة باقي مناطق الشام ومصر ثم العراق والحجاز. انتهت دولة ابن الزبير بمقتله سنة ٧٣ هـ، بعد أن حاصره الحجاج بن يوسف الثقفي في مكة.

١ – قيل إن معاوية أرسل أحد قادته إلى اليمن وهو بسر بن أرطأة، وكان عليها عبيد الله بن عباس عاملاً لعليٍّ، فهرب عبيد الله إلى الكوفة. وجاء بسر وأخذ ابنين لعبيد الله بن عباس صغيرين هما: عبد الرحمن وقثم فقتلهما، وكانا عند رجل من كنانة بالبادية، فلما أراد قتلهما قال له الكناني: لِمَ تقتل هذين ولا ذنب لهما؟ فإن كنت قاتلهما فاقتلني معهما! فقتله وقتلهما بعده. والله أعلم.

٢ – أي اختلط فيه الحق بالباطل.

٣ – يعني ابن عمر وابن عباس حَرِصا على وحدة الأمة وحقن دمائها فلم يهيّجا الناس على يزيد.

٤ – في قوله ﷺ: إن أُمِّرَ عليْكم عبدٌ حبشيٌّ مجدَّعٌ فاسمعوا لَهُ وأطيعوا ما قادَكم بِكتابِ اللَّهِ. صححه الألباني.

٥ – أي الصحابة الذين عاصروا هذا الأمر.

فيه، ولا يُغْني مِنَ اللهِ ولا مِنْ دُنياهُم شيئاً عنهم. وانْظُروا إلى الأئمَّةِ الأخْيارِ وفُقَهاءِ الأمْصارِ، هلْ أَقْبَلُوا على هذه الخُرافاتِ وتَكَلَّمُوا في مِثْلِ هذه الحَماقاتِ؟ بل عَلِمُوا أنَّها عَصَبِيّاتٌ جاهِلِيَّةٌ وحَمِيَّةٌ باطِلَةٌ لا تُفيدُ إلا قَطْعَ الحَبْلِ بينَ الخَلْقِ وتَشْتيتَ الشَّمْلِ واخْتلافَ الأَهْواءِ. وقدْ كانَ ما كانَ، وقالَ الإخْباريونَ ما قالُوا، فإمَّا سُكوتٌ وإمَّا اقتداءٌ بأهلِ العلمِ وطرحٌ لسَخافاتِ المؤرِّخينَ والأُدباءِ. واللهُ يُكمِلُ علينا وعليْكُم النَّعماءَ برَحْمتِه.

نكتة

وعَجَباً لاسْتِكْبارِ النّاسِ وِلايةَ بَني أُمَيَّةَ وأوَّلُ مَنْ عَقَدَ لهم الوِلايةَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عليهِ وَسَلَّمَ، فإنَّه وَلَّى يومَ الفَتْحِ عَتّابَ بنَ أُسَيدٍ[١] بنِ أبي العِيصِ بنِ أُميةَ مَكَّةَ – حَرَمَ اللهِ وخيرَ بلادِه – وهو فتى السن قدْ أَبْقَلَ[٢] أو لم يُبْقِلْ. واسْتَكْتَبَ مُعاوِيَةَ بنَ أبي سفيانَ أَميناً على وحْيِه، ثمَّ وَلَّى أبو بكرٍ يزيدَ بنَ أبي سفيانَ – أَخاه – الشَّامَ. وما زالوا بعدَ ذلكَ يَتَوَقَّلُونَ[٣] في سُلَّمِ الْمَجْدِ ويَتَرَقَّوْنَ في دَرَجِ العِزِّ، حتّى أَنْهَتْهم الأيامُ إلى مَنازلِ الكِرامِ. وقَدْ رَوَى الناسُ أَحاديثَ فيهم لا أَصْلَ لها، منها حديثُ رؤيةِ النبيِّ صَلَّى اللهُ عليهِ وَسَلَّمَ بَني

---

١ – تاب بن أسيد الأموي صحابي جليل جعله النبي محمد واليا على مكة. وكان حسن السيرة قال: أصبت في عملي الذي استعملني عليه رسول الله بردين معقدين، كسوتهما غلامي كيسان، فلا يقولن أحدكم: أخذ مني عتاب كذا! فقد رزقني رسول الله كل يوم درهمين، فلا أشبع الله بطناً لا يشبعه كل يوم درهمان.

٢ – أبقل: نبت شعر لحيته. كناية عن البلوغ.

٣ – يصعدون.

أمية يَنْزون على مِنْبَرِه[١] كالقِرَدَةِ، فعَزَّ عليه، فأُعْطِيَ ليلةَ القَدْرِ خَيراً مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ يَمْلِكُها بنو أُمَيَّةَ. ولو كان هذا صَحيحاً ما اسْتَفْتَحَ الحالَ بوِلايَتِهم، ولا مَكَّنَ لهم في الأَرْضِ بأفْضَلِ بِقاعِها وهيَ مَكَّةُ. وهذا أَصْلٌ يَجِبُ أنْ تَشُدَّ عليه اليَدَ.

استلحاق مُعاوِيَة زياداً

فإنْ قيلَ: أَحْدَثَ مُعاوِيَةُ في الإسلامِ الحُكْمَ بالباطِلِ والقَضاءَ بما لا يَحِلُّ مِنَ استلحاقِ زِيادٍ[٢]. قلْنا قدْ بَيَّنا في غيرِ مَوْضعٍ أنَّ اسْتِلْحاقَ زيادٍ[٣] إنما كان لأشياءَ صَحيحةٍ، وعملٍ مُستقيمٍ نُبَيِّنُه بعدَ ذِكْرِ أمثلِ ما ادَّعى فيه المدَّعونَ مِنَ الانحرافِ عنْ الاستقامةِ، إذْ لا سَبيلَ إلى تَحْصيلِ باطِلِهم، لأنَّ خَرْقَ الباطِلِ لا يُرْقَعُ[٤]، ولِسانُه أعظمُ منه فكيف به لا يَقْطَعُ؟!

قالُوا: كان زيادٌ ينتسِبُ إلى عُبَيْدٍ الثَّقَفيّ مِنْ سُمَيَّةَ جارِيَةَ الحارِثِ بنِ كَلَّدَةَ[٥]، واشْتَرى زِيادٌ عُبَيْداً – أباه – بألفِ دِرْهَمٍ فأَعْتَقَه.

---

١ – يتقافزون ويتواثبون مثل القردة.

٢ – استلحق فلانٌ فلاناً: وصل نسبَه به وجعله من أقاربه. وسوف يورد المؤلف ما ورد في شأن زياد ثم يرد عليه.

٣ – كان مجهول النسب ويسمونه زياد بن أبيه حتى اعترف به معاوية أخاً له من أبيه أبي سفيان. وكان قائداً عسكرياً في عهد الخلافة الراشدة، وسياسياً أموياً شهيراً، ساهم في تثبيت الدولة الأموية ومن دهاة العرب.

٤ – وهذا من المثل المشهور (اتسع الخرق على الراقع) إذا كان الفساد كبيراً لا يمكن إصلاحه.

٥ – طبيب عربي مشهود له ببراعته في الطب، عاش في العصر الجاهلي وأدرك الإسلام. وكانت سمية أم زياد لكبير من دهاقين الفرس ، فاشتكى وجع البطن وخاف أن يكون أصيب بداء الاستسقاء، فدعا الحارث بن كلدة الثقفي طبيب العرب

قالَ أبو عُثمانَ النَّهْديُّ[١]: فكنَّا نَغْبِطُه[٢]. واسْتَعْمَلَه عُمَرُ على بعضِ صَدَقاتِ البَصْرةِ، وقيلَ بل كَتَبَ لأبي موسى، فلمّا لم يَقْطَعِ الشَّهادَةَ معَ الشُّهودِ على الْمُغيرةِ[٣] جَلَدَهم وعَزَلَه وقالَ له: ما عَزلتُكَ لِخِزْيَةٍ، ولكنّي كَرِهْتُ أنْ أَحْمِلَ على النّاسِ فَضْلَ عَقْلِكَ[٤].

ورَوَوا أنَّ عُمَرَ أَرْسلَه إلى اليَمَنِ في إصْلاحَ فَسادٍ، فَرَجَعَ وخَطَبَ خُطْبَةً لم يُسْمَعْ مِثلُها. فقالَ عَمْرُو بنُ العاصِ «أمَا واللهِ لو كانَ هذا الغُلامُ قَرَشِيّاً لساقَ الناسَ بعَصاهُ»، فقالَ أبو سُفيانَ: واللهِ إني لأَعْرفُ الذي وضَعَه في رَحِمِ أُمِّه، فقالَ له عليٌّ: ومَنْ؟ قال: أنا. قال: مَهْلاً يا أبا سُفيانَ. فقال أبو سُفيانَ أبياتاً مِنَ الشِّعرِ:

أمَا واللهِ لولا خوفُ شَخْصٍ　　　يَراني يا عليُّ مِنَ الأَعادي

- وقد كان قدم على كسرى - فعالج الدهقان فبرأ، فوهب له سمية، فولدت له أبا بكرة واسمه نُفيع فلم يقر به. ثم ولدت نافعا فلم يقر به، فلما نزل أبو بكرة إلى النبي قال الحارث بن كلدة لنافع: إن أخاك نفيعاً عبد وأنت ابني: فأقر به يومئذ، وزوج الحارث سمية غلاما له يقال له عبيد فولدت زيادا على فراشه، وكان أبو سفيان سار إلى الطائف فنزل على رجل يقال له أبو مريم السلولي، قال : فأتاه أبو مريم بسمية فوقع بها فولدت زيادا. (ابن عساكر – تاريخ دمشق).

١ - تابعي روى الحديث عن عمر بن الخطاب وعلي بن أبي طالب وعبد الله بن مسعود.

٢ - يورد ابن العربي هذه الأخبار كعادته ثم يرد عليها ويبين وجه الحق فيها.

٣ - الصحابي الجليل المغيرة بن شعبة رضي الله عنه كان أمير البصرة لعمر، فاتهمه نفيع الثقفي ونافع بن الحارث بن كلدة وهما أخوان لزياد من أمه، ومعهما شِبْل بن معبد وزياد أخوهما، فاجتمعوا جميعًا فرأوا المغيرة متبطن امرأةً، فرحلوا إلى عمر فشكوه فعزله، وأحضر المغيرة فشهد عليه الثلاثة بالزنا، وأما زياد فلم يبتَّ الشهادة، وقال رأيت منظرًا قبيحًا، وما أدري أخالطها أم لا، فأمر عمر بجلد الثلاثة حدَّ القذف. (فتح الباري ٥/٢٥٦).

٤ - رد ابن العربي على هذه العبارة وسخّفها فيما يأتي.

لأظْهَرَ أَمْرَه صَخْرُ بنُ حَرْبٍ ولم تَكُنِ المقالةُ عنْ زِيادِ
وقدْ طالتْ مُخاتَلتي ثَقيفاً وتَرْكي فيهمُ ثَمَرَ الفُؤادِ

فذلكَ الذي حَمَلَ مُعاوِيَةَ. واسْتَعْمَلَه عَليٌّ على فارِسَ، وحَمَى وجَبَى وفَتَحَ وأَصْلَحَ. وكاتَبَه مُعاوِيَةُ يَرومُ إفسادَه، فوجَّه زيادٌ بكتابِه إلى عليٍّ بشِعْرٍ، فكَتَبَ إليه عليٌّ: «إنّي وَلَّيْتُكَ ما وَلَّيْتُكَ وأنتَ أهلٌ لذلكَ عِندي، ولنْ يُدْرَكَ ما تُريدُ بما أنتَ فيه إلا بالصَّبرِ واليَقينِ. وإنَّما كانتْ مِنْ أبي سُفيانَ فَلْتَةٌ زَمَنَ عُمَرَ، لا تَسْتَحِقُّ بها نَسَباً ولا مِيراثاً. وإنَّ مُعاوِيَةَ يأتي المؤمنَ مِنْ بينِ يَدَيْه ومِنْ خَلْفِه». فلمّا قَرَأَ زيادٌ الكتابَ قال: «شَهِدَ لي أبو حَسَنٍ وربِّ الكَعبةِ». فذلكَ الذي جَرَّأَ زياداً ومُعاوِيَةَ بما صَنَعا ثمَّ ادَّعاه مُعاوِيَةُ سَنَةَ أربعٍ وأربعينَ وزوَّجَ مُعاوِيَةُ ابنتَه مِنَ ابنِه محمدٍ. وبَلَغَ الخَبَرُ أبا بَكْرَةَ – أخاه لأمِّه – فآلى يميناً ألّا يكلمه أَبَداً، وقالَ «هذا زَنَّى أمَّه[١]، وانْتَفى مِنْ أَبيهِ. واللهِ ما رأتْ سُميةُ أبا سفيانَ قَطُّ، وكيف يَفْعلُ بأمِّ حَبيبةَ[٢]: أيراها فيَهْتَكَ حُرمةَ رسولِ اللهِ، وإنْ حَجَبَتْه فضَحَتْه»[٣]. فقالَ زيادٌ: جَزَى اللهُ أبا بَكرةَ خَيراً، فإنه لم يَدَعِ النَّصيحةَ في حالٍ. وتَكَلَّمَ فيه الشُّعراءُ، ورَوَوا عنْ سَعيدِ بنِ المسَيبِ[٤] أنَّه قالَ: أوَّلُ قضاءٍ كان في الإسلامِ بالباطلِ اسْتِلْحاقُ زيادٍ.

---

١ – جعلها متهمة بالزنا بما فعله من انتسابه إلى أبي سفيان.

٢ – أم حبيبة هي أم المؤمنين السيدة رملة بنت أب سفيان زوج النبي ﷺ وأخت معاوية.

٣ – المقصود أنه إن لم يكن حقاً أخاً لأبي سفيان فإنه لا يجوز له أن يرى أم حبيبة.

٤ – تابعي مدني، مُلقّب بـ «عالم أهل المدينة»، وبـ «سيد التابعين» في زمانه، وأحد رواة الحديث النبوي.

قالَ القاضِي أبو بكرٍ رَضِيَ اللهُ عنه: قدْ بَيَّنا في غيرِ مَوْضعٍ هذا الخَبَرَ، وتَكَلَّمْنا عليه بما يُغْني عنْ إعادَتِه، ولكنْ لا بدَّ في هذه الحالِ مِنْ بَيانِ المقصودِ منْه فنقولُ: كلُّ ما ذَكَرْتُم لا نَنْفِيه ولا نُثْبِتُه لأنَّه لا يُحتاجُ إليه. والذي نَدْريه حَقّاً ونَقْطَعُ به أنَّ زياداً مِنَ الصَّحابةِ بالمولِدِ والرُّؤيَةِ[1]، لا بالتَّفَقُّهِ والمعْرِفةِ. وأمّا أبوهُ فما عَلِمْنا له أَبَاً قَبْلَ دَعْوى مُعاوِيَةَ على التَّحْقيقِ[2]، وإنَّما هي أقوالٌ غائرةٌ من المؤرِّخينَ. وأمّا شِراؤهُ له فمُراعاةٌ للحَضَانةِ فإنَّه حَضَنَه عندَ أُمِّه إذْ دَخَلَ عليه فيه شُبْهةٌ بالحَضَانةِ إليه إنْ كانَ ذلكَ.

وأمّا قولُهم إنَّ أبا عثمانَ النَّهْدِيَّ غَبَطَه بذلكَ فهو بَعيدٌ على أبي عثمانَ، فإنَّه ليس في أنْ يَبْتاعَ أَحَدٌ حاضِنَه أو أَباهُ فيعْتِقَه مِنَ الْمَزِيَّةِ بحيثُ يَغْبِطُه أبو عثمانَ وأمثالُه، لأنَّ هذه مَرْتبةٌ يُدركُها الغنيُّ والفَقيرُ والشَّريفُ والوَضيعُ، ولو بَذَلَ مِنَ المالِ ما يَعْظُمُ قَدْرُه فيَدَرَأَ به قَدْرَ مُروءَتِهِ في إهانةِ الكَثيرِ العَظيمِ، في صِلَةِ الوَلِيِّ الحَميمِ. وإنما ساقُوا هذه الحِكايةَ ليَجْعلُوا له أَبَاً، ويكونَ بمنزلةِ مَنِ انْتَفى مِنْ أَبيه.

وأمَّا استعمالُ عُمَرَ له فصحيحٌ، وناهيكَ تَزْكيةً وشَرَفاً ودَيناً.

---

١ – ترجم له الحافظ ابن حجر في (الإصابة) والحافظ أبو عمر بن عبد البر في (الاستيعاب) ونقل في مولده أنه ولد عام الفتح، وقيل عام الهجرة، وقيل يوم بدر. قال ابن حجر: وجزم ابن عساكر بأنه أدرك النبي ولم يره.

٢ – من الثابت أن الحارث بن كلدة اعترف بأبوته لنافع أخي زياد لأمّه فصار يقال له نافع بن الحارث بن كلدة. ولا يعرف التاريخ أن عُبيداً الثقفي أو الحارث بن كلدة اعترفا بزياد (الخطيب).

وأمّا قولُهم إنَّ عُمَرَ عَزَلَه لأنَّه لم يَشْهَدْ بباطلٍ، بل رُويَ أنه لما شَهِدَ أصحابُه الثلاثةُ، وعُمَرُ يقولُ للمُغِيرَةَ: ذَهَبَ رُبعُكَ، ذَهَبَ نِصْفُكَ، ذَهَبَ ثَلاثةُ أَرْباعِك[1]، فلمّا جاء زيادٌ قال له: إنّي أراكَ صَبِيحَ الوجْهِ، وإنّي لأَرْجو ألّا يَفْضَحَ اللهُ على يَدَيْكَ رَجُلاً مِنْ أصحابِ محمدٍ صَلَّى اللهُ عليهِ وَسَلَّمَ.

وأمّا خُطْبَتَه التي ذَكَروا أنَّه عَجِبَ منها عَمْرو، فما كانَ عندَه فضلُ علمٍ ولا فَصاحةٌ يَفُوقُ بها عَمْراً فمَنْ فوقَه أو دُونَه. وقدْ أَدْخَلَ له الشيخُ المفْتَري[2] خُطَباً ليستْ في الحدِّ المذكورِ.

وأمّا قولُهم إنَّ أبا سُفيانَ اعترفَ به وقالَ شِعْراً فيه، فلا يَرْتابُ ذو تحصيلٍ في أنَّ أبا سُفيانَ لو اعْتَرَفَ به في حياةِ عُمَرَ لم يُخْفِ شَيئاً، لأنَّ الحالَ لم تكنْ تَخلو مِنْ أَحَدِ قِسْمينِ: إمّا أنْ يَرَى عُمَرُ إلاطَتَه به[3] كما رُوي عنه في غيره فيُمْضِيَ ذلكَ، أو يَرُدَّ ذلكَ فلا يَلْزَمُ أبا سفيانَ شَيءٌ باقترافِ ما كان في الجاهليةِ، فذِكْرُهم هذه الحكايةَ الْمُختَرَعَةَ البارِدَةَ الْمُتهافِتَةَ الخارِجَةَ عنْ حَدِّ الدِّينِ والتَّحصيلِ لا مَعْنى له.

---

١ – كلما شهد عليه واحد من الشهود ثبت عليه ربع الشهادة حتى شهد الثلاثة فقال عمر ذهب ثلاثة أرباعك، حتى أنقذه زياد بشهادته غير القاطعة. ومعلوم أن المغيرة لو ثبتت عليه التهمة لكان حده الرجم حتى الموت.

٢ – لعله يريد الجاحظ، وأعظم خطب زياد التي أوردها له في (البيان والتبيين) خطبته التي تسمى (البتراء) وهي في أوائل الجزء الثاني. (الخطيب).

٣ – أي إلحاقه وإلصاقه ونسبته إليه.

وأمَّا تَوْلِيَةُ عليٍّ له فتزكيةٌ.

وأمَّا بَعْثُ مُعاوِيَةَ إليه ليكونَ معه فصحيحٌ في الجُملةِ. وأمَّا تَفْصيلُ ما كَتَبَ مُعاوِيَةُ، أو كَتَبَ زيادٌ به إلى عليٍّ، أو جاوَبَ به عليٌّ زياداً، فهذا كلُّه مَصْنوعٌ.

وأمَّا قولُ عليٍّ «إنَّما كانت مِنْ أبي سُفيانَ فلتةٌ زَمَنَ عُمَرَ لا تَسْتَحِقُّ بها نَسَباً» فلو صَحَّ لكان ذلكَ شَهادةً كما رُوِيَ عنْ زيادٍ، ولم يكن ذلك بمبطلٍ لِمَا فَعَلَ مُعاوِيَةُ، لأنها مَسألةُ اجتهادٍ بينَ العُلماءِ: فرَأَى عليٌّ شيئاً، ورَأَى مُعاوِيَةُ وغيرُه غيرَه.

وأما نُكْتَةُ الكلامِ وهو القولُ في اسْتلحاقِ مُعاوِيَةَ زياداً وأَخْذُ الناسِ عليه في ذلكَ، فأيُّ أَخْذٍ عليه فيه إنْ كانَ سَمِعَ ذلكَ مِنْ أَبيه؟ وأيُّ عارٍ إلى أبي سُفيانَ في أنْ يَليطَ بنفسِه[1] ولَدَ زِناً كان في الجاهِليةِ؟ فمعلومٌ أنَّ سُمَيَّةَ لم تكنْ لأبي سُفيانَ، كما لم يكنْ ابنُ[2] وليدةِ زمعةَ لعتبةَ[3]، لكنْ كانَ لعُتْبَةَ مُنازِعٌ تَعَيَّنَ القضاءُ له، ولم يكنْ لمعاوِيَةَ مُنازِعٌ في زيادٍ.

---

١ – ينسب إليها.

٢ – كلمة (ابن) سقطت من نسخة الخطيب. والسياق والتاريخ يثْبتانها.

٣ – كانَت عادةُ الجاهليَّة إلحاقَ النَّسبِ بالزّنى، وكانوا يَستأجِرون الإماءَ للزّنى فمَن اعترَفَت الأُمُّ بأنَّه له ألحَقوه به، فجاءَ الاسلامُ بإبطالِ ذلِك وبإلحاقِ الوَلَدِ بالفِراشِ الشَّرعيّ، فلمَّا تخاصَم عبدُ بنُ زَمْعَةَ وسَعْدَ بنُ أبي وقَّاص وقام سَعْدٌ بما عَهِدَ إليه أخوه عُتْبةُ مِن سيرة الجاهليَّة ولم يَعلَم سَعْدٌ بُطلانَ ذلِك في الإسلامِ، ولم يكُن حَصَلَ إلحاقُه في الجاهليَّة؛ إمَّا لِعَدَمِ الدَّعوى وإمَّا لِكَونِ الأُمّ لَم تَعترِف به لِعُتبة، فلمَّا كانَ عام الفَتْحِ أَخَذَ الوَلَدَ سَعدُ بنُ أبي وقَّاص، وقال: هو ابنُ أخي عُتبةَ قد عَهِد إليَّ فيه أن أَستَلحِقه به، فقامَ عبدُ بنُ زَمْعَةَ فقالَ: هو أخي وابنُ وَليدةِ أَبي، أي:

اللهمَّ إنَّ هاهنا نُكْتةً اخْتَلَفَ العلماءُ فيها، وهي أنَّ الأخَ إذا اسْتَلْحَقَ أخاً يقولُ هو ابنُ أبي ولم يكنْ له مُنازِعٌ بل كان وَحْدَه، فقال مالكٌ: يَرِثُ ولا يَثْبُتُ النَّسَبُ. وقال الشافعيُّ - في أحدِ القولين - يَثْبُتُ النَّسَبُ ويأخذُ المالَ، هذا إذا كان الْمُقَرُّ به غيرَ معروفِ النَّسبِ. واحتجَّ الشافعيُّ بقولِ النبيّ صَلَّى اللهُ عليهِ وَسَلَّمَ «هو لكَ يا عبدُ بنُ زمعةَ، الولدُ للفِراشِ وللعاهرِ الحَجرُ» فقَضَى بكونِه للفِراشِ وبإثباتِ النَّسَبِ.

قُلْنا هذا جَهلٌ عَظيمٌ، وذلكَ أنَّ قولَه إنَّ النبيَّ صَلَّى اللهُ عليهِ وَسَلَّمَ قَضَى بكونَه للفِراشَ صحيحٌ، وأمّا قولُه بثُبوتِ النَّسَبِ فباطلٌ، لأنَّ عَبْداً ادَّعى سَبَبينِ: أَحدُهما الأُخُوَّةُ والثاني وِلادَةُ الفِراشِ. فلو قالَ النبيُّ صَلَّى اللهُ عليهِ وَسَلَّمَ: هو أخوكَ، الولدُ للفِراشِ لكانَ إثباتاً للحُكْمِ وذِكْراً للعِلَّةِ. بَيْدَ أنَّ النبيَّ صَلَّى اللهُ عليهِ وَسَلَّمَ عَدَلَ عنِ الأُخُوَّةِ ولم يَتَعَرَّضْ لها، وأَعْرَضَ عنِ النَّسَبِ ولم يُصَرِّحْ به، وإنما في الصحيحِ في لفظٍ «هو أخوكَ» وفي آخرَ «هو لكَ» معناه فأنتَ أعلمُ به. وقد مَهَّدْنا ذلكَ في مسائلِ الخلافِ[1].

جاريته، وُلِدَ على فِراشِه "فتَساوَقا"، أي: فتَدافَعا بَعدَ تَخاصُمِهما وتَنازُعِهما في الولَدِ إلى النَّبيِّ صلَّى اللهُ علَيه وسلَّم وحَكَيا إلَيه، فقالَ صلَّى اللهُ علَيه وسلَّم: هو، أي: الولَدُ لَكَ يا عبدُ بن زَمْعَةَ. الولَدُ تابع للفِراشِ، أي: لصاحِبِ الفِراشِ، زوجًا أو سيِّدًا. "ولِلعاهِر"، أي: الزَّاني، الحَجَرُ، أي: الخَيبةُ، ولا حَقَّ له في الولَدِ. رواه البخاري ومسلم وأصحاب السنن.

١ - لابن العربي كتاب (الإنصاف في مسائل الخلاف) ٢٠ مجلداً.

فالحارثُ بنُ كَلَدَةَ لم يدَّعِ زياداً ولا كان إليه مَنْسوباً، وإنما كانَ ابنَ أَمَتِه وُلِدَ على فِراشِهِ - أيْ في دارِه - فكلُّ مَنِ ادَّعاه فهو له، إلا أنْ يُعارِضَه مَنْ هو أَوْلى به منه، فلم يكنْ على مُعاوِيَةَ في ذلكَ مَغْمَزٌ، بلْ فَعَلَ فيه الحقَّ على مَذْهَبِ مالِكٍ.

فإنْ قيلَ: فلِمَ أنْكَرَ عليه الصحابةُ؟

قُلْنا: لأنَّها مَسْألةُ اجتهادٍ، فمَنْ رَأَى أنَّ النَّسَبَ لا يَلْحَقُ بالوارثِ الواحدِ أَنْكَرَ ذلكَ وعَظَّمَه.

فإنْ قيلَ: ولِمَ لَعَنُوه، وكانوا يَحْتَجّونَ بقولِ النبيِّ صَلَّى اللهُ عليهِ وَسَلَّمَ «مَلْعونٌ مَنِ انْتَسَبَ لغيرَ أَبيه، أوِ انْتَمى إلى غيرِ مَواليه[١]»؟

قلْنا: إنَّما لَعَنَه مَنْ لَعَنَه لِوَجْهَينِ: أَحَدُهما لأنَه أَثْبَتَ نَسَبَه مِنْ هذا الطَّريقِ، ومَنْ لم يَرَ لَعَنَه لغيرِه. وكان زيادٌ أَهْلاً أنْ يُلْعَنَ - عندَهم - لِمَا حَدَثَ بعدَ استلحاقِ مُعاوِيَةَ. فإنْ قيلَ: جَعَلَ النبيُّ صَلَّى اللهُ عليهِ وَسَلَّمَ للزِّنا حُرْمَةً، وَرَتَّبَ عليها حُكْماً حينَ قالَ «احْتَجِبي منه يا سَوْدَةُ»[٢]، وهذا يَدُلُّ على أنَّ الزِّنا يَتَعَلَّقُ به مِنْ حُرْمةِ الوَطْءِ ما يَتَعَلَّقُ بالنِّكاحِ الصحيحِ. هكذا قالَ

---

١ - رواه البخاري ومسلم والترمذي وأبو داود.

٢- قال النبي ﷺ لسودة بنت زمعة وهي أم المؤمنين: "احتجبي منه" لِمَا رأى من شَبه بينه وبين عتبة بن أبي وقاص. وعبد بن زَمْعَةَ هو أخو سَوْدَة بنت زَمْعَة لأبيها، كان شريفًا سَيِّدًا من سادات الصحابة. أخرج الحديث البخاري ومسلم.

الكوفيّونَ. ومالِكٌ في رِوايةِ ابنِ القاسِمِ يُساعِدُهم على المسألةِ ولا يُساعِدُهم على دِليلِها مِنْ هذا الوجْهِ، وقدْ بَيّناها في كتابِ النِّكاحِ.

وقالَ الشافعيُّ: العُذْرُ في أمرِ النبيِّ صَلَّى اللهُ عليهِ وَسَلَّمَ لسَوْدةَ بالاحتجابِ مع ثبوتِ نَسَبِه مِنْ زَمْعَةَ وصحةِ أُخُوَّتِه لها بدَعْوى عَبْدٍ أنَّ ذلكَ تَعْظيمٌ لحُرْمَةِ أزواجِ النبيِّ صَلَّى اللهُ عليهِ وَسَلَّمَ لأنَّهن لم يَكُنَّ كأحدٍ مِنَ النساءِ في شَرَفِهن وفَضْلِهنَّ[1].

قلْنا: لو كانَ أَخاها بنَسَبٍ ثابتٍ صَحيحٍ كما قُلْتم، ويكونُ قولُ النبيِّ صَلَّى اللهُ عليهِ وَسَلَّمَ «الولدُ للفِراشِ» تحقيقاً للنَّسَبِ، لَمَا مَنَعَ النبيُّ صَلَّى اللهُ عليهِ وَسَلَّمَ سَوْدَةَ منه، كما لم يَمْنَعْ عائشةَ مِنَ الرَّجُلِ الذي قالتْ: هو أَخي في الرَّضاعةِ، وإنما قالَ «انظرْنَ مَنْ إخوانُكنَّ»[2].

وأمّا ما رُويَ عنْ سَعيدِ بنِ المسَيّبِ، فأخبرَ عنْ مَذْهبِه في أنَّ هذا الاستلحاقَ ليس بصحيحٍ، وكذلكَ رأى غيرُه مِنَ الصحابةِ والتابعينَ. وقدْ صارتِ المسألةُ إلى الخلافِ بينَ الأمةِ وفقهاءِ الأمصارِ، فخَرَجَتْ مِنْ حَدِّ الانتقادِ إلى حَدِّ الاعتقادِ.

---

١ – قال تعالى (يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ النِّسَاءِ).

٢ – عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ دَخَلَ عَلَيْهَا وَعِنْدَهَا رَجُلٌ، فَكَأَنَّهُ تَغَيَّرَ وَجْهُهُ، كَأَنَّهُ كَرِهَ ذَلِكَ، فَقَالَتْ: إِنَّهُ أَخِي، فَقَالَ: انْظُرْنَ مَنْ إِخْوَانُكُنَّ، فَإِنَّمَا الرَّضَاعَةُ مِنَ المجَاعَةِ. (رواه البخاري ومسلم وأصحاب السنن).

وقدْ صَرَّحَ مالكٌ في كتابِ الإسلامِ وهو الموطَّأُ بنَسَبِه[١] فقالَ في دولةِ بَني العباسِ «زيادُ بنُ أبي سفيانَ»، ولم يَقُلْ كما يقولُ المجادلُ «زيادُ بنُ أَبيه». هذا على أنَّه لا يَرَى النَّسَبَ يَثْبُتُ بقولِ واحدٍ، ولكنْ في ذلكَ فِقْهٌ بَديعٌ لم يَفْطِنْ له أحدٌ، وهو أنَّها لَمّا كانتْ مسألةَ خِلافٍ، ونَفَذَ الحُكْمُ بأحدِ الوجْهينِ، لم يكنْ لها رُجوعٌ، فإنَّ حُكْمَ القاضي في مسائلِ الخِلافِ بأحدِ القولينِ يُمْضيها ويَرْفعُ الخلافَ فيها. واللهُ أعلمُ.

أمّا روايتُهم أنَّ عُمَرَ قالَ «كَرِهْتُ أنْ أَحْملَ فَضْلَ عقلِكَ على الناسِ» فهذه زيادةٌ ليسَ لها أصلٌ، مِنْ ناقصِ عَقْلٍ. وأيُّ عقلٍ كان لزيادٍ يزيدُ على الناسِ في أيامِ عُمَرَ[٢]، وغلامُ كلِّ واحدٍ مِنَ الصحابةِ كان أعقلَ مِنْ زيادٍ وأَعْلَمَ منه؟ ولهذا كلُّ مَنْ كَمُلَ عَقلُه أكثرَ مِنَ الآخرِ فهو أَولى أنْ يَخْتلطَ مع الناسِ.

ويقولونَ كان داهيةً، وهي كلمةٌ واهيةٌ. الدَّهاءُ والأَرْبُ هو المعروفُ بالمعاني والاستدلالِ على العواقبِ بالمبادِئ. وكلُّ أحدٍ منَ الصحابةِ والتابعينَ فوقَ زيادٍ.

وتلكَ الرواياتُ التي يَروي المؤرخونَ - مِنْ كَذِبِهم - في حِيَلِ الحربِ والفَتْكِ بالناسِ، كلُّ أحدٍ اليومَ يَقْدرُ على مِثْلِها وأكثرِ منها، والحيلةُ إنَّما تكونُ بَديعةً

---

١ - أي بنسب زياد.

٢ - فإنه لما دخل على عمر كان في السابعة عشرة من عمره على ما نقله البخاري في تاريخه الأوسط عن يونس بن حبيب.

وتُنْشى وتُرْوى إذا وافقتِ الدِّينَ. وأمّا كلُّ حكايةٍ تُخالِفُ الدِّينَ فليس في رِوايتِها ولا في رُواتِها خَيرٌ ولا عَقلٌ. وكلُّ الناسِ كما قَدَّمْنا – وخُذْ مِنْ وِلايةِ بَني أُميَّةَ خاصةً – أعقلُ مِنْ زيادٍ وأفصحُ منه. فلا تَلْتَفتوا إلى ما رُويَ مِنَ الأباطيلِ.

نكتة

الوِلاياتُ والعَزْلاتُ لها معانٍ وحقائقُ لا يَعْلَمُها كثيرٌ مِنَ الناسِ. لقدْ عَلِمْتَ أنَّ الرسولَ صَلّى اللهُ عليهِ وَسَلَّمَ مات على زُهاءِ اثْنَيْ عَشَرَ ألفاً مِنَ الصحابةِ مَعْلومينَ. منهم ألفانِ أو نحوُهما مشاهيرُ في الجَلالةِ، وَلَّى منهم أبو بكرٍ سَعداً وأبا عبيدةَ ويزيدَ وخالدَ بنَ الوليدِ وعكرمةَ بنَ أبي جهلٍ ونفراً غيرَهم فوقَهم، وولَّى أنسَ بنَ مالكٍ ابنَ عشرينَ سنةً على البحرينِ اقتداءً بالنبيّ صَلّى اللهُ عليهِ وَسَلَّمَ في عَتّابٍ[1]، ومتى كان اسْتَوْفى المشيخةَ حتى يأخذَ الشُّبانَ؟ وولَّى عُمَرُ أيضاً كذلك، وبادَرَ بعَزْلِ خالدٍ[2]. وذلكَ كلُّه لِفقْهٍ عَظيمٍ ومَعارفَ بَديعةٍ بيانُها في موضِعها مِنْ كُتُبِ الإمامةِ والسياسةِ مِنَ الأصولِ[3]، فخُذوا في غيرِ هذا، فليس هذا البابُ ممّا تَلوكُه أشداقُ أَهْلِ الآدابِ.

---

١ – هو عتاب بن أسيد بن أبي العيص بن أمية. سبق التعريف به.

٢ – أول عمل لعمر بعدما صارت إليه الخلافة أن عزل خالد بن الوليد عن قيادة الجيوش.

٣ – انظر كتاب الإمام الماوردي في السياسة الشرعية.

وأمّا ما رُوي عنْ مُعاوِيَةَ أنَّه اسْتَدعى شُهوداً فشَهِدَ السَّلُولي[١] وسِواه، فسَلْ مَنْ أَلْحَقَ ما رُوي عنِ السَّلوليّ، فإنَّه لم يَكنْ قَطُّ. واسْعَدْ بإسقاطِ ما روى في القصةِ سعيدٌ أو سعدٌ.

وأمّا كلامُ أبي بكرةَ – أخيه لأمِّه – فيه فغيرُ ضائرٍ له، لأنَّ ذلكَ رأيُ أبي بَكْرةَ واجتهادُه.

وأمّا قولُهم فيها عن أبي بَكْرةَ أنه زَنَّ أمَّه، فلو كان ذلكَ صحيحاً لم يَضِرْ أمَّه ما جَرَى في الجاهليةِ في الدِّينِ، فإنَّ اللهَ عَفا عنِ أهلِ الجاهليةِ كلِّها بالإسلامِ وأَسْقَطَ الإثمَ والعارَ منه، فلا يَذْكُرُه إلا جاهلٌ به.

خطورة الحسد

قالَ القاضِي أبو بكرٍ رَضِيَ اللهُ عنه: والناسُ إذا لم يَجِدوا عَيْباً لأحدٍ وغَلَبَهم الحَسَدُ عليه له أَحْدَثوا له عُيوباً. فاقْبَلُوا الوَصِيةَ ولا تَلْتَفِتوا إلا إلى ما صَحَّ مِنَ الأخبارِ، واجْتَنِبوا – كما ذكرتُ لكم – أهلَ التواريخِ، فإنَّهم ذَكَروا عَنِ

١ – السَّلولي مالك بن ربيعة أبو مريم، وكان ذلك سنة ٤٤، وكان معه في الشهادة زياد بن أسماء الحرمازي والمنذر بن الزبير – فيما ذكر المدائني بأسانيده – وجويرية بنت أبي سفيان والمسور بن قدامة الباهلي وابن أبي نصر الثقفي وزيد بن نفيل الأزدي وشعبة بن العلقم المازني ورجل من بني عمرو بن شيبان ورجل من بني المصطلق، شهدوا كلهم على أبي سفيان أن زيادا ابنه، إلا المنذر فشهد أنه سمع عليا يقول: أشهد أن أبا سفيان قال ذلك. فخطب معاوية فاستلحق زيادا، وتكلم زياد فقال: إن كان ما شهد به الشهود حقا فالحمد لله، وإن كان باطلا فقد جعلتهم بيني وبين الله. (الخطيب).

السَّلَفِ أَخباراً صَحيحةً يَسيرةً لِيَتَوَسَّلوا بذلكَ إلى روايةِ الأباطيلِ، فيَقْذِفوا – كما قدَّمنا – في قلوبِ الناسِ ما لا يَرْضاهُ اللهُ تَعالى، ولِيَحْتَقِروا السَّلَفَ ويُهَوِّنوا الدينَ، وهو أعزُّ مِنْ ذلكَ، وهمْ أكرمُ منا، فرَضِيَ اللهُ عنْ جميعِهم.

ومَنْ نَظَرَ إلى أفعالِ الصحابةِ تَبَيَّنَ منها بُطلانَ هذه الهُتوكِ التي يَخْتلِقُها أهلُ التواريخِ فيَدُسّونَها في قلوبِ الضُّعَفاءِ. وهذا زيادٌ لما أحسَّ المنيةَ استخلفَ سَمُرَةَ بنَ جندبٍ[1] مِنْ كبارِ الصحابةِ فقَبِلَ خِلافَتَه. وكيفَ يُظَنُّ به على مَنْزِلَتِه أنَّه يَقْبَلُ ولايةَ ظالمٍ لغيرِ رُشْدِه، وهو على ما هو عليه مِنَ الصُّحْبةِ، وذلكَ مِنْ غيرِ إكراهٍ ولا تَقِيَّةٍ؟ إنَّ هذا لهو الدليلُ المبينُ. فمَعَ مَنْ تُحِبّونَ أنْ تَكونوا: مع سَمُرَةَ بنَ جُنْدبٍ أو مع المسْعودي والمبرِّدِ وابنِ قتيبةَ[2] ونظرائهم؟ وهذا غايةٌ في البيانِ.

---

١ – سمرة بن جندب المتوفي سنة ٥٨ هـ صحابي من كبار الصحابة في الفضل وإن كان أصغرهم في السن. ولما ولي زياد بن أبي سفيان البصرة والكوفة، استعان به، فكان يستخلفه على البصرة إذا سار إلى الكوفة، ويستخلفه على الكوفة إذا سار إلى البصرة. ولما مات زياد استخلفه على البصرة، فأقره معاوية بن أبي سفيان عليها.

٢ – أوضح الأستاذ محب الدين الخطيب أن القاضي أبا بكر حَكَم على ابن قتيبة هذا الحكم القاسي وهو يظن أن كتاب (الإمامة والسياسة) من تأليفه كما سيأتي. وأضاف: وكتاب الإمامة والسياسة ذكرت فيه أمور وقعت بعد موت ابن قتيبة، فدل ذلك على أنه مدسوس عليه من خبيث صاحب هوى. ولو وقف المؤلف على هذه الحقيقة لوضع الجاحظ ومن هم دون الجاحظ في موضع ابن قتيبة.

قاصمة (بالفتنة بعد موت النبي)

كانتِ الجاهليةُ مبنيةً على العصبيةِ متعاملةً بينَها بالحَمِيَّةِ، فلما جاء الإسلامُ بالحقِّ وأظهرَ اللهُ مِنَّتَه على الخَلْقِ، قالَ سُبحانَه {وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا}، وقالَ لنبيِّه: {لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ}، فكانتْ بَرَكَةُ النبيِّ صَلَّى اللهُ عليهِ وَسَلَّمَ تَجْمعُهم، وتَجْمَعُ شَمْلَهم، وتُصْلِحُ قُلوبَهم، وتَمْحو ضَغائنَهم.

واسْتأثَرَ اللهُ برسولِه[1] صَلَّى اللهُ عليهِ وَسَلَّمَ، ونَفَرتِ النُّفوسُ وتماسَكَتِ الظَّواهرُ مُنْجَرَّةً مادام الميزانُ قائماً. فلمّا رُفِعَ الميزانُ -كما تقدَّم ذِكرُه في الحديثِ- أخذَ اللهُ القلوبَ عنِ الأُلفةِ، ونشرَ جَناحاً مِنَ التَّقاطِعِ، حتى سوى جناحينِ بقتلِ عثمانَ، فطارَ في الآفاقِ، واتصلَ الهَرْجُ إلى يومِ المساقِ.

تفرق الأمّة شيعاً وأحزاباً

وصارتِ الخلائقُ عِزِينَ[2]، في كلِّ وادٍ مِنَ العَصَبيةِ يَهيمُونَ: فمنْهم بَكْرِيَّةٌ وعُمَرِيَّةٌ وعُثمانِيَّةٌ وعَلَوِيَّةٌ وعَبّاسِيَّةٌ[3]. كلٌّ تَزْعُمُ أنَّ الحقَّ مَعَها وفي صاحِبِها،

---

١ - يعني توفاه ﷺ .

٢ - يعني متفرقين. وعزين جمع عِزة، ومعناها الجماعة من الناس.

٣ - نسبةً إلى أبي بكر وعمر وعثمان وعليّ والعباس رضي الله عنهم. والمقصود ظهور طوائف كل منها تنتصر لمن تنتسب إليه وتتعصب له على حساب الآخرين، وهم منهم برءاء ولا علم لهم بما كان بعدهم.

والباقي ظَلومٌ غَشومٌ مُقَتِّرٌ مِنَ الخيرِ عَديمٌ. وليس ذلكَ بمذْهبٍ ولا فيه مَقالَةٌ، وإنَّما هي حَماقاتٌ وجَهالاتٌ أو دَسائسُ للضِّلالاتِ؛ حتّى تَضْمَحِلَّ الشريعةُ، وتَهْزَأُ الملاحِدَةُ مِنَ الْمِلَّةِ، ويَلْهو بهمُ الشيطانُ ويَلْعب، وقدْ سارَ بهم في غيرِ مَسيرٍ ولا مَذْهَب.

قالتِ البَكْرِيَّةُ: أبو بكرٍ نَصَّ عليه رسولُ الله صَلَّى اللهُ عليهِ وَسَلَّمَ في الصلاةِ، ورَضِيَتْه الأمَّةُ للدُّنيا، وكانَ عندَ النبيِّ صَلَّى اللهُ عليهِ وَسَلَّمَ بتلكَ المنزلةِ العُليا والمحبّةِ الخالِصَة. ووَلِيَ فعَدَلَ واخْتارَ فأجادَ، إلا أنَّه أَوْهَمَ في عُمَرَ[١] فإنَّه أمرُه غَليظٌ وفَظاظَتُه غَلَبَتْ، وذَكَروا مَعايِبَ. وأمَا عثمانُ فلم يَخْفَ ما عَمِلَ. وكذلكَ عليٌّ. وأمّا العباسُ فغيرُ مَذْكورٍ.

قالتِ العُمَرِيَّةُ: أمّا أبو بكرٍ ففاضِلٌ ضَعيفٌ، وعُمَرُ إمامٌ عَدْلٌ قَوِيٌّ بمدحِ النبيِّ صَلَّى اللهُ عليهِ وَسَلَّمَ له في حَديثِ الرُّؤيا والدَّلوِ والعَبْقريِّ كما تَقَدَّمَ[٢]. وأمّا عثمانُ فخارِجٌ عنِ الطَّريقِ: ما اختارَ والياً، ولا وَفى أَحَداً حَقّاً، ولا كَفَّ أَقارِبَه، ولا اتَّبَعَ سَنَنَ مَنْ كانَ قَبْلَه. وأمّا عليٌّ فجَرَى على الدِّماءِ.

---

١ - يعني أخطأ في معرفته على حقيقته.

٢ - حين قال ﷺ عن أبي بكر "وفيه ضعف" وعن عمر "فلم أر عبقرياً يفري فريه". في الرؤيا التي رأى.

لقدْ سَمِعْتُ في مجالسَ أنَّ ابنَ جُرَيْجٍ[١] كان يُقَدِّمُ عُمَرَ على أبي بكرٍ، وسَمِعتُ الطَّرطوشي[٢] يَقولُ: لو قالَ أحدٌ بتقديمِ عُمَرَ لتبِعْتُه.

وقالتِ العُثْمانِيَّةُ: عُثمانُ له السَّوابِقُ المتَقَدِّمةُ، والفَضائلُ والفَواضِلُ في الذّاتِ والمالِ، وقُتِلَ مَظْلوماً.

وقالتِ العَلَوِيَّةُ: عليٌّ ابنُ عَمِّه وصِهْرُه وأبو سِبْطَيِ النبيِّ صَلَّى اللهُ عليهِ وَسَلَّمَ وولَدُ النبيِّ[٣] صَلَّى اللهُ عليهِ وَسَلَّمَ حضانةً.

وقالتِ العَبّاسِيَّةُ: هو أبو النبيِّ صَلَّى اللهُ عليهِ وَسَلَّمَ وأَوْلاهُم بالتَّقْديمِ بعدَه. وطَوَّلوا في ذلكَ مِنَ الكلامِ ما لا مَعْنى لذِكْرِهِ لدَناءتِه. ورَوَوا أحاديثَ لا يَحِلُّ لَنا أنْ نَذْكُرَها لعَظيمِ الافْتراءِ فيها ودَناءَةِ رُواتِها[٤]. وأكثرُ الملاحِدَةِ على التَّعَلُّقِ بأَهْلِ البَيْتِ[٥] وتَقْدِمَةِ عَليٍّ على جَميعِ الخَلْقِ[٦]. حتّى إنَّ الرَّافِضةَ انْقَسَمَتْ إلى

---

١ – عبد الملك بن عبد العزيز المكي أحد الأعلام توفي سنة ١٥٠. وهو من تابعي التابعين.

٢ – من شيوخ ابن العربي.

٣ – لأن النبي ﷺ رباه وكفله تخفيفاً عن عمه أبي طالب لأنه كان كثير العيال.

٤ – وكان أكثر ذلك في زمن دولتهم. (الخطيب).

٥ – يتخذونهم ذريعة، ويطعنون في كثير من أفاضلهم، ويعرّضون بمثل الإمام زيد، بل يجحدون أخوات فاطمة. ثم إنهم يخالفون صريح شريعة جدِّ أهل البيت بدعوى العصمة والتأليه الفعلي لبعض أفرادهم. (الخطيب)

٦ – حتى الأنبياء، ويغلون على جريمتهم باستثناء نبينا. (الخطيب).

عِشْرينَ فِرْقةً[١]، أعظمُهم بأْساً مَنْ يقولُ إنَّ عليّاً هو اللهُ، والغُرابِيةُ[٢] يقولونَ إنَّه رسولُ اللهِ لكنَّ جِبريلَ عَدَلَ بالرِّسالةِ عنه إلى محمدٍ حَمِيّةً منه معه .... في كُفرٍ باردٍ لا تُسْخِنُه إلا حرارةُ السَّيفِ، فأمّا دِفءُ الْمُناظَرةِ فلا يؤثِّرُ فيه.

عاصمة (بالاحتراز في أمر الصحابة)

إنَّما ذَكَرْتُ لكمْ هذا لتَحْتَرِزوا مِنَ الخَلْقِ، وخاصةً مِنَ المفسِّرينَ والمؤرِّخينَ وأهلِ الآدابِ، فإنَّهم أهلُ جهالةٍ بحرماتِ الدِّين وعلى بِدْعةٍ مُصِرّين، فلا تُبالُوا بما رَوَوا، ولا تَقْبَلوا روايةً إلا عنْ أئمةِ الحديثِ، ولا تَسْمَعوا لمؤرّخٍ كلاماً إلا للطَبَري[٣]، وغيرُ ذلكَ هو الموتُ الأحمرُ والداءُ الأكبرُ.

فإنَّهم يُنْشِئونَ أَحاديثَ فيها اسْتِحقارُ الصَّحابةِ والسَّلفِ والاسْتِخفافُ بهم، واختراعُ الاسْتِرسالِ في الأَقوالِ والأَفعالِ عنهم، وخروجُ مَقاصِدِهم عنِ الدِّينِ إلى الدُّنيا وعنِ الحقِّ إلى الهوَى. فإنْ قاطَعْتُم أهلَ الباطلِ واقْتَصَرْتم على روايةِ

---

١ – الإمامية الزيدية الإسماعيلية الكيسانية الواقفة الشيخية النصيرية.........إلخ

٢ – فرقة من غلاة الشيعة، قالوا محمد ﷺ بعليّ أشبه من الغراب بالغراب والذباب بالذباب، فبعث الله جبريل إلى عليّ فغلط جبريل في تبليغ الرسالة من عليّ إلى محمد، فيلعنون جبريل. (كشاف الفنون للتهانوي).

٣ – محمد بن جرير الطبري، (٢٢٤ – ٣١٠ هـ)، مفسّر ومؤرّخ وفقيه، ولُقِّبَ بإمام المفسرين، كان حافظًا لكتاب الله، عارفًا بالقراءات، بصيرًا بالمعاني، فقيهًا في أحكام القرآن، عالمًا بالسنن وطرقها، وصحيحها وسقيمها، وناسخها ومنسوخها، عارفًا بأقوال الصحابة والتابعين، ومن بعدهم من الخالفين في الأحكام، ومسائل الحلال والحرام، عارفًا بأيام الناس وأخبارهم

العُدولِ، سَلِمْتُم مِنْ هذه الحَبائلِ، ولم تَطْوَوا كَشْحاً[١] على هذه الغَوائلِ. ومِنْ أَشَدِّ شَيءٍ على النّاسِ جاهِلٌ عاقِلٌ أو مُبْتدِعٌ مُحتالٌ. فأمّا الجاهِلُ فهو ابنُ قُتَيْبَةُ[٢]، فلم يُبقِ ولم يَذَرْ للصَّحابةِ رَسْماً في كتابِ "الإمامةُ والسياسةُ"، إنْ صَحَّ عنه جميعُ ما فيه[٣]، وكالْمُبَرِّدِ[٤] في كتابِه الأَدَبِيّ[٥]. وأينَ عقلُه من عقلِ ثَعْلبٍ[٦] الإمامِ المتَقَدِّمِ في أَمالِيه، فإنَّه ساقَها بطريقةٍ أَدَبيةٍ سالمةٍ مِنَ الطَّعْنِ على أَفاضِلِ الأُمَّةِ. وأمّا المبْتَدِعُ المحتالُ فالمسْعودِي[٧]، فإنه يَأتي منه مُتاخَمةُ

١ – يعني لم تُخفوا وتضمروا في أنفسكم وتسكتوا عن هذه الشرور والمفاسد والمصائب.

٢ – ابن قتيبة الدينوري (٢١٣ – ٢٧٦ هـ) أديب فقيه محدِّث مؤرخ مسلم. فارسي له العديد من المصنفات أشهرها عيون الأخبار، وأدب الكاتب. قال عنه ابن كثير: أحد العلماء والأدباء والحفاظ والأذكياء كان ثقة نبيلا.

٣ – قال الأستاذ محب الدين الخطيب: لم يصح عنه شيء مما فيه. ولو صحت نسبة هذا الكتاب للإمام الحجة الثبت أبي محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة (٢١٣ – ٢٧٦) لكان كما قال عنه ابن العربي، لأن كتاب الإمامة والسياسة مشحون بالجهل والغباوة والركة والكذب والتزوير. ولما نشرت لابن قتيبة كتاب (الميسر والقداح) قبل أكثر من ربع قرن، وصدرته بترجمة حافلة له، وسميت مؤلفاته، ذكرت (في ص٢٦ – ٢٧) مآخذ العلماء على كتاب الإمامة والسياسة، وبراهينهم على أنه ليس لابن قتيبة، وأزيد الآن على ما ذكرته في (الميسر والقداح) أن مؤلف الإمامة والسياسة يروي كثيرا عن اثنين من كبار علماء مصر، وابن قتيبة لم يدخل مصر ولا أخذ عن هذين العالمين، فدل ذلك كله على أن الكتاب مدسوس عليه.

٤ – أبو العباس محمد بن يزيد المبرد (٢١٠ – ٢٨٦ هـ) أحد العلماء الجهابذة في علوم البلاغة والنحو والنقد، عاش في العصر العباسي في القرن الثالث الهجري.

٥ – يقصد كتاب "الكامل في اللغة والأدب".

٦ – أبو العباس أحمد بن يحي البغدادي النحوي، الشيباني أو ثعلب (٢٠٠ ـ-٢٩١ هـ) إمام الكوفيين وثالث ثلاثة قامت على أعمالهم مدرسة الكوفة النحوية، العلّامة المحدّث، صاحب الفصيح والأمالي والمجالس.

٧ – علي بن الحسين المسعودي (٢٨٣ – ٣٤٦ هـ) مؤرخ، جغرافي صاحب "مروج الذهب". يعدّه الشيعة من شيوخهم، ويذكرون أن له مؤلفات في الوِصاية وعِصمة الإمام.

الإلحادِ فيما رَوَى مِنْ ذلكَ، وأمّا البِدْعةُ فلا شَكَّ فيه. فإذا صُنْتُم أَسْماعَكم وأَبْصارَكم عنِ مُطالعةِ الباطِلِ، ولم تَسْمَعوا في خَليفَةٍ ما يُنْسَبُ إليه مما لا يَليقُ، ويَذْكُرُ عنه ما لا يَجوزُ نَقْلُه، كنتُم على مَنْهجِ السَّلَفِ سائرين، وعنْ سَبيلِ الباطِلِ ناكِبين.

فهذا مالكٌ[١] رَضِيَ الله عنه قدِ احتجَّ بقضاءِ عبدِ الملكِ بنِ مروانَ في مُوَطَّئه في جملةِ قواعدِ الشريعةِ. وقالَ في روايتِه: «عنْ زيادِ بنِ أبي سفيانَ». فنَسَبَه إليهِ وقدْ عَلِمَ قصَّتَه، ولو كانَ عندَه كما يَقولُ العَوامُّ حَقّاً لَمَا رَضِيَ أنْ يَنْسِبَه ولا ذَكَرَه في كتابِه الذي أسَّسَه للإسلامِ، وقدْ جَمَعَ ذلكَ في أيامَ بَني العباسِ[٢] والدولةُ لهمْ والحُكمُ بأَيْديهم فما غَيَّروا عليه ولا أَنْكَروا ذلكَ منه لفضلِ علومِهم ومعرفتِهم بأنَّ مَسألةَ زيادٍ مَسألةٌ قدِ اخْتَلَفَ الناسُ فيها فمنهم مَنْ جوَّزَها ومنهم مَنْ مَنَعَها، فلم يكنْ لاعتراضِهم إليها سَبيلٌ. وكذلكَ أَعْجَبَهم[٣] – حينَ قَرَأَ الخَليفَةُ على مالكٍ الموَطَّأَ – ذِكْرُ عبدِ المَلِكِ بنِ مروانَ فيه وإذكارُه

---

١ – الإمام مالك بن أنس صاحب "الموطأ" (٩٣– ١٧٩هـ) الفقيه المحدِّث، وثاني الأئمة الأربعة عند أهل السنة الذي قيل فيه: لا يفتى ومالك في المدينة. وقد أثنى عليه العلماء ومنهم الإمام الشافعي بقوله: «إذا ذُكر العلماء فمالك النجم، ومالك حجة الله على خلقه بعد التابعين».

٢ – الذين انقلبوا على الأمويين وأنهوا خلافتهم.

٣ – يعني العباسيين.

بقَضائه، لأنَّه إذا احْتَجَّ العلماءُ بقضائه فسَيُحْتَجُّ بقَضائه أيضاً مثلَه، وإذا طَعَنَ فيه طُعِنَ فيه بمثلِه[١].

وأَخْرَجَ البُخاريُّ عنْ عبدِ اللهِ بنِ دينارٍ[٢] قالَ: شَهِدْتُ ابنَ عُمَرَ حيثُ اجْتَمَعَ الناسُ[٣] على عبدِ الملِكِ بنِ مَرْوانَ كَتَبَ: «إني أُقِرُّ بالسَّمْعِ والطاعةِ لعبدِ الملِكِ أميرِ المؤمنينَ على سُنَّةِ اللهِ وسُنَةِ رسولِه، ما استطعتُ، وإنَ بَنِيَّ قدْ أَقَرّوا بمثلِ ذلكِ»[٤].

وهذا الْمَأْمُونُ كانَ يَقولُ بخَلْقِ القرآنِ، وكذلكَ الواثِقُ[٥]، وأَظْهروا بِدْعَتَهم، وصارتْ مَسألةً مَعْلومةً: إذا ابْتَدَعَ القاضي أو الإمامُ هلْ تَصِحُّ وِلايَتُه وتَنْفُذُ

---

١ – وممن روى عن عبد الملك بن مروان البخاري في كتابه (الأدب المفرد) وروى عن عبد الملك الإمام الزهري، وعروة بن الزبير، وخالد بن معدان من فقهاء التابعين وعبادهم، ورجاء بن حيوة أحد الأعلام. قال نافع مولى ابن عمر: لقد رأيت المدينة وما فيها شاب أشد تشميرا ولا أفقه ولا أقرأ لكتاب الله من عبد الملك بن مروان. وروى الأعمش عن أبي الزناد أن فقهاء المدينة كانوا أربعة: سعيد بن المسيب وعروة بن الزبير وقبيصة بن ذؤيب وعبد الملك بن مروان قبل أن يدخل الإمارة. وقال الشعبي: ما جالست أحدا إلا وجدت لي الفضل عليه، إلا عبد الملك بن مروان فإني ما ذاكرته حديثا إلا زادني منه، ولا شعرا إلا زادني فيه (البداية والنهاية ٩ : ٦٢-٦٣).

٢ – عبد الله بن دينار الإمام المحدّث الحجة، من أعلام التابعين وفقهائهم. توفي سنة ١٣٦هـ.

٣ – يعني اتفقوا على خلافته.

٤ – صحيح البخاري – كتاب الأحكام.

٥ – الخليفة العباسي المأمون الذي جاء ببدعة أن القرآن مخلوق، وعذّب بسببها كثيراً من العلماء أمثال الإمام أحمد بن حنبل وتلامذته، ثم سار الواثقُ سيرةَ المأمون في هذه الفتنة. ويُروى أن الواثق أُتي إليه بشيخ مُقَيّد يقول إن القرآن غير مخلوق فلما أُدخل قال: السلام عليك يا أمير المؤمنين، فقال الواثق: لا سلَّم الله عليك، قال الشيخ: يا أمير المؤمنين، بئس ما أدبك به مؤدبك، قال الله تعالى: "وَإِذَا حُيِّيتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا".

أحكامُه أم هيَ مَرْدودةٌ؟ وهيَ مسألةٌ معروفةٌ. وهذا أَشَدُّ مِنْ بُروداتٍ ذَكَرَها أصحابُ التواريخِ مِنْ أنَّ فُلاناً الخَليفةَ شَرِبَ الخَمْرَ أو غَنّى أو فَسَقَ أو زَنَى[١]، فإنَّ هذا القولَ في القرآنِ بدعةٌ أو كفرٌ - على اختلافِ العلماءِ فيه - قدِ اشْتُهِروا به، وهذه المعاصي لم يَتَظاهَروا بها إنْ كانوا فَعَلُوها[٢]، فكيفَ يَثْبُتُ ذلكَ عليهم بأقوالِ المغَنّينَ والبُرّادِ مِنَ المؤرّخينَ الذينَ قَصَدوا بِذِكْرِ ذلكَ عنهم تَسْهيلَ المعاصي على النّاسَ، ولِيَقولوا إذا كانَ خُلَفاؤنا يَفْعَلون هذا فما يُسْتَبْعَدُ ذلكَ منّا.

وساعَدَهم الرؤساءُ على إشاعةِ هذه الكُتُبِ وقِراءتِها لِرَغْبَتِهم في مثلِ أفعالِهم حتّى صارَ المعروفُ مُنكراً والمنكرُ مَعْروفاً، وحتّى سَمَحوا للجاحِظِ[٣] أنْ تُقْرَأَ كُتُبُه في المساجدِ وفيها مِنَ الباطلِ والكَذِبِ والْمَناكيرِ ونِسْبَةِ الأنبياءِ إلى أنَّهم وُلِدوا لِغَيرِ رِشْدَةٍ[٤] كما قالَ في إسحاقَ صَلَّى اللهُ عليهِ وَسَلَّمَ في كتابِ الضَّلالِ والتَّضليلِ[٥]. وكمَا مَكَّنوا مِنْ قراءةِ كُتبِ الفلاسِفَةِ في إنْكارِ الصّانِعِ وإبْطالِ

---

١ - يعني أن ما نسب إلى الأمويين أهونُ من قول المأمون بخلق القرآن وسماح العباسيين بقراءة كتب الجاحظ في المساجد مع ما فيها من مناكير.

٢ - يعني لم يُعرف عن خلفاء بني أمية أن جاهروا بالمعاصي التي رماهم بها خصومهم.

٣ - أبو عثمان عمرو بن بحر المعتزلي، صاحب التصانيف. قال عنه ثعلب: ما هو بثقة. وقيل كان ماجنا قليل الدين، له نوادر.

٤ - يعني مشكوك في نسبهم، يقال فلان وَلَدُ رِشْدَة إذا كان صَحيح النَّسَب أَو مِن نكاح صَحيح. وفي الحديث الضعيف: «من ادّعى ولَدًا لِغيرِ رِشْدة فلا يَرِث ولا يُورث».

٥ - كتاب الجاحظ اسمه البيان والتبيين. ويبدو أن ابن العربي يسخر منه فسماه بعكس اسمه: الضلال والتضليل.

الشّرائعِ لِمَا لوُزَرائهم وخَواصِّهم في ذلكَ مِنَ الأغراضِ الفاسدةِ الباطلةِ، فإنْ زَلَّ فقيهٌ أو أساءَ العبارةَ عالِمٌ:

يَكُنْ ما أَساءَ النّارَ في رَأْسِ كَبْكَبَا [١]

وبالوقوفِ على هذه الفصولِ تَحْسُنُ نِيّاتِكُم، وتَسْلَمُ عنِ التَّغَيُّرِ قُلوبُكم على مَنْ سَبَقَ.

وقدْ بَيَّنْتُ لكمْ أنكمْ لا تَقْبَلونَ على أَنْفُسِكم في دينارٍ، بل في دِرهمٍ إلا عَدْلاً بريئاً مِنَ التُّهَمِ، سَليماً مِنَ الشَّهْوةِ؛ فكيف تَقْبَلونَ في أحوالَ السَّلَفِ وما جَرَى بينَ الأوائلِ ممنْ ليسَ له مَرْتبةٌ في الدِّينِ، فكيفَ في العدالَةِ!

ورَحِمَ اللهُ عُمَرَ بنَ عبدَ العزيزِ حيثُ قالَ وقدْ تَكَلَّموا في الذي جَرَى بينَ الصحابةَ: {تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ}.

والحَمْدُ للهِ الذي بِنِعْمَتِه تَتِمُّ الصّالحاتُ.

---

١ – كبكب: جبل خلف عرفات مشرف عليه، كان لبني سامة بن لؤي قبل أن يجلوا إلى عمان. والشعر للأعشى، وتمامه:

ومن يغترب عن قومه لا يزل يرى	مصارع مظلوم مجرا ومسحبا
وتدفن منه الصالحات، وإن يسئ	يكن ما أساء النار في رأس كبكبا

مراجع محب الدين الخطيب:

ديوان ذي الرمة غيلان بن عقبة (٧٧- ١١٧) - مخطوطتنا الخاصة
موطأ مالك بن أنس (٩٣ - ١٧٩) بتعليقات الأستاذ محمد فؤاد عبد الباقي ١٣٧٠
كتاب الخراج للقاضي أبي يوسف (١١٣ - ١٨٢). طبع السلفية
كتاب الخراج ليحيي بن آدم (وفاته ٢٠٣) بشرح الشيخ أحمد شاكر. السلفية ١٣٨٤
طبقات ابن سعد (١٦٨ - ٢٣٠) طبع ليدن ١٣٢١
نسب قريش لمصعب بن عبد الله الزبيري (١٥٦ - ٢٣٦)
مسند أحمد (١٦٤ - ٢٤١). الطبعة الأولى بمصر ١٣١٣
مسند أحمد بتحقيق الشيخ أحمد شاكر. (صدر منه ٩ أجزاء)
كتاب الزهد للإمام أحمد. طبع مكة سنة ١٣٥٧
صحيح البخاري (١٩٤- ٢٥٦) الطبعة السلطانية بالقسطنطينية ١٣١٥
صحيح مسلم (٢٠٦ - ٢٦١) الطبعة السلطانية بالقسطنطينية ١٣٢٩
سنن أبي داود (٢٠٢ - ٢٧٥) طبع دهلي ١٢٧٢
سنن ابن ماجه (٢٠٩ - ٢٧٣). بتحقيق الأستاذ محمد فؤاد عبد الباقي. مصر ١٣٧٣
جامع الترمذي (٢٠٩ - ٢٧٩) وشرحه عارضة الأحوذي لابن العربي. مصر ١٣٥٠
سنن النسائي (٢١٥ - ٣٠٣). مصر ١٣١٢
البيان والتبيين للجاحظ (المتوفى سنة ٢٥٥). مصر ١٣٣٢
ديوان الحطيئة بشرح أبي سعيد السكري (٢١٢ - ٢٧٥). مصر
الميسر والقداح لابن قتيبة (٢١٣ - ٢٧٦). طبع السلفية ١٣٨٥
فتوح البلدان للبلاذري (المتوفى سنة ٢٧٩). مصر ١٣٥٠
أنساب الأشراف للبلاذري. القدس ٣٦ - ١٩٣٨
تاريخ الطبري (٢٢٤ - ٣١٠). مصر ١٣٢١
تفسير الطبري: طبع بولاق ١٣٢٣

كتاب العزلة لأبي سليمان الخطابي (٣١٧ - ٣٨٨). مصر ١٣٥٢
المستدرك على الصحيحين للحاكم بن البيع (٣٢١ - ٤٠٥). حيدر أباد
الأحكام السلطانية للماوردي (٣٦٦ - ٤٥٠). مصر ١٣٢٧
التمهيد لأبي بكر الباقلاني (وفاته ٤٠٣). بتحقيق الأستاذ الخضيري ١٣٦٦
الاستيعاب لابن عبد البر (٣٦٨ - ٤٦٣) بهامش الإصابة. مصر ١٣٢٨
الفصل في الملل والنحل لابن حزم (٣٨٤ - ٤٥٧). مصر ١٧ - ١٣٢١
الإحكام في أصول الأحكام لابن حزم. مصر ٤٥ - ١٣٤٨
السنن الكبرى للبيهقي (٣٨٤- ٤٥٨). حيدر أباد الدكن ٤٤ - ١٣٥٥
الكفاية للخطيب البغدادي (٣٩٢ - ٤٦٣) حيدر أباد ١٣٥٧
معجم ما استعجم للبكري (وفاته ٤٨٧) بتحقيق الأستاذ مصطفى السقا ٦٥ - ١٣٧١
مطمح الأنفس للفتح بن خاقان القيسي (وفاته ٥٣٥). طبع الجوائب ١٣٠٢
تهذيب تاريخ دمشق لابن عساكر (٤٩٩ - ٥٧١). دمشق ٢٩ - ١٣٥١
النهاية في غريب الحديث للمجد ابن الأثير (٥٤٤ - ٦٠٦). مصر ١٣١١
معجم البلدان لياقوت (٥٧٤ - ٦٢٦). طبعة وستنفلد. لايبسيك ١٨٧٠
المنتقى من أحاديث الأحكام لمجد الدين عبد السلام بن تيمية (٤٩٠ - ٦٥٢)
وفيات الأعيان لابن خلكان (٦٠٨ - ٦٨١). مصر ١٢٩٩
لسان العرب لابن منظور (٦٣٠ - ٧١١). طبع بولاق ١٣٠ - ١٣٠٨
منهاج السنة لشيخ الإسلام ابن تيمية (٦٦١ - ٧٢٨). بولاق ١٣٢١
المنتقى من منهاج الاعتدال مختصر منهاج السنة للذهبي (٦٧٣- ٧٤٨) طبع السلفية
لسان الميزان للحافظ الذهبي (٦٧٣ - ٧٤٨). مصر ١٣٢٥
تذكرة الحفاظ للذهبي. طبعة حيدر أباد الدكن ٣٣ - ١٣٣٤
التمهيد والبيان في مقتل عثمان لابن بكر الأشعري (٦٧٤ - ٧٤١) مخطوطة دار الكتب
البداية والنهاية لابن كثير (٧٠١- ٧٧٤). طبع مصر
المراقبة العليا للنباهي (المولود سنة ٧١٣) بتحقيق بروفنسال ١٣٦٧

طبقات الشافعية لابن السبكي (٧٢٨ - ٧٧١). مصر ١٣٢٤
الديباج المذهب لابن فرحون (المتوفى سنة ٧٩٩). مصر ١٣٢٩
العبر لولي الدين ابن خلدون (٧٣٢ - ٨٠٦) بولاق ١٢٨٤
الروض الباسم في الذب عن سنة أبي القاسم لابن الوزير (٧٧٥ - ٨٤٠) المنيرية ١٣٤٦
الإصابة للحافظ ابن حجر (٧٧٣ - ٨٥٢). مصر ١٣٢٨
فتح الباري للحافظ ابن حجر. السلفية ١٣٨٠
لسان الميزان لابن حجر. حيدر أباد الدكن ٣٠ - ١٣٣١
تهذيب التهذيب لابن حجر. لكنو بالهند ١٣٢١
الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل لمجير الدين عبد الرحمن بن محمد العليمي المقدسي (٨٦٠ - ٩٢٧). طبعة مصر ١٢٨٣
خلاصة تذهيب الكمال للصفي الخزرجي (ألفها سنة ٩٢٢). طبع مصر ١٣٢٣
شذرات الذهب لابن العماد (١٠٣٢ - ١٠٨٩). مصر ٥٠ - ١٣٥١
تاج العروس للمرتضى الحسيني (١١٤٥ - ١٢٠٥). مصر ٦٧ - ١٣٠٧
فصل الخطاب لعدو الله حسين النوري الطبرسي. إيران ١٢٩٨
تنقيح المقال للمامقاني (١٢٩٠ - ١٣٥١) طبع النجف ١٣٥٢
شجرة النور الزكية لمخلوف. طبع السلفية ٤٩ - ١٣٥٠
تاريخ القرآن والمصاحف لأبي عبد الله الزنجاني. مصر ١٣٥٤
عثمان بن عفان للشيخ صادق عرجون. مصر ١٣٦٦
مجلة الأزهر مصطلح التاريخ للدكتور أسد رستم

المحتويات

للمراسلة والتواصل:

محمد علي حسين

mali_111@hotmail.com

الكويت 98866903

مصر 01099694140